مكتبـــة الرَّأيْ (١٢)
المؤسســة الصحفيــة الأردنيـــة

مَشاهِــدُ وَذِكْــرَيَـاتْ

سليمان موسى

الى الوجوه الحافلة بأنسام الذكريات

عمــان
المملكة الأردنية الهاشمية

الطبعة الأولى/ نيسان ١٩٩٦

رقم الايداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(١٩٩٦/٤/٥٢٦)

الفهرسة من المكتبة الوطنية

رقم التصنيف : ٩٢٠

المؤلف ومن هو في حكمه :سليمان موسى

عنوان المصنف :مشاهد وذكريات

رؤوس الموضوعات : ١ـ التاريخ والجغرافيا

٢ـ تراجم

رقم الايداع : (١٩٩٦/٤/٥٢٦)

الملاحظات: مكان الطبع : عمان

: الطابع: جريدة الرأي

* ـ تم اعداد بيانات الفهرسة الاولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

رقم الاجازة المتسلسل: (١٩٩٦/٤/٣٩٩)

رقم الايداع: (١٩٩٦/٤/٥٢٦)

مقدمة

بقلم : محمود الكايد

رئيس تحرير «الرأي»

أود أن أعرب أولاً عن شعور السعادة الذي يغمرني، كلما أقدمت المؤسسة الصحفية الأردنية «الرأي» على نشر كتاب جديد. ذلك لأنني أعتقد أن دور هذه المؤسسة، يتعدّى مجرد اصدار صحيفتين يوميتين ناجحتين (الرأي) و(الجوردان تايمز) ـ الى الاسهام بفعالية في رفد الحركة الثقافية الناشطة في الأردن. ومن هذا المنطلق كان الاقدام على نشر مجموعة الكتب التي ظهرت في السنوات الأخيرة عن (مكتبة الرأي) والتي هي ذات صلة وثيقة بالأردن من النواحي الفكرية والثقافية والتاريخية.

ويسعدني اليوم أن أقدم لجمهرة القراء كتاب الصديق الاستاذ سليمان الموسى (مشاهد وذكريات) الذي كانت (الرأي) نشرته في حلقات خلال شهري أيلول وتشرين الأول ١٩٩٣. والاستاذ الموسى صديق عزيز قديم عرفته منذ ثلاثين عاماً، وكان أول ما قرأت له كتابه (غربيون في بلاد العرب) الذي أعجبني فيه انه نقل للقارئ العربي ملامح تاريخية واجتماعية من أقلام أشخاص أجانب عرفوا هذه البلاد وعاشوا فيها وكونوا انطباعات عنها وعن أهلها، ثم نشروها في كتب تداولها الناس في بلاد الغرب. وكان نقل فصول الكتاب الى العربية، إثراءً لمعرفتنا بما حدث بالأمس البعيد والقريب. في نظرة تقابل نظرتنا السابقة، ورؤية مختلفة الى حدٍّ ما، وفي القاء أضواء على الجانب الآخر من هذا الحَدَث أو ذاك. ومع مضي الزمن استمرت اللقاءات وتوثقت الصلة، وكان من المحتمل أن نكون زملاء في دنيا الصحافة، الا انه آثر أن يستمر في الطريق الذي اختاره لنفسه منذ البداية ـ طريق الكتابة في التاريخ. ويبدو لي انه أحسن الاختيار، وقدّم خدمات جليلة لقومه العرب وبلده الأردن، وأحرز نجاحات لا يُستهان بها.

أما هذا الكتاب الذي رأى الاستاذ الموسى أن أتولى مهمة تقديمه، فيختلف عن معظم مؤلفاته الأخرى. ومع أنه ليس كتاباً تاريخياً بالمعنى المعروف، الا أنه يطلّ على التاريخ، ويمكن أن يكون في بعض صفحاته رافداً للتاريخ. لقد

كان لأدب الرحلات في حياة العرب الثقافية شأن عظيم، ولكن التطور المعاصر في دنيا المواصلات والاتصالات، حوّل كتابة أدب الرحلات من وصف بلدٍ ما وصفاً جغرافيا، ووصف متاعب الوصول اليه والحديث عن عادات أهله وتقاليدهم وأحوالهم المعيشية ـ الى حديث حول لقاء الانسان بالانسان، حول القِيَم والأفكار، حول نقاط التوافق ونقاط التباين. وأخيراً ـ وليس آخراً ـ حول مجالات الاكتساب الثقافي والمعرفي والانساني. وقد أُتيح للصديق المؤلف أن يرحل الى عدة أقطار، شرقية وغربية، عربية وغير عربية. ومن الواضح أن عينه كانت دائماً على ارتياد المنابع المتاحة، خارج بنود البرامج الرسمية. كانت هناك طموحات وآفاق تخرج عن نطاق المهمة المحددة. من هنا نراه يذهب الى تونس فيسعى للالتقاء بالباهي الأدغم وفاضل الجمالي، ويرحل الى بغداد فيلتقي بهذا وذاك من رجال السياسة والفكر، وكذلك الأمر في دمشق وبيروت والقاهرة والرياض ولندن، وغيرها. ولا تكون لقاءات صديقنا عابرةً وعلى الماشي، بل ترى وراءها هدفاً معيناً وطموحاً بعيداً. ثم انه لا يترك لقاءاته للذاكرة، بل يدوّن ما سمع هنا ورأى هناك، ساعةً بساعة ويوماً بعد يوم. وهكذا جاء كتابه حافلاً بالأحاديث والآراء والمواقف، كما جاء حافلاً بالنوادر والحكايات، ليس بقصد التفكهة والترويح، بل بقصد اعطاء المثل والعبرة والدلالة التاريخية أو الاجتماعية.

لهذا كله، يسعدني أن أقدّم هذا الكتاب في سلسلة (مكتبة الرأي) وأنا على ثقة بأنه سيجد ترحيباً لا يقلّ عن الترحيب الذي لقيه عندما نشرته «الرأي» في حلقات، قبل ثلاث سنوات.

محمــــود الكايــــد

عمّان ـ ١٩٩٦

ملحوظة : نشرت حلقات هذا الكتاب في جريدة «الرأي» اعتبارا من ١٩٩٣/٩/١٥ وحتى ١٩٩٣/١٠/٩. وكانت في احدى وعشرين حلقة.

توطئـــــة

نشرت (الرأي) الغرّاء حلقات هذا الكتاب خلال شهري أيلول ـ تشرين الأول ١٩٩٣. وها هي تضعه بين أيدي القراء، محطةً من بين محطاتها الثقافية، بعد أن اجتازت بنجاح عظيم ربع القرن الأول من عمرها المديد السعيد.

كان لكتب الرحلات والأسفار في العصور السالفة، شأن وأي شأن، في مجال التعريف بالأقطار الأخرى، وأحوال شعوبها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. ولكن هذا الباب من أبواب المعرفة أخذ يتراجع في عصرنا الراهن، بسبب التقدم العلمي الهائل في مجالات الاتصال، من صحافة واذاعة وسيارات وطائرات. ومع ان وسائل الاتصال الحديثة تستطيع أن تنقل صورة حَدَث من الأحداث، الا أنها لا تستطيع أن تنقل اللمسات الانسانية التي نحسّ بها عندما نتغرّب عن أوطاننا ونتعايش مع أبناء الشعوب الأخرى، فنلاحظ ما بيننا وبينهم من اختلاف ومفارقات في العادات والتقاليد وفي أساليب العيش والنظر الى الأمور.

لقد أتاحت لي فرص الحياة أن أرحل الى عددٍ من الأقطار القريبة والبعيدة. ومرّت بي في أثناء ذلك مواقف ومشاهدات، بدا لي انها جديرة بأن توضع بين أيدي القراء من أبناء بلادي، ممن لم يُتح لهم مجال رؤية ما رأيت ومعرفة ما عرفت. ومما شجعني على ذلك أنني كنت نشرت مقالات عن بعض تلك الرحلات، حظيت برضى القراء، ابتداءً من مجلة (حول العالم) لصاحبها المرحوم صبحي زيد الكيلاني (أيار ـ حزيران ١٩٥٨)، وامتداداً الى مقالات نُشرت في مجلات (أفكار) و(الشباب) و(التلفزيون) وغيرها.

أعترف هنا أنني لست من طراز اولئك الكتاب الذين يقررون بأنفسهم لأنفسهم، فيعمدون الى دفع انتاجهم للمطابع اعتماداً على اقتناعهم الذاتي، لا غير. ومن هنا كنت قدمتُ مخطوطة هذا الكتاب الى الصديقين الشاعرة الكبيرة فدوى طوقان والاستاذ المرموق إحسان عباس. انني مدين لفضلهما ولما أعطيا من وقت ثمين في مطالعتها، وللملاحظات القيمة التي أبدياها، فانتفعتُ بها وأفدت منها. جزاهما الله عني كل خير.

وهذه الصفحات لا تقتصر على مشاهداتي في هذا البلد أو ذاك. أو على لقائي بهذه الشخصية أو ذلك السياسي، بل تقدم الكثير مما يعرّف بأنماط التفكير والسلوك، ويصوّر عادات القوم وتقاليدهم وأساليب حياتهم، وفيها

كذلك ملامح تتصل بالقيم والدلالات التاريخية، وأزعم أنها تنطوي ايضاً على روايات تذهب مذهب العبرة لمن أراد أن يعتبر، ومذهب النادرة لمن شاء أن يتندّر.

لقد أتاح الصديق الاستاذ محمود الكايد لقراء (الرأي) مطالعة هذه المشاهد والذكريات قبل عامين، في حلقات متتالية. ويجدر بي أن أنوه وأشيد بفضله اذ يتيح لها الآن مجال النشر بين دفتي كتاب. جزاه الله كل خير.

عمان ٢ أيلول ١٩٩٥ سليمان موسى

وقد طَوّفتُ في الآفاقِ حتى
رَضيتُ من الغنيمةِ بالأيابِ

دمشـــــق / ســوريـــــا

منذ أيام الصبا كانت دمشق حلماً يداعب الخاطر ويلهب الخيال. دمشق مدينة الرقة والحلاوة والجمال. المدينة العابقة بأنفاس التاريخ. عاصمة بني أمية، عاصمة معاوية. من يذكر معاوية لا بدّ أن يذكر ميسون بنت بجدل، ميسون البدوية المليحة التي لم تألف حياة الدور والقصور، فظل الحنين يشدّها الى بيوت الشعر، الى حياة البوادي والفلوات. ميسون فتاة بني كلب، أجداد الأردنيين، أخوال يزيد، وعزوة الأمويين:

لَبيتٌ تخفقُ الأرياحُ فيه أحبُّ اليّ من قصرٍ منيفِ

في أول عهدي بدمشق، بدت مدينةً هادئة، مهيبة، ساحرة. وكان بردى نهرا يرغي ويزبد، وله هدير وخرير، وأشجار الحَور الباسقة تلقي ظلالها على صفحته، كما يلقي قاسيون ظلاله على المدينة كلها. وتنحدر مع الوادي غربا، وتمضي في ربوع الغوطة جنوباً، فترى جنة الله في أرضه، بكل ما منحتها الطبيعة من عطاء وبهاء.

وفي الطريق الى المسجد الأموي الكبير، تقف على حافة الرصيف في سوق الحميدية، وتملّي النظر من كل ما تقع عليه العين، وأسراب الصبايا غاديات رائحات، فتسبّح الخالق الذي صنع وسوّى، وتذكر وقفة الشاعر في وادي السير :

ليت الوقوفُ بوادي السير إجباري ...

ليت الوقوف في سوق الحميدية يطول ويطول.

كان ذلك حال دمشق في أول عهدي بها، قبل خمسين عاماً، تنقص أو تزيد.

وعدت لزيارة دمشق مرات ومرات. وفي ربيع ١٩٥٩ ذهبت اليها بقصد الالتقاء بعدد من الرجال التاريخيين. كنت حينذاك أعمل في تأليف كتاب: «تاريخ الأردن في القرن العشرين». وألتقيت أكثر من مرة بالدكتور صبحي ابوغنيمة، زعيم المعارضة الأردنية، الذي اتخذ من دمشق مقراً ثابتاً لنشاطه السياسي.

كان ابوغنيمة تلقّى دراسة الطب في المانيا، وعاد الى عمان وافتتح عيادة فيها، وقد امتلأت نفسه بالطموحات الوطنية ومبادئ الحرية والاستقلال. ولم يلبث ان وجد مكانه الطبيعي في صفوف المعارضة ـ معارضة الانتداب البريطاني وكل ما ينطوي عليه ويمثله من تقييد للسيادة الوطنية. وسرعان ما أصبح ابوغنيمة قطبًا بارزاً يلتف حوله الشبان المثقفون. وتضايقت السلطة الانتدابية من نشاطه فأخذت

تضيّق عليه وتراقب حركاته وسكناته، ويقف زبانيتها له بالمرصاد. وأخذ الرفاق يتباعدون، وأخذت قوة المعارضة تفقد اندفاعها تحت وطأة التضييق. ورأى بعض أقطاب المعارضة أن يقوموا بنشاطهم من داخل النظام ـ نظام الحكم، ورضي البعض الآخر بمنصب أو وظيفة. وألفى ابوغنيمة نفسه يكاد يكون وحيداً في ساحة الرفض والتصدي. ومن هنا كان قراره في عام ١٩٣٤ بالنزوح الى دمشق ومواصلة العمل الوطني من هناك.

في دمشق أصبح أبوغنيمة موئلاً للأردنيين المعارضين، بينما التفّ حوله كثيرون ممن ذهبوا للدراسة في كلية الحقوق. والتقت خطواته هناك بخطى معارضي السياسة الأردنية من السوريين والفلسطينيين. ولكن المعارضة في أساسها ظلت معارضة للانتداب. ومن ذلك المنطلق نرى الملك عبدالله يوجه الدعوة الى ابوغنيمة، بعد بضعة أسابيع من حصول الأردن على استقلاله. ويلبّي ابوغنيمة الدعوة ويجيء الى عمان (تموز ١٩٤٦). ويقول له الملك في أول لقاء بينهما: ها إن الانتداب الذي كنت تعارضه قد مضى وانقضى. فعدْ الى أهلك وبلدك، واعمل بما أعرف عنك من نشاط واخلاص في مجال الخدمة العامة. ويقيم ابوغنيمة أياما في عمان، ينعم النظر في وضعه ووضع الأردن الجديد. حقاً لقد انتهى الانتداب، ولكن الاستقلال كان مشروطا بمعاهدة مع بريطانيا ـ معاهدة تعاون وصداقة ومنافع متبادلة. وكان لا بدّ من التدرج البطيء، سنوات وسنوات. وكرهت نفس ابوغنيمة أن يتعاون مع سياسيين آخرين، كان لا بد من وجودهم في الحكم في تلك المرحلة. ولم يكن بالامكان اسناد رئاسة الوزارة اليه دون فترة تمهيد. ومن هنا آثر ان يعود الى دمشق ليستأنف حمل راية المعارضة. ومع ان الذين ودعوه عندما غادر عمان، كانوا أقل بكثير من الذين هرعوا يوم مجيئه يستقبلونه في الرمثا ـ فان ذلك لا يعود وزره عليه، بل على طبيعة الناس الذين لا يقبلون الا على من تقبل الدنيا عليه. عند مجيئه شاع انه سيؤلف الوزارة، فأقبل المستوزرون للاحتفاء به، وعند عودته لم ير المستوزرون مصلحةً لهم في توديعه:

والناس من يلقَ خيراً قائلون له　　　ما يشتهي، ولأم المخطئ الهَبَلُ

ولكن اذا كنتُ سعدتُ وأفدت من لقائي بالدكتور صبحي ابوغنيمة، فان لقائي بنبيه العظمة لم يكن مسعداً أو مفيداً. كان نبيه العظمة واحداً من السوريين الذين جاءوا الى شرقي الأردن بعد وصول الأميرعبدالله. ووجد عملاً في جهاز الحكومة الجديدة. وأُسندت اليه مناصب مهمة كان من بينها منصب مدير الأمن. وفي عام ١٩٢٤ وقعت حوادث دفعت سلطات الانتداب الى انذار الحكومة الأردنية بوجوب اخراج منتسبي حزب الاستقلال من شرقي الأردن. وأضطرت الحكومة ـ تحت وطأة التهديد العسكري ـ أن توعز لهؤلاء (ومن بينهم نبيه العظمة) بالخروج.

وكان بين اولئك الذين خرجوا من قدّر الوضع على حقيقته (أحمد مريود - مثلا) فالتمس العذر لأبناء قومه. ولكن كان هناك أشخاص (نبيه العظمة وآخرون) لم يلتمسوا العذر لأبناء قومهم، وظلوا يوجهون سهام النقد لمن رحّبوا بهم واستضافوهم في أوقات الضيق.

ممنوع الدخول

في عام ١٩٦١ كنت منهمكا في البحث عن مصادر لكتاب (لورنس والعرب - وجهة نظر عربية) الذي كنت أعمل في تأليفه. ورأيت أنه لا بدّ لي من الذهاب الى دمشق، للالتقاء بأشخاص تاريخيين اشتركوا في الثورة العربية أو كانت لهم علاقة بأحداثها، وعرفوا لورنس شخصياً، من أمثال نسيب البكري، وفائز الغصين، والامير سعيد الجزائري وفخري البارودي ونزيه المؤيد. قيل لي أن فائز الغصين رجل لا يسهل الحصول على ثقته، فأعطاني صديقي الكبير عوني عبدالهادي رسالة تعريف وتوصية، اذ كان كلاهما من أعضاء الوفد العربي الذي رافق فيصل بن الحسين الى مؤتمر السلام في باريس. ولكن كم كانت المفاجأة كبيرة، عندما وصلت الى نقطة الحدود في درعا، وقيل لي هناك انني ممنوع من دخول الأراضي السورية. لم يكن صدر مني أي عمل ينطوي على الاساءة لسوريا، فاستغربت ذلك وعجبت. حقاً كانت العلاقات متوترة بين سوريا والأردن في عهد الوحدة (بين مصر وسوريا). ولكن كان الانفصال قد وقع قبل سفري بنحو شهرين. وكان عهد السرّاج الأسود قد ذهب وانتهى، وعادت العلاقات بين الأردن وسوريا الى طبيعتها. وعدت أدراجي الى عمان حزيناً موجع القلب. وراجعت السفارة السورية في عمان محتجاً. وبعد أشهر جاءتني رسالة تقول إن باستطاعتي الذهاب الى سوريا، شريطة أن أقدم نفسي فور وصولي لدمشق الى مخفر المهاجرين.

ومضيت الى دمشق مسلحاً بتلك الرسالة. وفي مخفر المهاجرين سألني أحد الضباط عن نشاطاتي السياسية وعلاقاتي الحزبية. وأجبت على كل الاسئلة، وتمّ اغلاق الملف الذي لا أدري كيف فُتح. وأمضيت في دمشق أياماً التقيت في اثنائها بنسيب البكري أكثر من مرة في منزله بحي السبكي، وكذلك بفائز الغصين في منزله بشارع الكواكبي.

من جملة المفارقات الغريبة، ما حدثني به - فيما بعد - الزميل ابراهيم السمان، من أن شخصاً من رام الله يحمل الاسم الذي أحمل، ذهب في تلك الأثناء الى دمشق زائرا، فأُلقي به في السجن أياما، الى أن أثبت انه غير الشخص المطلوب (الذي هو انا). عندئذ أدركت أنني كنت محظوظاً حينما قيل لي: عدّ أدراجك الى عمان.

ادعاءات لورنس

ومرةً أخرى عدت الى دمشق في آذار ١٩٦٥. والتقيت ثانيةً بالبكري والغصين.

اما الامير سعيد فقد كان سافر الى بلاد جده الكبير عبدالقادر الجزائري.

كان اهتمامي منصباً على التحقيق في ادعاءات لورنس، وخصوصاً ادعاءه انه في حزيران ١٩١٧ غادر رفاقه في النبك (قريات الملح) وقام منفردا برحلة استطلاعية الى تدمر وبعلبك ودمشق وجبل الدروز. وقد أكد البكري (رفيق لورنس في تلك الرحلة) ان لورنس لم يغب عن عينيه يوما واحدا، وأن الحكاية مختلقة أصلاً وفصلاً، وأن قيام لورنس بها منفردا في ظروف الحرب العالمية الأولى، يدخل في نطاق المستحيلات الأربعة.

ومع أن فائز الغصين (وهو بدوي من عربان اللجاة) لم يرافق تلك الحملة (حملة فتح العقبة) الا انه كان صديقاً حميماً للضابط زكي الدروبي الذي رافقها، ومما قاله إن أمراً مهما كهذا ما كان يمكن أن يخفى على الدروبي، وانه لو وقع فعلاً لحدثه بخبره. وأضاف الى ذلك قوله ان لورنس ما كان يستطيع ان يتنقل في البوادي، بين قبائل العرب، ويذهب الى دمشق وجبل الدروز، في فترة كانت الحرب قائمة فيها. وعزا ادعاءات لورنس الى ميوله الخيالية والأدبية.

ثم جاء فائز الغصين الى عمان مرتين: في تشرين الاول ١٩٦٦ وفي شهر آب ١٩٦٧. وفي الزيارتين التقى بالشريف فواز شرف وشقيقه عبدالحميد اللذين احتفيا به على اعتبار انه كان رفيق ابيهما الشريف شرف بن راجح في الثورة العربية. ودارت بيني وبين الغصين أحاديث عديدة في أثناء زيارتيه لعمان. كما طالعت يومياته التي كان نشرها في جريدة (القبس) عن أحداث الثورة، والتي كان يؤمل ان يتوسع فيها وينشرها جزءاً ثانياً من مذكراته.

وفي دمشق التقيت كذلك بأكرم الركابي، نجل علي رضا الركابي، فأكد لي شفوياً (وفي رسالة بخط يده) ان زعم لورنس انه قابل أباه في دمشق، لا يمكن أن يكون صحيحاً وانه مختلق جملة وتفصيلاً.

وفي هذا الصدد لا تفوتني الاشارة الى انني سافرت في تلك الاثناء الى قرية طفس، حيث أمضيت ليلة في ضيافة منصور حريذين، نجل الفارس الشهيد الشيخ طلال حريذين. وفي تلك الزيارة التقيت بعدد من ابناء القرية الذين عاصروا أيام الحرب العالمية الأولى، وكانوا شهوداً على الاشتباك الذي وقع في القرية بين المفارز التركية في اثناء انسحابها، وبين سكان طفس. وكان قصدي ان أتحقق من ادعاءات لورنس حينما زعم ان قائد موقع درعا التركي (هاجم محي الدين) حاول أن يعتدي عليه جنسياً. وقد اقتنعت من القرائن ان ادعاءات لورنس لا نصيب لها من الصحة. وفي هذا الصدد أذكر ما أفادني به المرحوم ناصر الفواز الزعبي عن هاجم محي الدين، اذ كان يخدم معه ضابطاً في الجيش العثماني.

مصطفى طلاس

من الطبيعي أن تتعدّد زياراتي لسوريا، ولدمشق بالذات. ولكن زيارتي لها في أيار ١٩٧٧ كانت ذات لون خاص. وتعود القصة في بداية البداية الى كتابي (الحركة العربية) والى اهتمام اللواء مصطفى طلاس وزير الدفاع السوري به. ذلك ان اللواء طلاس فكّر في أثناء الفترة التي توثقت فيها العلاقات الودية بين سوريا والإردن، في أن يؤلف كتاباً عن الثورة العربية الكبري. وقاده البحث في المصادر الى كتابي هذا الذي كان نُشر في بيروت عام ١٩٧٠. وقد اهتم بالكتاب اهتماماً خاصاً ووجد فيه الكثير من الجوانب التي تغطي ما كان ينقصه في موضوع الثورة.

حدث بعد ذلك أن طلاس أوفد ضابطاً ومصوّراً الى الديوان الملكي في عمان، لتصوير ما قد يوجد فيه من وثائق وصور تاريخية. وعند وصول الضابط والمصور، أحالهما أحد موظفي الديوان لمراجعتي. ولم يكن هناك مجال الا ان أبذل ما كان في وسعي من جهد لتوفير الخدمة اللازمة، فسمحت للمصور بأن يصور عدداً من الوثائق والصور التي توجد في حوزتي.

يبدو أن هذه الخدمة تركت أثرها، فتلقيتُ بعد مدة دعوة من اللواء طلاس لزيارة سوريا ضيفاً على وزارة الدفاع السورية.

كانت تلك الدعوة من جملة المنح التي أتاحتها مؤلفاتي لي، فبادرت الى تلبيتها بكل سرور.

استقبلني اللواء طلاس بمودة وترحيب في منزله وفي مكتبه بوزارة الدفاع. وتبين لي أن الرجل واسع الثقافة حسن الاطلاع على تاريخ العرب القديم والحديث، وكان مما قال إن الثورة العربية الكبرى حدث كبير وبارز، وانه عقد العزم على تأليف كتاب عنها، بعد ان حدّث الرئيس حافظ الأسد بنيته ولقي منه تشجيعاً قوياً. وهكذا عمل على تأليف الكتاب وطبع منه نحو ٣٠٠ نسخة ينوي أن يوزعها على عدد من الأساتذة المختصين لابداء ملاحظاتهم، قبل أن يعمد الى طبع الكتاب بصورته النهائية، وهو يود أن أقرأه وأبدي ملاحظاتي عليه.

اللواء طلاس شخصية جذابة. يشعر زائره بأنه قريب إليه. سألني عن الأماكن التي أحب أن أزورها، فقلت: أود أن أزور حلب وتدمر وسدّ الفرات. فقال إنه سيضع سيارة تحت تصرفي ومرافقاً يرافقني، وانني أستطيع أن أزور أي مكان أشاء.

قصة أوفقير

ودار الحديث بيننا فقال إنه زار بغداد لأول مرة سنة ١٩٦٣، وشعر بالأسى لأنه لم يزرها قبل ذلك، بينما ذهب المعري لزيارة بغداد على الرغم من انه كان

ضريرا. ثم حدثني عن زيارته للمغرب مع الرئيس الأسد (في اثناء انعقاد مؤتمر القمة). هناك دعته الأميرة لمياء الصلح للعشاء (هي ابنة عمة زوجته ـ ام فراس)، بينما كان زوجها الامير عبدالله، يتناول طعام العشاء مع الرئيس اللبناني شارل حلو.

بعد العشاء جاء الامير يرافقه الجنرال اوفقير. ولاحظ طلاس ان اوفقير يضع نظارات شمسية سوداء في الليل، فاستغرب ذلك وسأله عما اذا كان هناك ما يستوجب وضع هذا النوع من النظارات. وأجاب اوفقير أن عينيه سليمتان، ورفع نظارته عنهما. عندئذ أدرك طلاس أن أوفقير يبيت سرا خفيا، وان عقله الباطن أفصح عن خفايا نفسه من خلال وضع النظارة السوداء، دون سبب. كما لاحظ ان اوفقير كان يقبّل يد الامير ويد الاميرة باحترام مفتعل، اذ يقبّل أيديهما عند دخوله وعند خروجه بصورة متكررة. كل هذا دفعه بعد عودته الى دمشق، الى كتابة رسالة خاصة بعث بها مع علياء الصلح الى الملك الحسن، وفي تلك الرسالة تحذير للملك من اوفقير. ولكن الملك قال بعد ان اطلع على رسالته: ان اوفقير مخلص وقد رُبيّ معنا وهو مثل ابنائنا. وبقي الامر على ذلك الى ان أُطلقت الصواريخ على طائرة الملك الحسن، ثم ثبت أن أوفقير هو الذي أعطى الأمر للطيارين بضرب تلك الطائرة، فأمر الملك باعدامه. وفيما بعد التقى طلاس بالملك فقال له٠ لقد تنبأت بخيانة اوفقير ونبهتني، فاعتبر نفسك اخاً لي واعتبر نفسك مغربياً.

بعد ذلك رتب اللواء طلاس ان ازور الدكتور محمد خير فارس رئيس الجامعة بالوكالة (بعد مقتل الدكتور محمد الفاضل). واستقبلني الدكتور فارس وقال ان مؤتمر تاريخ بلاد الشام سوف يُعقد في دمشق في نيسان ١٩٧٨ وهو يود ان أشترك فيه .ثم أقام طلاس حفلاً تكريمياً حضره عدد من أساتذة الجامعة.

مدينة حلب

في الأيام التالية زرت حمص وحماة ومعرّة النعمان. وقبل ان نصل الى حماة، مررنا ببلدة الرستن، بلدة اللواء طلاس. وفي حلب زرت الاستاذ عبدالله يوركي حلاق صاحب مجلة (الضاد). وتجولت في حلب، فرأيت مدينة جميلة تزدان بحدائق عامة واسعة أشبه ما تكون بحدائق المدن الأوروبية. ويزيّن مدخل احدى الحدائق تمثال لأبي فراس الحمداني. ومنازل المدينة من الحجر، وهندسة البناء ذات طابع شرقي رائع، وبخاصة الشرفات التي تزين أدوار الأبنية. وقيل لي ان السكان يقضون سهراتهم الليلية في هذه الشرفات، ساعات وساعات يسهرون ويسمرون. وبدا لي ان حلب أجمل وأكثر نظافة من دمشق، وخاصة مدخلها الذي يزدان بالأشجار الخضراء. وتكثر المساجد القديمة والحديثة في المدينة. وهناك عدد من الكنائس الفخمة، وقيل ان المدينة تضم ما لا يقل عن نصف مليون مسيحي

(جزء كبير بينهم من الأرمن). وربما يكون هذا أكبر تجمّع للمسيحيين في الشرق، وما تزال المدينة القديمة تزدان بشوارعها ذات السقوف الرائعة، وهي عبارة عن عقود من الحجر، تتخللها، فتحات للضوء وسقوط المطر. وهي اكثر اتساعا من الشوارع القديمة الماثلة في دمشق والقدس.

وفي حلب قلعة تقوم على تل عال مخروطي الشكل، يحيط به خندق عميق، وله باب يتصل بالطريق العام بواسطة جسر يمتد فوق الخندق.

بحيرة الأسد / تدمر زنوبيا

ذهبت لزيارة سد الفرات الى الشمال من حلب، والى جانبه مدينة (الطبقة) التي أصبحت تعرف الان باسم مدينة (الثورة). والبحيرة التي نشأت عن السد (بحيرة الأسد) واسعة حقاً، فطولها ٨٠ كيلومترا وعرضها يقارب ٢٠ كيلومترا. وقد دهشت فعلاً لضخامة المشروع الذي ستروي مياهه آلاف الدونمات، وتعطي كمية ضخمة من الطاقة الكهربائية. وقيل ان السد واحد من أضخم عشرة سدود في العالم ، ووقفت أملّي النظر من المياه وهي تتدفق من فتحات السد. والمسافة بين حلب والبحيرة (١٧٠ كيلومترا)، تغطي أرضاً منبسطة مثل صفحة الكف، وتربتها حمراء ولا تحتاج الا الى كميات كافية من الماء لتعطي انتاجاً زراعياً وافراً.

بعد ذلك زرنا بلدة المعرّة. وتتفرع الطريق من هناك الى بلدة خان شيخون (بلدة ابوالهدى الصيادي) ثم مدينة (أفاميا) الأثرية. هنا شاهدت شارع أعمدة طويلاً جدا. لا شك انها كانت مدينة عظيمة في ايام ازدهارها. ثم انحدرت بنا الطريق الى جانب قلعة (المضيق) وهي على رأس تلة تشرف على سهل الغاب. وعبرنا سهل الغاب الخصيب وشاهدنا قلعة شيزر (قلعة اسامة بن منقذ الشهير). ومن هناك مضينا الى حمص ومنها الى تدمر. هنا الآثار الهائلة والأعمدة العظيمة، التي تذكرنا بالملكة زنوبيا. فيا له من منظر فريد رائع. ومع ان الزيارة كانت قصيرة، الا انها كانت كافية الى حد ما.

حديث عزّت دروزة

بعد عودتي الى دمشق ، اغتنممت الفرصة فذهبت مع الدكتور عدنان الخطيب لزيارة الاستاذ محمد عزت دروزة، المعروف بمؤلفاته التاريخية وبنشاطه السياسي الطويل. الفيناه يعيش في منزله وليس معه الا ابنة له تُعنى به. وقد حدثنا أنه أصبح الان في التاسعة والثمانين من العمر، وما يزال يتمتع بذاكرة قوية، ويعمل ويكتب ويطالع، وأدهشني انه يقرأ بعينيه مجردتين دون عوينات. ولكن أصابه الصمم ولذلك يستعمل جهاز سماعة. ومع ذلك فالسماعة لا تسعف كثيرا، حتى انني كتبت له بضع عبارات ليقرأها. في اثناء الحديث نوه بكتابي (الحركة العربية) وقال انه عمل عظيم. وعرّج على ذكر انيس الصايغ وكتابيه عن

الهاشميين، وقال انه أرسل اليه تفنيدا للكثير مما جاء في الكتابين، الا ان الصايغ لم ينشره كما وعد ولم يعد مخطوطته اليه، زاعما انها ضاعت. ولكن المسودة ما تزال باقية لديه وتتألف من ١٤٢ صفحة متوسطة الحجم. وشدد دروزة على ان الشريف حسين ضحّى بعرشه في سبيل فلسطين، لانه لو وقع المعاهدة مع الانكليز لما هاجمه ابن سعود. وفي هذا الصدد قال ان الملك عبدالعزيز حدثه وحدث رفاقه (عندما ذهبوا اليه في وفد عام ١٩٣٦) انه سأل الانكليز عن موقفهم بازاء الخلاف الناشب بينه وبين الشريف، فقالوا انهم على الحياد. وعندئذ شنّ هجومه على الحجاز.

في اليوم التالي عدت لزيارة الاستاذ دروزة، بعد ان أخفقت في زيارة السيد حسن الحكيم. طلبت من الاستاذ دروزه ان يحدثني عن الشيخ كامل القصاب، فحدثني حديثا يماثل ما كان محمد الشريقي رواه لي. فالقصاب كان ذهب الى القاهرة في الفترة ما بين اعلان الدولة العثمانية للتعبئة ودخولها الحرب بعد ثلاثة أشهر. وكان ذهابه بتكليف من الهيئة المركزية لجمعية العربية الفتاة، التي كانت تريد التعرّف على وجهة نظر حزب اللامركزية في مصر. وكان القصاب قد دخل قبل مدة من الزمن عضوا في (الفتاة) وسافر الى مصر بجواز سفر مغربي وبزي مغربي، وبحجة انه تاجر، ثم عاد من مصر الى بيروت في آخر باخرة غادرت مصر قبل اعلان الانكليز الحصار على سواحل الدولة العثمانية. وأبدى دروزة رأيه بأن القصاب لم يكن يلتزم بمواقفه، وله بعض الطباع الغريبة، ويميل الى اثارة الهياج. وحدثني دروزة عن نفسه فقال:

بعد معركة ميسلون وانهيار الدولة السورية في عام ١٩٢٠، عدت الى نابلس وأخذت أعمل في التجارة. ثم تلقيت رسالة من كامل القصاب يقول فيها انه في عمان وانه واخوانه من أحرار السوريين يودون ان أنضم اليهم. كان الامير عبدالله ما يزال آنذاك في معان. جئت الى عمان، فوجدت ان الامير وصل اليها. وطلب مني عوني عبدالهادي رئيس الديوان الاميري ان أبقى وأعمل معه. بقيت ولكن ذلك لم يطل الا لمدة ٢٥ يوما فقط. أقمت في عمان مع بعض الاخوان في غرفة من غرف محطة سكة الحديد، بينما كان الأمير في الخيام في رابية ماركا. ثم وصلتني رسالة من نابلس تقول انني سأمثل نابلس في المؤتمر الفلسطيني الرابع، فسارعت بالعودة اليها.

الأمير عبدالله عندما وصل الى معان كان يتوقع من السوريين ان يوفروا السلاح والرجال لخوض الحرب ضد فرنسا، بينما كان السوريون يتوقعون أن يأتي معه بالمال والسلاح والقوة العسكرية. كان هو ينظر الى الوضع بعين الواقع، بينما كنا نرى عدم الرضوخ للواقع. الأمير كان أكثر الهاشميين ذكاء وسعة

اطلاع. كان انساناً جذاباً لطيف المعشر عذب الحديث، وهو كاتب متين العبارة ويملك ثقافة لم يكن عند فيصل مثلها. في أيامه كان أذكى أمراء العرب وملوكهم ورؤسائهم واسع الافق حسن الادراك. اذا اقتنع بموقف ما ثبت عليه.

في أثناء الحديث تمثل دروزة بالآية الكريمة: «ولا تقف ما ليس لك به علم. ان السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسؤولا».

في السنة التالية (٢٨ تشرين الثاني ١٩٧٨) وفي اثناء انعقاد مؤتمر تاريخ بلاد الشام في دمشق، ذهبت مع الدكتور علي محافظة لزيارة الاستاذ دروزة. دار الحديث حول عدة قضايا. قال انه بعث لي رسالة بعد ان أهديت له نسخة من كتابي (المراسلات التاريخية) تمنّى فيها ان أواصل اصدار مثل ذلك الكتاب، وطلب الى الله ان يعينني في ذلك (مع الأسف لم تصل الرسالة). أشاد بكتابي (صفحات مطوية) وقال انه أمضى ثلاثين يوما حتى أتم قراءته بمعدل ٦-٧ صفحات في اليوم، بسبب ضعف بصره. وقال ان الكتاب غطّى بالوثائق والأدلة ما كان معروفا لديه بصورة متقطعة.

أثار اعجابي حرصه على الدقة في كلامه، فقد دار الحديث في لقائنا ذاك حول مشروع تقسيم فلسطين (١٩٣٨) ومن وافق عليه ومن لم يوافق، يبدو انه خشي بعد خروجنا - الدكتور محافظة وانا - ان نكون فهمنا من أقواله غير ما قصد، فبعث لي رسالة أعاد فيها عباراته. أكبرت ذلك وقلت في نفسي: الحمد لله انه يوجد في بلاد العرب من يحرص كل هذا الحرص على وزن أقواله والتدقيق في عباراته.

وذهبت لزيارة موقع ميلسون، ووقفت خاشعا أمام النصب التذكاري الذي أُقيم ليوسف العظمة شهيد المعركة الشهيرة. وبعد ذلك التقيت بالدكتور شاكر الفحام (وزير التعليم) الذي كان من جملة حديثه ان حزب البعث نشأ وعلى رأس مبادئه ان الثورة العربية الكبرى ثورة قومية. ولكن تسرّب الى الحزب بعد ذلك أشخاص يزعمون اليسارية، فأخذوا يخرجون بتنظيرات غريبة عجيبة.

عرض عليّ اللواء طلاس ان أزور القنيطرة وأشاهد الدمار الذي ألحقه الاسرائيليون بها، ولكنني اعتذرت. قلت في نفسي: ما الفائدة من مشاهدة الدمار بالنسبة لي؟ واستغربت انه أعطاني كتاباً مصوراً عن الدمار في تلك المدينة. لست أدري. ربما كانت وجهة نظر الذين أعدوا الكتاب صائبة. ربما كان ذلك مفيداً بالنسبة للزائرين الأجانب. اما بالنسبة للعرب الذين عاشوا حياتهم يشاهدون جرائم العدو، فالأمر غير مقنع في نظري.

مؤتمر تاريخ بلاد الشام

كانت دعوتي للاشتراك في المؤتمر الثاني لتاريخ بلاد الشام، الذي عُقد في جامعة

دمشق، مناسبة طيبة وغنية بالنسبة لي. البحث الذي قدمته للمؤتمر تناول سيرة حياة محب الدين الخطيب. باعتباره واحداً من رجال الطليعة القومية في بلاد العرب.

في أثناء الأيام الثلاثة للمؤتمر (تشرين الثاني ١٩٧٨) اكتشفت جوانب جديدة من الجهل المركب، من ناحية، والتوجه العقائدي (او السياسي) الذي يطغى على العقل والمنطق، من ناحية أخرى. الاستاذ المصري أحمد عبدالرحيم مصطفى، ألقى بحثا عن لجنة الاستفتاء الاميركية (لجنة كنج ـ كراين) التي زارت سوريا في صيف ١٩١٩. في اثناء تقديمه البحث، جاء على ذكر اتفاقية فيصل ـ وايزمن، دون ان يشير الى شرط فيصل المهم، وهو الشرط الذي جعل الاتفاقية باطلة وكأنها لم تكن. طلب اليّ الزملاء الأردنيون أن أرد عليه. تحدثت وبيّنت انه يتكلم عن نصف علم. سفهّت اعتماده على الكتب الأجنبية وحدها وعدم الرجوع الى المصادر العربية. عرّيت اجتهاداته الخرقاء وكشفت النقاب عن أخطاء أخرى في بحثه. كان هناك تصفيق دل على انني أصبت الهدف.

بعد ذلك تكلم الدكتور ذوقان قرقوط (من الجامعة السورية) كلاماً بارداً عن فيصل والشهبندر. التقينا فيما بعد في الفندق ودار بيننا نقاش. لم يكن يعرف الشرط الذي وضعه فيصل على الاتفاقية مع وايزمن، بل أعلن انه لا يصدق بوجود مثل ذلك الشرط.

في مثل هذه الحالة يبرز الانسان الذي يضع قفلاً على باب عقله ويقول: «مكانك تحمدي أو تستريحي»، احتدّ النقاش بيننا. وعدتُ أن أبعث اليه بصورة عن ذلك الشرط وبخط فيصل. وبعد عودتي بادرت الى ارسال تلك الصورة طالبا ان يشعرني بوصولها اليه. ولكنه لم يرد، وبرهن انه كان أوصل نفسه الى موقف جمود لا يريد ان يتزحزح عنه. والتقاني آخرون يقولون انهم يساريون ويعتبرون الثورة العربية عملاً يمينياً.

كانت خلاص ردّي عليهم «ان الثورة العربية كانت عند قيامها عملاً يسارياً الى أقصى حدود اليسارية. كانت حركة شعب مقهور نهض يبذل دماء أبنائه من أجل التخلص من استبداد دولة اوتوقراطية رجعية ظالمة جاهلة، ومن أجل الفوز بحريته وكرامته». مع الأسف فعلت الدعايات الشريرة فعلها في نفوس هؤلاء الناس. وقلت في نفسي: كم عدد الطلاب والطالبات الذين بثّ الدكتور قرقوط وأمثاله أفكارهم العوجاء في أذهانهم؟

في أثناء ذلك المؤتمر التقيت بالعماد طلاس. ولكن مضت بعد ذلك أعوام سبعة عشر لم نلتق ولم نتصل خلالها. ثم خطر لي في أوائل عام ١٩٩٤ أن أهديه كتاباً لي، اعتقدت انه يهمه الاطلاع عليه، فلم ألبث أن تلقيت منه كتاب ذكرياته (مرآة

حياتي). وطالعت الكتاب فوجدت أن أسلوبه يمثّل شخصية مؤلفه، مصداقاً للمقولة الفرنسية «الانسان أسلوبه»، بل أدهشني ما في الكتاب من صراحة في رواية بعض النزوات العاطفية. وسرّني ان طلاس يعتبر نفسه من ذوي الحظوظ السعيدة طبقاً لمقولة «الحظوظ السعيدة لا تؤاتي الا من يستحقها»، وهي مقولة لا أعتقد بصحتها، لأنني عرفتُ في حياتي كثيرين من أصحاب الحظوظ التي لا يستحقونها.



في حفلة رئيس الجمهورية السورية للمشتركين في مؤتمر تاريخ بلاد الشام. نادي الشرق - دمشق ١٩٧٨.

العماد مصطفى طلاس - سليمان موسى - الاستاذ الالماني شتيبات

بيروت ـ لبنان

مهرجان الريحاني

في خريف عام ١٩٦٥، أمضيت اياماً في لبنان لحضور المهرجان الذي أقامه مجلس المتن الشمالي للثقافة، احياءً لذكرى الكاتب والرحّالة الشهير أمين الريحاني. ذهبت والصديق عيسى الناعوري، الذي كانت معرفته بالكتّاب اللبنانيين والكتاب العرب الذين حضروا المهرجان ـ أوسع من معرفتي بكثير. كانت هناك محاضرات لرئيف خوري وكمال الحاج وبشير العريضي. ولكن المحاضرات لم تكن الا جزءاً من برنامج حافل. اذ دُعينا لزيارة أماكن متعددة. جبيل، حريصا، الفرّيكة (بلدة الريحاني) ومغارة جعيتا وقصر بيت الدين.

وأنت أحرقت قلبي!

في زيارتنا لدير القمر، كان الدكتور فؤاد افرام البستاني رفيقنا ومضيفنا. نجيب ابوصعب، سائق السيارة التي كنت فيها، أخذ في اثناء الطريق المتعرجة صعوداً نحو قمة الجبل، يتغنّى بتلك البلدة التي هي بلدته، وكان من جملة ذلك البيتان التاليان:

الشمس في الأفلاك عملت مؤتمــرْ

وقررتْ هجر الكواكب والقــمرْ

نزلت عاسطح الارض تعمل راهبة

عاشرط يبقى ديرها، دير القمر

بينما كنا نتجوّل في أبهاء قصر بيت الدين الذي أنشأه الامير بشير الشهابي، حدثنا الدكتور البستاني بالقصة الطريفة التالية التي كانت وراء انشاء ذلك القصر المنيف:

حدث ان شيخ احدى القرى القريبة من دير القمر. وهو من الأسرة الشهابية التي كانت تتولى حكم جبل لبنان آنذاك، توفي وهو في شرخ شبابه، ولم يترك وراءه الا زوجة شابة اسمها (شمس) وهي من بنات عمومته. كان من الطبيعي ان يذرّ قرن الخلافات بين أقرباء الشيخ المتوفى، بسبب الثروة الطائلة والأملاك الواسعة التي تركها. وأخذ الرجال والشبان من اولئك الأقرباء يتبارون في خطب ودّ الارملة الشابة، بقصد الزواج منها والاستيلاء على التركة. وازدادت الخلافات تأججاً، فأرسلت الأرملة رسولا الى الأمير الشهابي تتوسل اليه ان ينقذها من أقربائها

الطامعين، فعمد الامير الى تكليف احد ابناء عمه، بشير، كي يذهب الى تلك القرية وينظر في المشكلة ويعمل على ايجاد حل لها. وجاء ذلك الشاب الى القرية ونزل في ضيافة الأرملة الشابة على أساس أنها من بنات عمومته وأن منزلها ما يزال منزل الشيخ. وبعد أن أمضى بشير أياما في الاطلاع على الادعاءات المختلفة والمتعلقة بالتركة، تبين له ان هناك أكثر من شخص ، من بين رجال القرية وشبانها، يطمع كل واحد منهم في التزوج بالمرأة ـ وهو ما يعني ضمناً الاستيلاء على التركة. وتبين له ان (شمس) لم تكن تميل الى الزواج بأي واحد من اولئك الطامعين فيها وفي مالها.

بعد يومين او ثلاثة أفاق بشير من نومه، فجاءت شمس تحمل ابريق ماء لكي يغسل يديه ووجهه. وسألها: أين الخادم؟ فقالت: ألست ابنة عمك؟ أود أن أقوم على خدمتك بنفسي. ومدّ بشير يديه فسكبت شمس الماء من الأبريق. كان الماء قد وصل الى درجة الغليان، فسحب يديه الى الوراء قائلاً: ما هذا؟ لقد أحرقت يدي! وأجابت شمس بقولها: وأنت أحرقت قلبي!

كانت تلك العبارة مفاجأة لبشير. فتطلع الى شمس كأنه يراها لأول مرة. وأدرك عندئذ أنه كان على خطأ وغفلة اذ لم ينتبه منذ مجيئه الى ما تتمتع به هذه الشابة من حسن وكمال عقل وصفات. وظهر حل المشكلة واضحا أمام عيني بشير. ورحبت به شمس بعلاً لها . وكان زواجا سعيدا متكافئاً. ولم يطل الوقت حتى بدأ بشير بانشاء هذا القصر الذي تشاهدونه الان.

الحصري والسويدي وعلي جودت

ذهبت الى بيروت مرتين في عام ١٩٦٦، من أجل العمل على اصدار كتاب عن الثورة العربية الكبرى، في ذكرى مرور نصف قرن على نشوبها. كان وزير الثقافة والاعلام الشريف عبدالحميد شرف مهتماً بهذا الامر، ولا عجب في ذلك. ألم يكن الشريف شرف بن راجح (والد عبدالحميد) واحدا من كبار قادة تلك الثورة وممن جاهدوا في صفوفها أصدق جهاد؟ في الزيارة الأولى كان القصد أن أعقد مقابلات مع عدد من الأشخاص التاريخيين: ساطع الحصري، توفيق السويدي وعلي جودت. كنت قبل ذلك التقيت في عمان بعدد من التاريخيين: عوني عبدالهادي، محمد الشريقي، محمد علي العجلوني، وفائز الغصين في دمشق وعمان.

ساطع الحصري: رفض من ناحية المبدأ اجراء مقابلة معه لغايات النشر. ولكنه تحدث اليّ شريطة ان يكون الحديث خاصا ولا ينشر في وقت قريب. قال انه مشغول جدا بكتابة مذكراته.

علي جودت : في البداية انطلق على سجيته وتبسّط معي في الحديث. الا ان

زوجته لم تلبث ان تحدثت معه باللغة التركية (هي من حلب) فاعتذر عن عدم المضي في الحديث، وأصرّ على ذلك. استبدت بي الحيرة. وفيما بعد علمت ان زوجته حذرته من ان يُنشر على لسانه شيء قد يلحق الضرر بزوج ابنته عدنان الباجچي، الذي كان موظفا كبيرا في حكومة العراق آنذاك. ذهبت أشكو أمري الى توفيق السويدي (الذي كنت قابلته في اليوم السابق)، فاتصل هاتفيا بعلي جودت وقال له بلهجته العراقية الدارجة:

- يا بي. هذا الاستاذ سليمان مو جورنالست. هذا رجل محقق مدقق، أرجوك استقبله، وتحدث معه.

ووافق علي جودت على استئناف الحديث الذي كنت في أشد الاهتمام للحصول عليه، باعتبار ان الرجل كان من مؤسسي حزب (العهد) وأحد القادة الكبار في صفوف الثورة العربية. وفيما بعد نمت الثقة بيننا فأهداني صورة له تعود الى سنة ١٩١٨، وأجاب على رسائلي، وأهداني نسخةً من مذكراته عند نشرها.

اما توفيق السويدي فقد كان من أكثر الأشخاص الذي ملأوا نفسي بالاعجاب، كان صريحاً، حاضر البديهة، صافي الذهن يتحدث باسلوب الرجل الواثق من نفسه، دون غمغمة أو جمجمة.

الحديث مع علي جودت وتوفيق السويدي نُشر في الكتاب الذي صدر في شهر تشرين الثاني ١٩٦٦، ملحقاً خاصاً لجريدة (الحياة). وقد اشتغلت باعداد المادة التي نشرت فيه وبتدقيقها، ومن هنا طالت اقامتي الثانية في بيروت الى عشرين يوماً. واغتنمت فرصة أوقات الفراغ فاشتغلت بمراجعة أعداد جريدة (القبلة) في مكتبة الجامعة الاميركية. وكانت لي من ذلك فائدة ومسرّة.

لورنس ومعاصروه

كان من أثر نشر كتابي (لورنس والعرب) باللغة الانكليزية، أنني تلقيت في أوائل عام ١٩٧٠ دعوةً من الجامعة الاميركية في بيروت لالقاء محاضرة فيها عن تلك الشخصية. كانت دائرة اللغة الانكليزية في الجامعة قررت تنظيم سلسلة من المحاضرات والندوات عن الشخصيات الأجنبية التي كان لها دور في بلاد العرب، من ناحية العمل والخبرة ومن ناحية الكتابة (فلبي وجرترود بلّ ولورنس وآخرين). ألقيت محاضرتي يوم ١٢ أيار وعنوانها (لورنس ومعاصروه العرب) في القاعة الغربية (وست هول). وقد أسعدني ان عدداً من الأساتذة كانوا بين من استمع اليها. كما سرّني أنني كنت العربي الوحيد الذي دُعي للاشتراك في تلك السلسلة من المحاضرات. وقد عقدت الدائرة جلستي نقاش حول موضوع لورنس يومي ١١ و ١٥ ايار، فاشتركت في الحلقتين وبينت وجهة نظري في الدور الذي قام

به لورنس مع العرب سواء في أيام الثورة أو في أثناء المباحثات السياسية التي أعقبت الحرب العالمية.

خير الدين الزركلي

اغتنمت فرصة وجودي في بيروت فزرت الاستاذ خيرالدين الزركلي. كان مما قاله انه يتمنى لو انه لم يكتب كتابه (عامان في عمان)، على الأقل من أجل خاطر الملك الحسين بن طلال. وقال انه التحق بخدمة السعوديين في عام ١٩٣٤، وانه كان جاء مع الامير سعود بن عبدالعزيز الى عمان سنة ١٩٣٦، وانه غضب وتألم لان الامير عبدالله أعطى أوسمةً لجميع الذين رافقوا سعود فيما عداه هو وخالد الحكيم. قلت له بين الجد والمزاح: ربما خشي الامير عبدالله ان يقول الناس انه منحك الوسام مكافأة على كتابك (عامان في عمان) ... من جملة ما قال انه كان ينوي نشر رسالة خاصة بعث بها الركابي الى الأمير عبدالله ووقعت بين يديه.

في الحقيقة استبدّ بي العجب لان الزركلي كان ينتظر أن يمنحه الأمير عبدالله وساماً، بعد أن نشر كتابه ذاك على الملأ. وفي لقاء مع السفير الاستاذ أكرم زعيتر قال ان الزركلي لحق به العوز وأُضطر أن يبيع كتبه الخاصة قبل ان يلتحق بالسعوديين. وكان يوسف ياسين أول من التحق بالسعوديين ثم أخذ يأتي بالسوريين من أمثال خالد الحكيم والزركلي للالتحاق بخدمة السعوديين. ومنذ ذلك الحين بدأ الزركلي يعيش في بحبوحة. وتحدث زعيتر طويلاً عن كيفية استعمال الأموال السعودية لضرب مشاريع الوحدة العربية ـ نكايةً بالهاشميين.

وزرتُ الزركلي مرةً أخرى في تشرين الثاني ١٩٧١. وجدته يقيم في شقة كبيرة في عمارة فخمة تطلّ على البحر، وعنده سيارة من الطراز الثمين وسائق وخادمة وفتاة طابعة. قال انه يملك بيتاً في مصر، ويسافر في كل صيف الى سويسره لاجراء فحوصات طبية والى أقطار أخرى منها تركيا، للنزهة وطلب المعرفة.

أهداني كتابه (شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز) ويقع في أربعة أجزاء. والكتاب ضربٌ من ضروب الوفاء للأسرة السعودية التي نَعِمَ بوظائفها وأموالها.

حدّثني طويلاً عن اقامته في عمان. وسبب خروجه يعود الى انه هجا مظهر رسلان بقصيدة. وبلغ الأمر الأمير عبدالله فطلب منه ان يعتذر، فأبى، وخرج من وظيفته وغادر شرقي الأردن. وطلب مني نسخة من مذكرات الملك عبدالله، وفيما

بعد بعثت بها اليه.(١)

والواقع ان الزركلي لم يكن منصفاً في الكثير مما أورد في كتابه (عامان في عمان). وقد برهن ان مشاعر الحقد في نفسه كانت أقوى من مشاعر الوفاء للأمير الذي أتاح له مجال العمل الكريم في جهاز الحكومة. بل بلغ الحقد من نفس الزركلي انه هجا الأردنيين الذين رحبوا به في ربوعهم واعتبروه ضيفاً عليهم ـ وذلك من خلال قصيدة سخر فيها من أحد الذين منحهم الامير عبدالله لقب (باشا). ولم يكن الأمير يمنح ذلك اللقب الا لزعماء البلاد وشيوخها:

رأيتُ بجانب الأردنّ شيـــخـاً عريضَ الذقــن ينتفشُ انتفاشا
فقلت له، وقد ملئتْ شــــــقاءً أمسّتكَ الشــقاوةُ؟ قال حاشــا
ألست ترى الادارة كيف باتتْ مقلقلـةً، كأن بها ارتعـاشــــا؟
(ابيات أخرى بهذا المعنى)
فقال نعم، أرى هذا، ولكن ألم يبلغكَ أني صرتُ باشا؟

بل ان الزركلي سخر من لقب باشا في هجائه لمظهر. ومن المعلوم ان ذلك اللقب كان مدار اعتزاز أعيان البلاد وزعمائها وأهلها:

وقالوا مظهرٌ قد صار «باشا» وكان من «الفخامة» في اعتزازِ
فقلت: وليس من عجـبٍ، فاني أرى الألقابَ معيارَ المخـازي

ومن أغرب ما مرّ بي في مثل هذا المجال، أن يوسف البستاني، ناشر كتاب الزركلي (عامان في عمان)، أرسل الى الأمير عبدالله نسخةً من الكتاب اياه ومعها رسالة يعرض فيها نسخ الكتاب للبيع بسعر عشرة قروش صاغ للنسخة (سنة ١٩٢٥). وهذا نموذج من الناشرين الجهلة الذين ينشرون الكتب دون أن يعرفوا مضمونها.

---

(١) حدثني الاستاذ أكرم زعيتر بتفاصيل القصة (كما سمعها من الزركلي نفسه) على النحو لتالي: كان مظهر رسلان (وهو من مدينة حمص) رئيساً للوزراء في شرقي الأردن، وكان خيرالدين لزركلي (وهو من دمشق) مفتشاً للمعارف. لم يكن هناك تفاهم بين الرجلين. ويبدو أن الغيظ في نفس لزركلي دفعه الى نظم أبيات شعر في هجاء مظهر. وبلغ مظهر أمر أبيات الشعر، فذهب الى الأمير عبدالله شاكياً، وكان من جملة قوله ان الزركلي مسّه في عرضه. وقال أحد شيوخ الشرع ان الجلد هو عقاب ذلك الضرب من الهجاء. وبلغ الأمر أسماع الزركلي فارتاع، خشية ان ينفذ ذلك العقاب فيه، واستعان بالامير عادل ارسلان، رئيس الديوان الأميري، فبادر هذا الى نجدته وذهب الى حيث كان الأمير في رابية ماركا، وأخذ يدافع عن الزركلي ويشجب أي حديث عن احتمال ايقاع العقاب به (ظل الزركلي طوال حياته يذكر لعادل ارسلان وقفته الى جانبه). ثم جاء الدكتور رضا توفيق (الفيلسوف التركي) فقال. ان ايقاع عقوبة الاعدام بالزركلي أفضل من ايقاع عقوبة الجلد. وقال الامير انه لا مجال للحديث في اعدام أحد. ولكن ماذا بشأن رئيس حكومة لحق به هذا الأذى؟ وقال رضا توفيق. هذا شاعر له مكانته، وايقاع عقوبة الجلد به سوف يملأ نفسه بالحقد والمرارة، ومن المرجح ان يعمد في المستقبل الى نظم قصائد هجاء عديدة يتناقلها الرواة. اما اذا تم اعدامه، فان صوته سيصمت الى الابد. بعد ذلك طلب من الزركلي ان يعتذر لمظهر، ولكنه آثر ان يترك وظيفته ويغادر شرقي الاردن.

أوراق محمد رستم حيدر

زرت لبنان ـ وبيروت بصورة خاصة ـ مرات عديدة. في أيار ١٩٧٤ كان القصد الرئيسي من الزيارة، ان أقابل السيد جودت حيدر، شقيق محمد رستم حيدر، أحد رجال العرب البارزين وأفذاذهم ورفيق فيصل بن الحسين، وأحد مؤسسي جمعية العربية الفتاة. كنت سمعت ان أوراق محمد رستم عند اخيه جودت. وقبل السفر التقيت بصهره السيد ماهر ارشيد، فأجرى اتصالاً هاتفياً وقال ان حماه سيطلعني عليها.

ذهبت أزور جودت حيدر في منزله، فأطلعني على ما لديه من أوراق، وبعد أن قمت بتقليبها والنظر فيها تبين انها تتألف من مجموعتين:

١ ـ يوميات تغطي الفترة الممتدة من التحاق محمد رستم بالثورة العربية في آب ١٩١٨ وحتى عام ١٩٢١.

٢ ـ مراسلات مختلفة تتعلق بالحركة العربية.

حدثني جودت عن أخيه فقال انه كان ألمعياً حادّ الذكاء، حتى انهُ تفوق على أقرانه من عرب وترك في أثناء دراسته في استانبول. ولذلك أوفدته الحكومة العثمانية الى باريس لكي يتم دراسته في جامعة السوربون. وبعد تخرجه عُيّن مديراً للكلية الصلاحية في القدس، على الرغم من ان عدداً من رجال أسرته كانوا يتعرضون لاضطهاد جمال باشا (من بينهم الشهيد صالح حيدر رئيس بلدية بعلبك). ومع ان محمد رستم كان من الأعضاء المؤسسين لجمعية الفتاة، وعلى الرغم من ان عدداً من زملائه في الجمعية، عُلقوا على أعواد المشانق ـ فان سرّ عضويته بقي مصوناً لم يبلغ مسامع الأتراك. وفي آب ١٩١٨ تمكن محمد رستم (مع عدد من الرفاق) من الالتحاق بفيصل بن الحسين في القويرة (قرب معان)، فأعجب فيصل بعلمه وثاقب رأيه فقرّبه اليه، وظل يلازمه حتى وفاته.

واقترح جودت ان نلتقي بالسفير الاستاذ أكرم زعيتر، لبحث موضوع الأوراق وطريقة نشرها، فاتصلت به ثم ذهبت معه لزيارة جودت. وبعد حديث مستفيض قال جودت انه سيقوم بتصوير الأوراق وارسالها لي كي أقوم بتحريرها واعدادها للنشر. وفي أثناء ذلك حدثنا جودت عن نفسه وعن أنه ينظم الشعر بالانكليزية، وقرأ لنا عدة قصائد من شعره، بينما كان اهتمامنا منصبّاً على الوصول الى نتيجة ايجابية فيما يتعلق بأوراق أخيه. على ان الوعد لم يتحقق، فلم تصل اليّ أية أوراق، بل لم أتلقّ جواباً على رسائلي. فيما بعد تبين ان نجدة فتحي صفوت كان أحسن حظاً مني وأقدر على الاقناع، اذ استطاع ان يحصل على تلك الأوراق ويعمل على تحريرها، وتشاء الصدف ان يطلعني عليها بعد ذلك في بغداد، ثم تمكن من نشرها

في مجلد ضخم في بيروت، فأسدى بذلك لتاريخنا الحديث خدمةً لا تُقدّر بثمن.

وكان من جملة أحاديث جودت حيدر انه أمضى في نابلس سنتين مديراً لكلية النجاح، وانه في أثناء ذلك كان على اتصال بالمفتي الحاج امين الحسيني، الذي كان يكلفه بكتابة بعض مراسلاته بالانكليزية. وخلص من رواية بعض الأمور والقضايا التي عرفها بنفسه، الى القول ان المفتي ألحق ضرراً بقضية العرب في فلسطين.

عجاج نويهض

كنت التقيت بالاستاذ عجاج نويهض في عمان سنة ١٩٥٧. وبعد ان غادر الأردن الى لبنان، كتبت له عدداً من الرسائل فأجابني عليها. لذلك اغتنمت فرصة وجودي في بيروت فذهبت لزيارته في بلدته رأس المتن. كان تقديري أن أتمكن من الذهاب والاياب قبل غروب الشمس، ولكن الطريق كانت وعرة كثيرة التعرجات، فأصابني دوار. وبالنتيجة أمضيت ليلة في ضيافته، فسهرنا الى ما بعد منتصف الليل نتبادل الأحاديث الممتعة. ألفيت منزل الاستاذ على صفحة جبل تشرف على وادٍ سحيق وتقابلها صفحة جبل آخر حيث بلدة بحمدون. وشاهدت أشجار الصنوبر تغطي جانبي الوادي، والهدوء يشمل ذلك الموقع الرائع، فغبطته على ذلك. وهو يعيش حياةً هادئة لا تقيم معه في المنزل الا زوجته الأديبة الشاعرة السيدة جمال، شقيقة الشهيد فؤاد سليم، بالاضافة الى اخته وخادمة. اما ابنه خلدون فقد هاجر الى اميركا الجنوبية، بينما تزوجت البنات.

حدثني الاستاذ عجاج انه من مواليد سنة ١٨٩٧ (بينما يذكر جواز سفره انه من مواليد سنة ١٩٠٣). وهو رجل متين البنية، ممتلىء الجسم متوسط القامة ضخم الهامة، ذو جبهة بارزة. يتمتع بذاكرة قوية، ويذكر أحداث حياته وأيام صباه الباكر منذ ان كان في الثالثة من العمر. وهو يتحدث عن الوقائع القديمة كأنه شاهدها بالأمس. وما تزال أسنانه الأصلية سليمة قوية. وعرفت منه انه تلقى تعليمه في مدارس الارساليات في لبنان، ومن هنا اجادته اللغة الانكليزية. وفي عام ١٩٢٠ ذهب الى القدس وعمل في ادارة الأوقاف حتى عام ١٩٣٢. ثم أنشأ مجلة (العرب) لمدة عامين، ومارس أعمالاً متعددة، من جملتها انه راسل جريدة الأهرام. وكان عضواً في حزب الاستقلال (من زملائه في ذلك عوني عبدالهادي وأكرم زعيتر). وفي عام ١٩٣٩ عُيّن مديراً للقسم العربي في الاذاعة الفلسطينية. وبقي كذلك الى عام ١٩٤٣. ثم لجأ الى الأردن عام ١٩٤٨ بمساعدة عبدالله التل، الا انه ترك كتبه وأوراقه ومتاعه في منزله في البقعة التحتا في القدس، فنهبها الناهبون. ثم انه كان من العاملين على عقد مؤتمر عمان وبعده مؤتمر اريحا، وعيّنه الملك عبدالله مديراً للاذاعة في رام الله فبقي في ذلك المنصب حتى استشهاد الملك، فنُقل مديراً

للمطبوعات، الى ان انتهى عمله عام ١٩٥٤. وبقي في الاردن دون عمل حتى عام ١٩٥٩. وهو ناقم على توفيق ابوالهدى وكتب مقالات ضده بعد وفاته (من الواضح ان ابوالهدى هو الذي قرر انهاء خدمته في الحكومة).

أعرب عجاج عن اعتقاده ان الانكليز كانوا وراء اغتيال الملك عبدالله. ذلك ان الملك قبيل الاغتيال كان استدعى رياض الصلح وكلفه أن يعمل من أجل وحدة الأردن والعراق. ولم يبح رياض بالسر، الا ان صديقه محمد شقير نشر بعد وفاته مقالاً أكد تكليفه لرياض بتلك المهمة. وقال رياض قبل اغتياله بساعة واحدة لمحمد علي العجلوني: أقسمت الا أبوح بالسر ولكن يكفي القول انه اذا أمكن تحقيق ما يريده الملك عبدالله، فان ذلك سيكون تعويضاً عن كل ما وقع في السابق من أخطاء. ولكن رياض اغتيل وبعده بخمسة أيام فقط اغتيل الملك. ويستند عجاج في تحليلاته الى القول ان موسى الحسيني كان - على الأرجح - على اتصال بالمخابرات البريطانية، فعمل على تدبير الاغتيال. اما المفتي أمين الحسيني فلم يكن له ضلع في اغتيال الملك. وكان المفتي منذ البداية طموحا للزعامة، وقاده طموحه الى الاعتقاد انه يستطيع ان يكون نداً للملك عبدالله، لا تابعاً له. ومن هنا وقوفه موقف المعارض للملك.

وعجاج نويهض كاتب بحاثة، وله عدد من المؤلفات. وهو محدث لبق واسع الاطلاع، الا انه يميل الى الاستطراد، وهذا يظهر في كتاباته. وهو رجل كريم النفس اذ أصر على اهدائي نسخة من كتابه (بروتوكولات حكماء صهيون) على الرغم من تأكيدي له ان الكتاب عندي. وحملت الكتاب بجزئيه معي الى بيروت، وهناك قدمته الى مؤسسة الدراسات الفلسطينية.(١)

حديث أكرم زعيتر

طرقت والاستاذ أكرم زعيتر في أحاديثنا موضوعات شتى. أخبرني ان السيدة طرب سلمت مذكرات زوجها عوني عبدالهادي الى الدكتورة خيرية قاسمية لكي تقوم باعداد كتاب عنها. استغربت ذلك لانني كنت قريباً من عوني عندما بدأ يكتب مذكراته - بالحاح مني - وأعطاني القسم الاول والقسم الثاني منها فعملت على تأمين ضربهما على الآلة الطابعة في عام ١٩٦٦، وما تزال نسخة منهما عندي. لمست أن الاستاذ أكرم كان بدوره عاتباً، فهو بالحقيقة أقرب الناس لعوني. فيما بعد تبين ان السيدة طرب اشترطت على خيرية ان تقدم مادة الكتاب (بعد كتابته) الى الاستاذ أكرم لكي يقرأها ويوافق عليها ويكتب مقدمتها. يبدو أن خيرية كانت تعتقد ان طلب السيدة طرب مجرد اقتراح ولم يكن شرطا، ويبدو ان أنيس الصايغ عرض عليها أن يقوم بنشر الكتاب في سلسلة منشورات مركز الأبحاث الفلسطيني

١ - توفي عجاج نويهض سنة ١٩٨٢، وفي عام ١٩٩٣ قامت ابنته الدكتورة بيان بنشر مذكراته.

الذي كان يشرف عليه.

وهكذا صدر الكتاب عن عوني الذي كان أقرب الناس للهاشميين، وكأنه لم يكن كذلك.

أخذ الاستاذ أكرم يقرأ من يومياته أكثر من ساعتين. كان موضوع اليوميات يدور حول مشروع اتحاد الأردن والعراق عام ١٩٥١. وخلاصة ما ورد فيها ان الملك عبدالله ذهب الى بغداد يوم وفاة الملكة عالية. وبعد وصوله حدّث توفيق السويدي، رئيس وزراء العراق، بشأن توحيد القطرين، على أساس أن يرأس هو دولة الاتحاد في حياته، ويعيّن فيصل بن غازي ولياً لعهده. ولكن السويدي تباطأ بالمشروع. ثم تباحث الزعماء العراقيون (في اجتماع برئاسة الامير عبدالاله) في مشروع الاتحاد الذي قدمه الملك عبدالله، ووضعوا مشروعاً مقابلاً يقول بعقد الاتحاد في مدى خمس سنوات، كي لا يتحمل العراق أعباء الأردن المالية والعسكرية قبل ان يتهيأ لذلك. ثم ان الملك استدعى رياض الصلح وكلفه بالعمل من أجل الوحدة، ولكن رياض اغتيل في عمان (١٦ تموز ١٩٥١) واغتيل الملك عبدالله بعده بخمسة أيام (٢٠ تموز ١٩٥١).

بعد اغتيال الملك جاء عبدالاله ونوري السعيد الى عمان، وعملا على ان يقدم سمير الرفاعي استقالته وأن يتولى توفيق ابوالهدى الرئاسة، بعد ان أعطى وعداً لنوري انه ـ ابوالهدى ـ سيعمل لعقد الاتحاد.

في آب ١٩٥١ دعا فاضل الجمالي (وزير خارجية العراق) الاستاذ أكرم لزيارة بغداد، فذهب وعقد اجتماعات عديدة مع نوري السعيد وأقطاب العراقيين. لمس من أكثرهم رغبةً في عدم التسرع خشية معارضة العرب في الأقطار الأخرى، وخشية ان يتحمل العراق مسؤوليات تركة ثقيلة. زعيتر والمتحمسون مثله لعقد الاتحاد، كانوا يرون في الاتحاد انقاذا للأردن من خطر اسرائيل. ولم يلبث زعيتر ان عاد للأردن ولحق به عدد من الشبان القوميين (محمد حسن سلمان، جابر عمر، سليم النعيمي، عبدالجليل الراوي). جاء هؤلاء باعتبارهم وفداً شعبياً بقصد الاتصال بالناس وحثهم على تأييد فكرة الاتحاد ... كان هناك أردنيون لا يحبذون الاتحاد. وأخيراً ذهب توفيق ابوالهدى الى السعودية، وهناك حصل على هدايا وأموال، فعاد ليقف ضد الاتحاد. ولم يلبث ان نودي بالأمير طلال ملكاً. وعند ذلك الحد وقف المسعى للمشروع.

في زيارتي تلك لبيروت قضيت ساعات وساعات في مكتبة الجامعة الاميركية. هناك راجعت أعداد جريدة (القبلة)، وحصلت من أحد المراجع الاميركية على صورة لخطاب فيصل أمام مؤتمر السلام في باريس يوم ٦ شباط ١٩١٩. وراجعت مصادر أخرى في مؤسسة الدراسات الفلسطينية، وبعض أعداد من جريدة

(فلسطين). والخلاصة كان اسبوعاً مثمراً حافلاً بالنشاط.

وزرت الزركلي مرة اخرى (ايار ١٩٧٤) في منزله (عمارة الهازار - شارع شوران) حيث ألفيته يقيم منقطعاً للتأليف، بينما تقيم عائلته في القاهرة. وقد اشتهر الزركلي بكتابه (الأعلام) الذي يتألف من عشرة مجلدات. ومن جملة مؤلفاته كتاب (ما رأيت وما سمعت). وقد أمضيتُ معه نحو ساعتين حدثني فيهما عن فيصل بن الحسين وأحمد مريود وكامل القصاب. كان ذهنه صافياً وواضحا على الرغم من انه في الثانية والثمانين من العمر.

ذهبتُ ايضاً لزيارة لانكستر هاردنج، مدير الآثار السابق في الأردن. كنت ترجمت كتابه (آثار الأردن)، وتبادلت واياه عدداً من الرسائل. علمت انه في بلدة صفرا (فوق طبرجا). رحّب بي ترحيباً جميلاً. وقد شاهدت في منزله صورة الملك طلال، وهو يحترمه ويقدّره كثيراً. يعيش الان بمفرده حياة متواضعة، ولكن تبدو عليه القناعة والسعادة. أعلمني انه سوف يسافر بعد شهر الى بريطانيا، بعد أن جمع له أصدقاؤه ٢٠٠ جنيه ودبّروا له تذكرة سفر بالطائرة، من أجل أن يتيحوا له زيارة بلاده. نتيجة إلحاحه ذهبت معه الى منزل مسز نيرن (ورثت مالاً كثيراً وتقيم في منزل فخم تحيط به الأشجار على حافة ماء البحر في الفيدار). الموقع من أجمل ما شاهدت في حياتي. هذه السيدة اعتادت ان تدعو أصدقاءها الى تناول طعام الغداء معها كل يوم أحد. توافد المدعوون والمدعوات وكلهم من المتقدمين في السن. وظلت الجلسة تتسم بالكآبة الى أن جاءت شابة حسناء لا ترتدي من الثياب الا ما تستعمله النساء عند السباحة في الماء، فأضفت محاسنها نوعاً من الحيوية على ذلك اللقاء.



حديث مع توفيق السويدي - بيروت ١٩٦٦

القاهـــــــرة

ملحق في الأهرام

أوفدتني وزارة الاعلام في ايلول ١٩٦٥ الى القاهرة للاشراف على طبع ملحق خاص عن الاردن، كانت تعاقدت مع جريدة الأهرام على اصداره بمبلغ ثلاثة آلاف دينار (وهو مبلغ غير زهيد في تلك الأيام). أعدتُ كتابة معظم المواد التي كان كتبها المحررون المصريون، وبذلت كل ما في الوسع من أجل أن يعطي فكرةً طيبةً عن الاردن. وكنت أعتقد (وأظن ان الحكومة كانت تحمل ذلك الاعتقاد) ان الأهرام سوف تطبع من الملحق كميةً من النسخ تساوي عدد نسخ الجريدة. ساورتني الشكوك في أثناء اقامتي فحاولت أن أذهب الى المطابع لكي أستوثق من ذلك، ولكن محاولتي لم تنجح. لم يكن بمقدوري أن أثير مشكلة، لمعرفتي ان الحكومة كانت تريد مسايرة الأهرام وملكها غير المتوّج محمد حسنين هيكل، وأخيراً صدر الملحق، وأرسلت نسخه الى الأردن، وفي اعتقادي أن نسخ ذلك الملحق لم توزع الا في الأردن. أدركت عندئذ ان الصحف العربية الكبرى ابتدعت لعبة هذه الملاحق، لاغراء حكومات العالم الثالث العربية (بالنسبة لمصر ولبنان) باصدار الملاحق، إمّا على طريقة الضحك على الذقون، وإما قبولاً بالابتزاز على سبيل المداراة والترضية.

في أثناء اقامتي وتردّدي على مكاتب جريدة الأهرام، التقيت ، وتحدثت مع عدد من الموظفين والمحررين. سمعتهم يشكون من عدم السماح لهم ولغيرهم بالسفر الى الخارج. قال أحدهم: نشعر كأننا في سجن كبير. هناك ضغط على حرية الصحف، فهم محرومون من قراءة الصحف اللبنانية (مثلاً) الا الصحف التي ابتاعتها أجهزة المخابرات فأخذت تعزف الألحان التي يختارها النظام. هناك مثل انكليزي يقول: من يدفع أجرة الزمّار، يستطيع اختيار المعزوفات

Who pays the piper, calls the tune. وفي أكشاك الصحف لا يرى المرء الا القليل القليل من الصحف أو المجلات غير المصرية. ومما أسرّ لي به عوني عبدالهادي ان مصر كانت ما تزال تعيش في أجواء انقلابية ... وقد استلفت ذهني أن عامة الناس يعيشون في بؤس عظيم، بينما تنفق الحكومة بسخاء على الدعاية وأمور كثيرة أخرى لا علاقة لها بازدهار البلاد أو بتحسين أحوال شعبها.

محب الدين الخطيب

في أثناء أقامتي التي استمرت اسبوعين، التقيتُ مراراً بعوني عبدالهادي الذي كان يعمل مستشاراً حقوقياً لأمين عام الجامعة العربية. وكان من محبته لي وثقته بي انه اتصل بالاستاذ محب الدين الخطيب وطلب منه أن يطلعني على ما لديه من

أوراق تاريخية.

بالنسبة لي كان ذلك أمراً في غاية الأهمية، إذ تكرّم الرجل وسمح لي بالاطلاع على أوراقه ونسخ ما أجد ضرورةً لنسخه. ومن أهم ما عثرتُ عليه، رسائل تتعلق بجمعية (العربية الفتاة)، وكيف قرّر أعضاؤها أن يتخذوا شعاراً لجمعيتهم من الألوان التي رفعتها دول العرب الكبرى أعلاماً لها (الأبيض للأمويين، والأسود للعباسيين، والأخضر للفاطميين). وأفدتُ من أحاديث محب الدين الخطيب نفسه عن الشريف حسين، اذ أنه عمل معه محرراً لجريدة (القبلة) نحو ثلاثة أعوام، ثم عمل مع نجله فيصل محرراً لجريدة (العاصمة) نحو سنة. ومن أهم ما عثرت عليه رسالةٌ كان الشريف ناصر بن علي آل راضي بعثَ بها الى الأمير فيصل، بعد دخول قوات الثورة الى العقبة. وقد استعنت بتلك الرسالة في تفنيد ادعاءات (لورنس) ومزاعمه.

توفيق الحكيم

بعد أربع سنوات زرت القاهرة مرة أخرى (آذار ١٩٦٩). كانت الهزيمة المرّة قد لحقت بالعرب، على الرغم من أن هيكل أخترع لها اسماً ملطفاً «نكسة»، مثلما يفعل أصحاب مصانع الأدوية عندما يلبسون حبوب الدواء المرّة قشرةً من السكر تساعد العليل على ابتلاعها. والتقيت في تلك الأثناء بالدكتور محمد القصاص - الأستاذ في جامعة عين شمس - فأسرّ لي همساً ان بقاء الذين قادوا البلاد الى الهزيمة في حرب ١٩٦٧، على رأس الحكم، أمر غير معقول وغير جائز. وكان ذلك أقصى ما يمكن أن يجرؤ أي انسان على قوله في داخل مصر.

وزرتُ ورفاقاً لي الاستاذ توفيق الحكيم، في مكتبه بجريدة الأهرام. ومن طريف ما رواه ان الدكتور زكي مبارك كان نشر مقالةً في عدد مجلة (الاثنين) الذي صدر يوم ١ نيسان (يوم الأكاذيب البيضاء)، وجاء فيها ان هذا اليوم يشهد وفاة زكي مبارك وزواج توفيق الحكيم (الذي اشتهر بعزوبيته الطويلة). ومع تلك المقالة، نشرت المجلة صورة ممثلة أجنبية شهيرة بثياب العرس والى جانبها شاب أهيف القوام يرتدي بذلة العرس السوداء. ولكن المجلة عمدت الى قص رأس العريس الحقيقي ووضعت بدلاً منه صورة لرأس توفيق الحكيم. وحدث ان الحكيم سافر الى فلسطين بعد ذلك ببضعة أسابيع وزار مدينتي يافا والقدس، فوجد أن جميع الذين التقى بهم في المدينتين، يعتقدون انه تزوج فعلاً من فتاة أجنبية. ومضى الحكيم يقول لنا: ويظهر انني ايضاً صدقت كذبة زكي مبارك (البيضاء)، فلم ألبث أن تزوجت.

ودا ر حديث حول المسرح فقال الحكيم: ان كتّاب المسرحية من العرب - مثلهم مثل الكتّاب في الموضوعات الأخرى - يستطيعون أن يخدموا أوطانهم اذا ما أنتجوا

أعمالاً أدبية كبيرة، تستطيع ان تغزو مكتبات الأقطار المتقدمة حضارياً في اوروبا واميركا. انهم بذلك يسهمون في رفع شأن الوطن ويفعلون ما لا تفعله المدافع في ميادين الحرب. ان العرب عندما يصلون الى المرحلة التي تتصدر فيها مؤلفات كتّابهم واجهات المكتبات في اوروبا، يستطيعون عندئذ أن يتيقنوا أنهم بدأوا السير على طريق النصر. ذلك ان المعركة مع العدو معركة حضارية بالدرجة الأولى.

والتقينا ـ انا ورفاقي ـ مرات بالدكتور لويس عوض الذي اختطفته جريدة الأهرام من كرسي التدريس في الجامعة، كي يشرف على الصفحة الأدبية فيها. ولاحظت انه يتمتع بمكانةٍ رفيعة بين المثقفين المصريين. وكانت قد نُشرت للويس عوض قبل مدة رواية في بيروت تحت عنوان (العنقاء: أو تاريخ حسن مفتاح). ومما حدثني به ان الرئيس جمال عبدالناصر، سأل وما يزال يسأل (بواسطة محمد حسنين هيكل) عن الشخصية الحقيقية التي كانت في ذهن المؤلف لبطل الرواية حسن مفتاح. ويمثل لويس عوض الفنان اللاابالي في إهماله مظهره، والخروج دون أن يحلق ذقنه، بل اهماله لعقد ربطة عنقه بصورة معقولة. وعندما زرنا معه مبنى جريدة الأهرام المؤلف من اثني عشر طابقا، تبين لنا (أو تبين لي على الأقل) ان هيكل يمثل البيروقراطية المصرية بكل أبعادها.

ذكرى طه حسين

وأُتيح لي ان أزور القاهرة في المهرجان الذي أقامته وزارة الثقافة المصرية لذكرى عميد الأدب العربي طه حسين (شباط ـ آذار ١٩٧٥). كان هناك مدعوون من أقطار متعددة، عربية وأجنبية. وفي الاحتفال أُلقيت قصائد عديدة لشعراءكان من أبرزهم نزار قباني وسعيد عقل وعبدالمنعم الرفاعي. عندما ألقى نزار قصيدته كانت قاعة الاحتفال تغص بالحضور، وكان هناك تصفيق واعجاب. أثارت قصيدة نزار خلافاً في أذهان المشاركين، لم يظهر على السطح، لما حفلت به من نقدٍ شديدٍ. أول من تعرضوا لنقده حملة الأقلام:

سقطَ الفكرُ في النفاقِ السياسـي ... وصـار الأديبُ كالبهـلوانِ
يتعاطى التبخيرَ، يحترفُ الرقصَ ... ويدعو بالنصـر للسلطـانِ
ذُبح الشعر ،والقصيدة صـارت ... قينةً تُشترى ككلِ القيـانِ
أيهـا الكـاتبُ الكبـيرُ تأمـل ... كيف صار الكتّابُ كالخرفانِ

ثم وجّه نزار انتقاداته للعرب، وبخاصة اولئك الرافلين في أثواب الحرير والطيلسان:

تسـتبدّ الأحـزانُ بـي فأنـادي ... آه يا مصر من بني قحطانِ

تاجروا فيك، ساوموك، استباحوك — وباعوك كاذباتِ الأمـــاني
يشترون الزوجاتِ باللحمِ والعظمِ — أُيشرى الجمالُ بالميـزان؟
أكلت مصرُ كبــــدها ... وسواهــا — رافلٌ بالحرير والطيلسان

رضي عن قصيدة نزار كثيرون وسخط عليها كثيرون. الساخطون كانوا ظنوا ن هجاء نزار أصابهم ككتّاب وشعراء، أو أصاب البلاد التي جاءوا منها. ويبدو ن المصريين شعروا بالحرج، لان الأهرام ـ مثلاً ـ كانت نشرت في اليومين السابقين قاطع من قصيدة الرفاعي، ومقاطع من قصيدة سعيد عقل، الا انها لم تذكر نزار لم تشر الى قصيدته في اليوم الثالث الذي ألقاها فيه.

وقوبلت قصيدة عبدالمنعم الرفاعي بالتصفيق والاعجاب، لما حفلت به أبياتها ن معان رقيقة ومشاعرَ حميمة:

أَعلــيت قَدـــْرَكَ أن يكونَ مَجــالي — جبَّار مصرَ وصرحَها المتعالي
لو أَستطيعُ خَطوتُ في الحَرَمِ الذي — شيّدته وقفاً على الأَجــــيالِ
لكنْ حملتُ اليك ما حَمَلَ الشــَذى — للوردِ بينَ تـلفّتٍ ووصـــــالِ

*****

أَخذوا عليك الحقَّ تحملُ بَندهُ — وتعاوروكَ بمنطقٍ وجدالِ
أَوَ ما جلوتَ لهم غِشاوةَ فِكرهمْ — وأَزلتَ عنهم وقفةَ الأطلالِ
لو أنصفوكَ وأنت كوكبُ أفقهمْ — رفعوا لمجدكَ عاليَ التمثالِ

وفي الأيام التي أمضيناها في القاهرة، سعدتُ بمرافقة الرفاعي، ولمستُ عن كثب ما كان يتمتع به من علّو الجناب وحلو الشمائل.

كان مهرجان طه حسين ثاني حدث ثقافي كبير في مصر، بعد المهرجان الذي بويع فيه أحمد شوقي أميراً للشعراء قبل ثمانية واربعين عاماً. بل إن سعيد عقل ذهب الى القول ان مصر لم تنجب نِدّاً لطه حسين في عالم الفكر والأدب منذ ألف سنة. قلت له: وشوقي؟ فقال: لا شك في أن شوقي كان شاعراً عملاقاً، ولكن ابداعه الفكري ظل محصوراً في نطاق الأقطار العربية، بينما تُرجمت أعمال طه حسين الى لغات أجنبية عديدة (ذكر ان كتاب «الأيام» تُرجم الى ١٢ لغة عالمية).

دعينا في اليوم الثاني من أيام المهرجان ، لزيارة منزل طه حسين (رامتان) في منطقة الهرم، فرأيت انه من منازل متوسطي الحال في حي عادي من أحياء القاهرة. الا انه منزل أنيق يتألف من طابقين وتحيط به حديقة ذات أشجار وورود. وتجولنا

في المنزل فشاهدنا غرف المكتبة والجلوس والمطالعة باقية على حالها. وكانت هناك السيدة سوزان، زوجة طه حسين الفرنسية، وابنته أمينة. اما ابنه مؤنس الذي يعمل في منظمة اليونسكو في باريس، فلم يحضر مهرجان تكريم ابيه. و«رامتان» اسم أطلقه طه حسين على منزله، وهو مثنى كلمة رامة ومعناها «ملتقى العشاق». وكان ذلك من طه حسين تدليلاً على حبه لزوجته وحبها له.

بعد ذلك زرنا ضريح طه حسين في جبل المقطم، وهناك رتل أحد الشيوخ آيات من القرآن الكريم، وبعد تلاوة الفاتحة قال الشيخ: رحمة الله على طه حسين - انه فقيد العرب والمسلمين. فقال سعيد عقل: وفقيد المسيحيين ايضا.

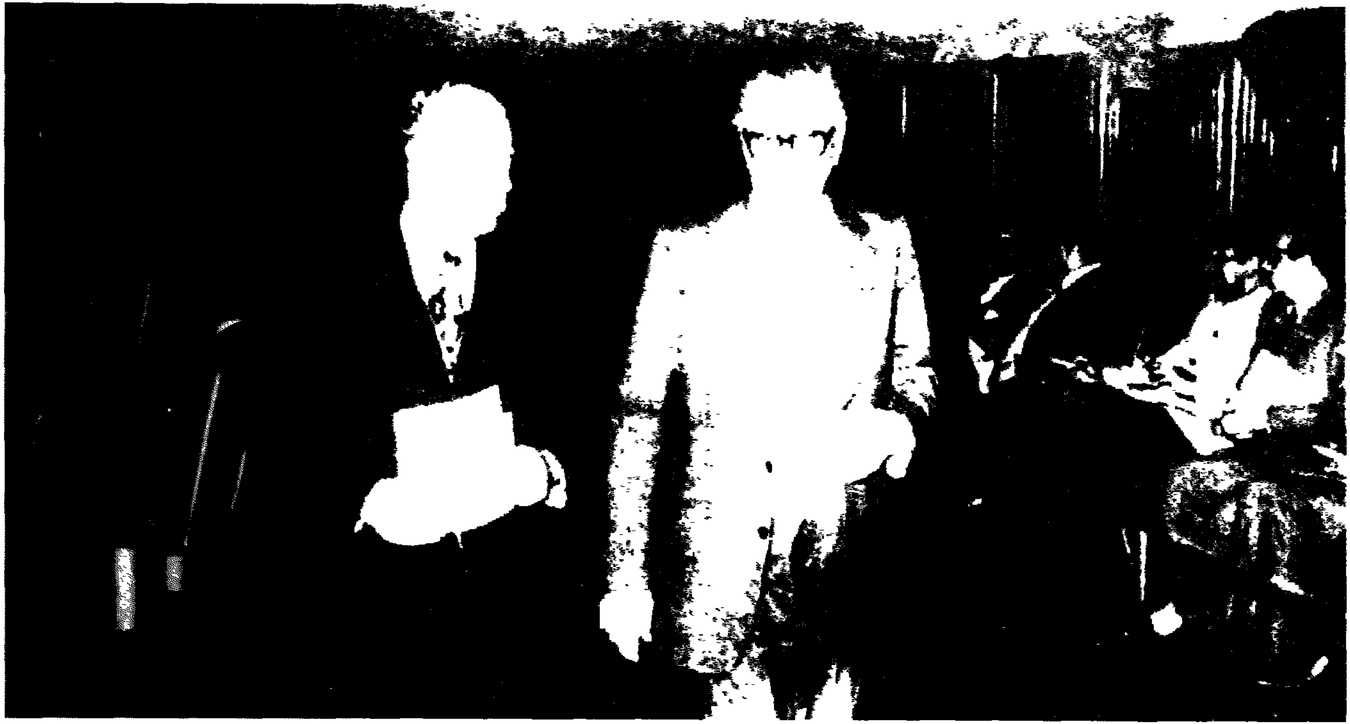
وفي أيام المهرجان حرص يوسف السباعي وزير الثقافة على احاطة المدعوين بكل عناية وتكريم، ومن المؤلم ان ذلك الكاتب المبدع اغتيل بعد مدة غير طويلة.

مفارقـــــات

كانت هناك مفارقات، ومن جملتها ان المستعرب الايطالي رتزيْتانو، ألقى في المهرجان كلمةً باللغة العربية، ثم أعقبه الكاتب الجزائري مولود معمري، فألقى كلمته باللغة الفرنسية. من خلال تلك المفارقة برزت لنا أفاعيل الاستعمار الفرنسي في الجزائر ومحاولته الاجرامية لسلخ الجزائريين العرب عن لغتهم الأصلية القومية. وتجلّت المفارقة الأخرى في اصرار عددٍ من الأساتذة الأجلاء - وبينهم ارنالديز الفرنسي - على القاء أبحاث مطولة، في أوقات كانت الخطب والقصائد قد استنفدت قدرة الناس على الاستيعاب والمتابعة، وعلى الرغم من الحاح عريف الحفل والحافه، بأن يرفق الخطباء بزملائهم، فلا يتجاوزوا في خطبهم مدة عشر دقائق.

وأعود الى سعيد عقل والمفارقة الخاصة به. فقد جاء معه من لبنان بثلاثة أو أربعة رفاق، ظننت انه جاء بهم حاشيةً له، ولكن تبين فيما بعد ان ظني كان إثماً، اذ ان هؤلاء عمدوا فألّفوا من أنفسهم جوقة، وأخذوا يصفّقون ويصفقون في أثناء القاء الاستاذ قصيدته. والحقيقة ان سعيد عقل اندمج مع قصيدته في أثناء القائه لها، فتفاعل معها وانفعل بها، وهكذا أخذت الكلمات تتناثر من فيه بصوتٍ جهوري له طنين ورنين، حيناً كالموج الهادر وحيناً آخر كالرعد القاصف، وهو يشير بيديه يميناً ويساراً، ويميل بقامته المديدة ورأسه الضخم فوق المنبر نحو هذا الجانب أو ذاك، فيضفي بصوته وجودة القائه هالةً تحيط بأبيات القصيدة وتضخّم معانيها، الى حدٍّ استثار فيه العواطف واستفزّ المشاعر واستدعى التصفيق، ليس من أكفّ أفراد جوقته فحسب، بل من كثيرين من المشاركين:

ذكراكَ في البال، ما ذكراك؟ قلْ ضربا … هام الجبالِ، غضوبٌ أشعلَ السحبا



في الاحتفال بذكرى طه حسين في القاهرة (شباط ١٩٧٥)
عبد المنعم الرفاعي والمؤلف الى يساره

ومصر ثنتان: ما أحببتَ انت، وما ألهمتَ، هذي وتلك ، الفكر منتسبا

الفصحى والعامية

وكان سعيد عقل قد جلس في قاعة فندق مريديان، قبل القاء قصيدته بيوم. وكان هناك آخرون بينهم الدكتور محمد حسن الزيات (زوج امينة طه حسين)، فأخذ يتحدث عن نظريته الأثيرة في ان العرب يجب ان يتخلصوا من اللغة العربية الفصحى، وان يكتبوا الكلمات كما يلفظونها. وقال ان نظريته هذه تنصرف الى وجوب اصلاح جميع لغات العالم على هذا الأساس. وتقوم نظريته على ان المرء لا يمكن ان يبدع الا اذا كتب باللغة التي يتكلمها ويعيشها. وعلى قوله انه يطبع من كتبه باللهجة العامية ثلاثة أضعاف ما يطبع بالفصحى. وغايته ان يبدع الكاتب ويصل الى خلق أعمال أدبية تتسم بسمات الابداع الأصيل. واستشهد على نظريته بأن الروس في العهد الحديث أخذوا يشجعون اللغات المحلية في الاتحاد السوفياتي، حتى أصبح عندهم أكثر من ١٠٠ لغة يبدع أصحابها في الكتابة بها، وان العرب لا بد ان ينجحوا نجاحاً عظيما اذا ما أخذ سكان كل قطر من أقطارهم يكتبون باللهجة التي يتكلمونها....

وأطال سعيد عقل في حديثه هذا نحو ثلاث ساعات وهو يشرح نظريته، وأخيراً قال له الزيات: سننتظر الى يوم غد عندما تلقي قصيدتك، فان كانت رائعة قلنا ان نظريتك غير صحيحة، وان لم تكن، قلنا انك يمكن ان تبدع في نظم الشعر بالعامية!.
واستذكر الزيات انه كان جاء الى الأردن قبل نحو اربعين سنة (١٩٣٥) مع مجموعة طلاب ومعهم الدكتور شفيق غربال، وانهم زاروا جرش والبتراء، وفي طريقهم توقفوا عند مضارب احدى قبائل البدو، فأخذ شعراء القبيلة يرحبون بهم بقصائد بدوية من عفو الخاطر ووحي الساعة وبسليقة فطرية مدهشة.

بلاد الرافدين

حتى عام ١٩٥٧ لم أكن خرجت من نطاق بلاد الشام: فلسطين وسوريا ولبنان. ولكن الحظوظ التي ساقتني للعمل في خدمة الحكومة، وبالذات في دوائر الثقافة والاعلام، فتحت لي أبواب السفر الى أقطار أخرى.

أول رحلاتي كموظف في الاذاعة كانت الى بلاد الرافدين، أو كما كانوا يسمونها في الزمن القديم (بلاد ما بين النهرين) دجلة والفرات. كان ذلك في فترة الاتحاد الهاشمي بين الاردن والعراق والذي لم يعش سوى بضعة أشهر. وقد حدث أن وفداً من مجلس النواب وبعض الأعيان، دُعي لزيارة العراق في منتصف شهر آذار ١٩٥٨. وقررت الجهات المختصة ان يرافق الوفد عدد من رجال الصحافة والاذاعة والمطبوعات، بقصد التغطية الاذاعية والصحفية. وكان من حسن الحظ أنني كنت واحداً ممن وقع عليهم الاختيار (مع الزميلين موسى الدجاني وطاهر الشهابي).

غادرنا عمان بالطائرة - وكانت تلك أول مرة أركب فيها طائرة، وأرى نفسي سابحا بين الأرض والسماء. تجربة مثيرة مدهشة. أخذت أتعلم وانا صامت. ولم تكن لي معرفة سابقة بأحد من النواب والأعيان، وكانت معرفتي بالزميلين الدجاني والشهابي محدودة. بالنسبة لي كنت أرى نفسي في وضع غريب الى حدٍّ كبير. ربما كان هناك آخرون مثلي، ولكن روح الجماعة تعمل على التأليف بين الرفاق في مثل هذا الوضع. وفي ظني ان الدكتور مصطفى خليفة، رئيس مجلس النواب ورئيس الوفد، كان أكثر المدعوين معرفةً وأغناهم تجربة، بالنسبة لرحلتنا تلك، اذ كان تلقى تعليمه في فرنسا، وشاهد العالم الخارجي وعرفه وسافر بالطائرات. كما ان ممارسته للطب ونشاطه في العمل السياسي زادا من احاطته بالوضع الذي وجدنا أنفسنا فيه، فكان الرئيس الأمثل لنا، في اعطاء الوجه الأردني الطبيعي والأصيل.

كان أعضاء الوفد بين أعيان ونواب وصحفيين واعلاميين، يزيدون على أربعين شخصا، ومن هنا تم توزيعهم على عدد من الأماكن، فكان نصيبي وبعض الزملاء في فندق السندباد.

حديثي هنا عن هذه الرحلة، مستمد من الملاحظات التي دونتها في حينها وبقيت لدي. فقد أستقبل الوفد عند وصوله الى بغداد ضحى يوم ١٥ آذار استقبالاً رسميا. كان هناك طلاب وطالبات يحملون في أيديهم باقات زهور، بل إن بعضهم أخذ ينثر الزهور على الأرض أمامنا. ثم ذهب الوفد بالسيارات الى البلاط الملكي حيث قيدنا أسماءنا في سجل التشريفات، ومن هناك انتقلنا الى المقبرة الملكية حيث وقفنا أمام أضرحة فيصل وعلي وغازي وعاليه، وألقى الدكتور مصطفى خليفة خطابا، نوّه

فيه بالروابط المشتركة بين الأردن والعراق.

بعد الظهر خرجنا في جولة للتفرج على معالم بغداد، فمررنا بشارع الرشيد، وفوق جسور بغداد القائمة على نهر دجلة، بين ضفتي الكرخ والرصافة، وشاهدنا تمثال الملك فيصل وهو على ظهر جواد. وقيل ان عدد سكان بغداد لا يقل عن مليون نسمة. وذهبنا لمشاهدة بغداد الجديدة حيث يقوم مجلس الاعمار بانشاء ألف منزل، بقصد ان تؤجر للعمال أو صغار الموظفين بمبلغ زهيد يقارب ديناراً واحداً في الشهر، على ان يُسلّم المنزل الى المستأجر بعد عشرين سنة ويصبح ملكاً له. وقيل ان بغداد الجديدة هذه يجري انشاؤها في الموضع الذي أغرقته مياه الفيضان في عام ١٩٥٤. وهناك شاهدنا مصانع الآجرّ العديدة (الطابوق) الذي تُبنى منه البيوت.

وأُتيح لي عصر ذلك اليوم ان أشاهد جهاز التلفزيون لأول مرة في منزل النائب عزت مراد الشيخ.

في المساء التقينا بكبار رجال الدولة العراقية، في حفلة أقامها خليل كنّه رئيس مجلس النواب العراقي، وممن التقيت بهم نوري السعيد وعبدالوهاب مرجان. والتقيت ايضا بالسيد خليل ابراهيم مدير الاذاعة السابق، فبدا لي رجلاً صغير الجسم ولكنه على قدر من الذكاء. ومما قال لي: ان السياسة المثلى هي سياسة نوري السعيد التي لا تَعرف المواربة، وانه يؤيد تلك السياسة قلباً وقالباً.

وزرنا جمعية الهلال الأحمر في اليوم التالي، وبعدها ذهبنا الي مبنى مجلس النواب، حيث خطب خليل كنّه والدكتور مصطفى خليفة. ثم مضينا الى قصر الرحاب فقدمنا تحياتنا الى الملك فيصل والامير عبدالاله، وتناولنا طعام الغداء على المائدة الملكية، وبعد الغداء ذهبت والزميلين الدجاني والشهابي الى دار الاذاعة حيث اجتمعنا بالعميد محسن محمد علي. الذي حدثنا عن حرب فلسطين وسياسة العراق.

في المساء ذهبتُ لزيارة الشاعرة نازك الملائكة، بناء على موعد. ولكن عند وصولي قيل لي انها أُضطرت للخروج لمراجعة طبيب. وقد استقبلني أبوها صادق وخالها الدكتور جميل الملائكة، وأهداني ابوها كتابه (ذوو الفكاهة في التاريخ) ولكنني استغربت كثيراً أن الرجلين أخذا يتحدثان عن مساوئ الحكم في العراق، على الرغم من انهما كانا يلتقيان بي لأول مرة. بطبيعة الحال استمعت لحديثهما، بشيء من الدهشة، ولم أقل شيئاً لانني لم أكن أعرف أي شيء عن أوضاع العراق الداخلية. وبعد أربعة أشهر، عندما قام الانقلاب، تذكرت ذلك الحديث، وقلت لنفسي: لا بدّ ان عمق شعور الرجلين بفداحة الأخطاء التي كان الحكم يرتكبها في العراق، هي التي دفعتهما للبوح بمكنونات نفسيهما لرجل لم يكن بينهما وبينه أية معرفة سابقة.

بعد عودتي الى الفندق التقيت بالشاعر بدر شاكر السياب، فرأيت انساناً بائسا، ولكنني لم أدرك عندئذٍ مدى البؤس الذي كان يعاني منه، وكان الحديث بيننا عادياً.

كان برنامج الرحلة حافلا، ففي اليوم الثالث زرنا الأماكن المقدسة في كربلاء والنجف والكوفة. وقفتُ مشدوهاً أمام المسجد الذي دفن فيه الحسين والعباس، ومنائره مطلية بصفائح الذهب. وفي النجف الأشرف مدفن علي بن ابي طالب، وفي الكوفة مسجده والمكان الذي طعنه فيه ابن ملجم. لم تكن الطريق من كربلاء الى النجف معبّدة، فعانينا من الغبار بلاءً كبيراً. وفي هذه الرحلة كانت استقبالات من رجال قبائل الفرات في عدد من المواقع، وشاهدناهم يطلقون الرصاص بكثرة ويهوّسون:

- جينا نزور . أهلاً بالوافد

- هرّينا جبال المرمر

- عاهدنا العاهل فيصل

- هذا الشاهد . كل الناس . تصوّر بالله (وهم يرفعون البنادق بأيديهم)

- هذا اليوم الـ نفرح بيه

- وفدك هذا نرحّب بيه . اسمع يا متوّج

في اليوم الرابع ذهبنا الى آثار بابل، وشاهدنا الأسد المنحوت من حجر الجرانيت. ثم ذهبنا الى الحلة فكان الاستقبال حافلاً، مع قصائد وخطابات. هنا عرفت، ولأول مرة، شغف العراقيين بالشعر، وذلك التقليد الخاص بهم، اذ يهتف أحدهم بالشاعر عند أحد الأبيات الجميلة قائلاً: أحسنت. أعد. ويستجيب الشاعر، بل إن بعضهم يقول في نفسه. «فرصة ولاحت»، فلا يكتفي باعادة بيت الشعر موضع الاستحسان، بل يرجع الى الوراء ليعيد الأبيات الخمسة أو الستة التي سبقت البيت المقصود.

ومن الحلّة مضينا الى الفرات الأوسط حيث قصر الشيخ عبدالمحسن الجريان. هنا شاهدنا آلافا من رجال القبائل. ولكن بالرغم من كثرة السلاح في أيديهم فان نسبة عالية منهم كانوا دون أحذية ينتعلونها. حفل غداء لم أكن شاهدتُ مثيلاً له من قبل. كان واضحا أن الجريان يعيش كالامراء. وسمعنا هتافات الهوسة مرة أخرى:

- قوم تشرّف بالحسين مسيّر

- هذي لعرشك كلها جنود . تصوّر بالله

ـ ملك حسين، نبالغ فيه

ـ هذا اللي يرهج عالحدّين ، تصّور بالله تصّور

ـ هم اللي نحكي بيهم، حسين وفيصل

بعد ذلك بيوم زرنا مدرسة التدريب للعجلات المدرعة، والكلية العسكرية وكلية الأركان. ثم غادرنا بغداد بالطائرة الى الموصل. وهناك زرنا مصنع السكر ومتحف الآثار، وشاهدنا مسلة أشور ناصر بال والثور المجنّح الهائل الحجم، والمستشفى، ومصنع النسيج. وبعد ذلك غادرنا بواسطة السيارات الى الجبال، الى فندق صلاح الدين.

كم تأثرت عند مرورنا بأربيل في المساء، وشاهدنا فتيات صبايا يستقبلننا بباقات الورود. تلك الفتاة التي نثرت أوراق الورد على صدري. تساءلت. كيف نحقق الآمال يا فتاتي الصغيرة؟ نحلم بالمثاليات ونحن صغار، وعندما نكبر تتبدّد الأحلام وتتباعد المثاليات. أمضينا ليلةً في فندق صلاح الدين، وفي اليوم التالي ذهبنا الى كركوك وشاهدنا النار الخالدة التي لا تُطفأ (غازات الكبريت) ثم شركة النفط، وعودة الى بغداد.

في رحلة العودة من الموصل الى بغداد، حدث ارتجاج شديد في الطائرة. وفيما بعد، عندما وقع الانقلاب، أخذ البعض يقولون ان نية المتآمرين كانت تتجه الى اسقاط طائرة الوفد الأردني، ولكن لسبب ما لم يتم التنفيذ. في اعتقادي ان تلك الأقوال لا تعدو حدود التخّرصات.

كان من المقرر ان نزور البصرة، ولكن رمضان أصبح على الأبواب، فأجمع الرأي على ضرورة العودة. وهكذا كان (٢١ آذار ١٩٥٨).

عدنا ونحن نعتقد ان العراق واحة أمن واستقرار، وانه دولة قوية ذات موارد طبيعية وصناعية كبيرة. لم يكن يخطر ببال أحد منا ان الزلزال سيقع بعد أربعة أشهر، وان شوارع بغداد الهادئة سوف تشهد من أعمال القتل والسحل والوحشية، ما تقشعر له الأبدان.

عودة الى بغداد

بعد مرور أكثر من خمسة عشر عاما، أُتيح لي أن أسافر الى بغداد مرة ثانية (أيلول ١٩٧٣). كان عدد من الدول العربية قد اتفق على انشاء فرع اقليمي لمنظمة الوثائق العالمية، وذلك في اجتماع دعت الحكومة الايطالية في العام السابق الى عقده في روما. وبادرت الحكومة العراقية الى دعوة الدول العربية لعقد اجتماع تنظيمي لهذا الفرع في بغداد. قبل خمسة عشر عاماً سافرت بالطائرة، أما هذه المرة فكان

السفر بالسيارة. والحقيقة انني وجدت السفر بالسيارة ينطوي على متع وفوائد لا يمكن أن تتاح لمن يسافر بالطائرة. فها هي الصحراء بوهادها ورمالها تنبسط أمام ناظريك مسافات شاسعة، بينما تنهب السيارة تلك المسافات نهباً، مع الساعات المتتابعة، حتى يبدو لك أحياناً أنها تكاد لا تنتهي. كان السفر ليلاً في منتصف شهر شعبان، والقمر يطل بدراً من قبة الفلك فينعكس نوره الباهت على الأرض، ويكشف لك الأفق من بعيد، وانت ترتفع فوق أكمة طوراً ثم تهبط في منخفض طوراً آخر. وقد ساد الصحراء هدوء شامل، لا تشوب روعته سوى أضواء سيارات الشحن الكبيرة التي تمر موسوقة وهي تنوء بأحمالها الثقيلة. وترى بين الفينة والفينة ثعلباً أو أرنباً برياً يقفز مسرعا من خلال ضوء السيارة، فتعلم ان الصحراء تنطوي على مخلوقات خاصة بها. ومن بعيد ترى سيارة تظهر وتختفي وراء الأكمات والكثبان، فيقال لك انها قد تكون احدى سيارات خفر الحدود، وقد تكون احدى سيارات عصابات التهريب.

في الهزيع الأخير من الليل، شعرت ورفاق الرحلة بشيء من التعب الناشيء عن قلة النوم. عندئذ تصورت المشاق التي كان الانسان يتكبدها في العصور القديمة لعبور هذه المسافات الشاسعة على ظهور الدواب. فكم يا ترى استغرق الأشوريون من الزمن حتى جاءوا من قلب العراق الى الأردن وفلسطين؟ وكم استغرقت حملة خالد بن الوليد حتى بلغت اليرموك؟ إن آخر من سجل لنا أنباء رحلته على الدواب عبر هذه الصحراء هو الفريق جلوب (قائد الجيش الأردني الأسبق)، فهو يروي في كتابه (قصة الجيش العربي) كيف جاء من العراق الى شرقي الأردن في شتاء سنة ١٩٢٤، على ظهر ناقة، واستغرقت رحلته شهرا من الزمن. فما بالنا نستكثر ١٦ ساعة في سيارة واسعة فارهة، بينما كان الرجل من أسلافنا (والمرأة ايضا) يسافر على متن قتبٍ أعجف صلب، يميل يمنة ويسرة، كلما خطت الناقة خطوة على أديم البيداء طوال شهر من الزمن؟!

القرى والمحطات

الطريق طويلة ولكنها ليست خالية موحشة، فحركة السير متصلة عليها، وهناك عدة قرى ومحطات، نشأ بعضها حول المحطات التي كانت شركة بترول العراق قد أسستها في الثلاثينات من هذا القرن، والتي ما زالت تُعرف بأسمائها الأجنبية العجيبة مثل الاجفايف والاجفور والاجثري. ويعود أصل التسمية الى ترقيم شركة البترول لمحطاتها التي بدأتها من كركوك الى حيفا H1,H2,H3,H4,H5 في رأيي ان الاحتفاظ بهذه التسميات يمثل ضعفاً في التحسّس القومي ويعطي انطباعا عن استعدادنا لتقبّل كل ما يضعه الأجنبي.(١)

---

١ ــ في عام ١٩٨٠ سعيت مع وزارة البلديات ونجح المسعى فأُطلق اسم الرويشد على بلدة H4, واسم الصفاوي على بلدة H5.

ليل بغداد

حللنا في فندق (امبسادور) وهو من فنادق الدرجة الاولى في بغداد، ولكن ميزته الكبرى بالنسبة لنا ان أجهزة التبريد كانت تخفض درجة الحرارة في داخله تخفيضا معقولا، بالنسبة لما هي عليه في الخارج. والواقع اننا كنا نجد أنفسنا مضطرين لقضاء أكثر ساعات النهار في الفندق، الا اذا غادرناه لحضور اجتماع. اما في الليل فتهبط درجة الحرارة ويصبح التجوال محتملاً، خاصة في شارع (ابونواس) على الضفة الشرقية لنهر دجلة، حيث تمتد المقاهي والمطاعم مسافة واسعة على حافة النهر، فتؤلف أضواؤها الملونة في الليل منظراً بهيجاً رائعاً. وتنعكس الأضواء على صفحة مياه النهر فتبدو مثل قبة الفلك المرصعة بالنجوم وهي تطل عليها من فوق. وبين تلك المقاهي يقوم تمثال الشاعر الشهير (ابونؤاس) وهو يحمل بيده باطية من الشراب.

في كل ليلة من ليالي الصيف تتجدّد الحياة في بغداد. ففي الليل تختفي وقدة الحرارة، وتخف كثافة الهواء، وتشيع في الجو برودة تنعشها الرطوبة المنبعثة من ماء النهر، ويخرج أهل بغداد من منازلهم زرافات زرافات. وهم يسهرون حتى منتصف الليل أو الى ما بعد منتصف الليل. فالحياة في ليالي بغداد متعة وأي متعة، حتى ترى أكثر الناس ينامون على سطوح المنازل. ويساعد الناس على طول السهر ان أكثرهم يأخذ غفوة قد تطول وقد تقصر في ساعات العصر. ولكن أرجو الا يتصور أحد ان الحياة تركد في ساعات النهار، فالشوارع تزدحم بالناس في النهار، مهما اشتدّت الحرارة ومهما قست أشعة الشمس. ولا شك في ان الانسان يتأقلم مع جو بلاده سواء كان حاراً أو بارداً. على ان أهل بغداد يعتبرون شهر ايلول شهراً معتدل الحرارة. وهو عندهم - بالقياس الى حزيران وتموز وآب - من الشهور اللطيفة. وعلى ذكر حرارة الصيف، روى لنا مضيفنا الاستاذ سالم الآلوسي قصة مساجلة شعرية طريفة، بين شاعرين بغداديين:

في أحد أيام الصيف، أرسل جميل أحمد الكاظمي، الى صديقه عبدالرحمن البنا (وهو صاحب مصنع لصنع قوالب الثلج)، بيت الشعر التالي:

شعرك كالثلج، وحقّ الحسين، فارسل لنا وقت الضحى قالبين ! !

وبيت الشعر يتضمن تورية، اذ إن المعنى في عجز البيت، يمكن ان ينصرف الى قالبين من الثلج او بيتين من الشعر.

وردّ عبدالرحمن البنا التحية لصديقه الكاظمي، اذ أرسل اليه بيت الشعر التالي:

لك يا جميل قريحةٌ ومكينةٌ كلتاهما للثلج أكبرُ مصنعِ ! !

ومن الطرائف التي سمعتها في بغداد، انني في أحدى الأمسيات، سألت شاباً التقيت به، عما اذا كان يعرف الشاعر قيس السامرائي (الذي كانت مجلة أفكار نشرت له قصيدة في أحد أعدادها)، فكان جوابه: ان أكثر من نصف أهل العراق ينظمون الشعر، فمن يستطيع ان يعرف جميع شعراء العراق؟!

مؤتمر الوثائقيين

اشتركت في المؤتمر وفود من اثنتي عشرة دولة عربية. وفي مثل هذا المؤتمر تظهر صفات الانسان المزاجية، أعجبت بالدكتور ناجي معروف الذي كان أقل المشاركين كلاما، والذي كان اذا تكلم أوجز أشدّ الايجاز. وزاد من اعجابي كثرة المداخلات من زملاء آخرين كانوا يجدون ضرورةً للخوض في كل نقطة، واضاءة الطريق المعتمة بأنوار أفكارهم ونفحات معارفهم. كل ذلك باسهابٍ ضاقت ذرعاً به الصدور، اللهم الا صدر سالم الآلوسي، الذي تولى ادارة الجلسات برحابة صدر لا تترك زيادة لمستزيد. ولكن روح الشباب لم تكن تتجلى في شخص أكثر مما كانت تتجلى في نفس الدكتور هشام الشواف الذي كان يضفي طابع المرح على المواقف المتأزمة. وظل الشواف يتمنى عليّ أن أكون أكثر ثوريةً في أحاديثي، الى ان جاء يوم قراءة التوصيات التي وضعتها احدى اللجان. واعترضت على قول المقرر «المادة الحادية عشر» قائلا إن الأصح أن يُقال «المادة الحادية عشرة» وعندئذ صاح الشواف: هاهو الكلام الثوري يا سليمان.

وقلت في نفسي: يا لها من ثوروية!

سامرّاء وكربلاء

في تلك الأثناء أُتيحت لنا زيارة مدينة سامراء، على بعد ١٢٠ كيلومترا الى الشمال من بغداد. انها مدينة (سُرّ من رأى) التي أنشأها الخليفة المعتصم. وفي هذه المدينة (المئذنة الملوية) التي أنشأها الخليفة المتوكل، الى جانب مسجد ضخم لم تبق منه الا جدران سوره الخارجي. وهذه المئذنة بُنيت من الآجر على ارتفاع ٥٢ مترا، وهي ذات هندسة فريدة اذ ترتفع مع ارتفاعها طريق دائرية يضيق معها جسم المئذنة تدريجياً حتى تبلغ القمة. ومن قمة المئذنة يرى المرء منظراً رائعاً، اذ ينبسط أمامه سدّ الثرثار الكبير الذي يؤلف بحيرةً صغيرة الى جانب سامراء، وهو سدّ أُنشيء ليلجم فيضانات نهر دجلة. وتبدو هنا ايضا بقايا قصر المتوكل، وبقايا قصر عظيم آخر يطلقون عليه اسم قصر العشاق. وقد روى لنا الدليل ونحن نطوف بآثاره الدارسة عدداً من القصص العاطفية التي تبدو أقرب الى الأساطير منها الى الحقائق.

وفي يوم آخر أُتيحت لنا زيارة مدينتي الحلّة وكربلاء. وفي المدينة الأخيرة مسجدان شهيران هما مسجد الحسين ومسجد العباس، وكلاهما من فرائد

العمارة الاسلامية، ولهما مكانة خاصة عند الشيعة. وفي الحلّة شاهدنا آثار بابل القديمة.

ايوان كسرى

من أعظم ما شاهدت، غير بعيد عن بغداد، ذلك الأثر الضخم العظيم المعروف باسم (ايوان كسرى). وقد بقيت منه حتى الان قوس هائلة شاهقة العلو عرض جدارها نيف وأربعة أمتار، يلاصقها جدار آخر يماثلها في الضخامة والارتفاع ويزيد عنها في الطول. لم أعجب عند مشاهدة الايوان (ويسمونه في العراق طاق كسرى)، لما ورد في بعض المصادر من أن أحد الخلفاء أراد ان يهدم الايوان ويبني من آجرّه قصراً له، الا انه لم يلبث ان أدرك أن صنع آجر جديد أيسر وأهون من هدم الايوان القائم ونقل آجرّه. وذكرت وانا أقف حياله قصيدة البحتري:

صنتُ نفسي عما يدنّسُ نفسي — وترفعت عن جدا كل جبس

ولكن أيدي الدمار لم تبق شيئاً من الرسوم والصور الملونة التي قيل انها كانت تزين جدران الايوان، حتى ولا بقية من صورة انطاكية التي لم يصدّق البحتري انها مصنوعة من الجبس، الا بعد أن تلمسها بيديه:

فاذا ما رأيتَ صورةَ انطاكية — ارتعتَ بين رومٍ وفرس

والمنايا مواثلٌ وأنو شروان — يزجي الصفوفَ تحت الدرفسِ

وعراكُ الرجال بين يديه — في خفوتٍ منهم واغماض جرسِ

من مُشيحٍ يهوي بحاملِ رمحٍ — ومُليحٍ من السنانِ بترسِ

تصفُ العين أنهم جدّ أحياءُ — لهم بينهم اشارة خرسِ

يغتلي فيهم ارتيابي حتى — تتقرّاهمُ يداي بلمسِ

جرّ الحديث مع بعض الرفاق ـ عند ذكر البيت الاول وكلمة جدا بمعنى استجداء ـ الى مَثَل يستعمله العراقيون «امجدّي وخنجره بحزامه»، وهو يُضرب لرجل يستجدي شيئاً بينما تمسك يده بالخنجر المثبت في حزامه: دلالة التهديد. وهذا المثل ذكّرني بما ورد في مذكرات محمد علي العجلوني، من ان القائد مولود مخلص وعدداً من ضباط جيش الثورة العربية، جاءوا في عام ١٩١٨ الى جعفر العسكري قائد القوات النظامية في جيش فيصل، وطالبوا ان يشرع الجيش بالهجوم، خلافاً لرأي الضباط الانكليز وتحدياً لهم. وعندئذ استعمل جعفر العسكري ـ وهو عراقي ـ هذا المثل في الردّ عليهم وقال «أمجدّي وعينه حمرا»؟!. بمعنى: أتستعملون مال الانكليز وسلاحهم، ثم تريدون تحديهم والخروج على رأيهم؟!

الراوي والحسني

تعرفت في بغداد، في اثناء هذه الرحلة، الى اللواء المتقاعد ابراهيم الراوي، أحد رجال الرعيل الأول من رجال الطليعة العربية. فقد حمل السلاح في الثورة العربية عام ١٩١٦، وظل مع اخوانه رفاق السلاح يخوض غمرات الحرب ثلاث سنوات في بوادي الحجاز وقفاره. وكنت اتصلت بالراوي منذ بضع سنوات بواسطة الرسائل، بعد ان صدرت مذكراته عام ١٩٦٩ (من الثورة العربية الكبرى الى العراق الحديث). وقد أحاطني هو والاستاذ السيد عبدالرزاق الحسني برعاية واهتمام، اذ تفضلا بزيارتي في الفندق عدة مرات. وكانت متعة لي ان أجلس مع رجلين كبيرين لكل منهما حياته الحافلة بالانجازات. وقد أُعجبت بما يتمتع به الراوي من نشاط بدني وذهني، فهو ـ على الرغم من انه في الثامنة والسبعين ـ ما يزال يصعد الدرج بخفة أبناء العشرين، ويمارس السباحة في نهر دجلة حتى اليوم. اما ذاكرته المتوقدة فيكفي دليلاً عليها انه ردّد قصيدة طويلة لشاعر عراقي مغمور كانت جريدة (القبلة) نشرتها عام ١٩١٨ (قبل خمسة وخمسين عاما). وهو يروي حوادث وقعت له قبل ستين عاما، كأنما وقعت يوم أمس أو أول أمس. انه رجل بشوش وسيم، منبسط الأسارير، فارع الطول، منتصب القامة، كأنه لم يمر بتجارب ومحن تشيب لهولها الولدان: من القتال في صفوف الجيش العثماني ضد الانكليز الى القتال في صفوف الثورة العربية ضد العثمانيين، الى الاشتراك في معركة (تَرَبة)، الى الخدمة في الجيش العراقي حتى عام ١٩٤١، الى حياة المنفي في اوروبا طوال أيام الحرب العالمية الثانية، الى الخدمة في السلك الخارجي سفيراً في عاصمة الافغان بعد ان بلغ الستين من العمر ... حياة حافلة بالشدائد، ولكنها لم تترك أثراً في وجه ابراهيم الراوي. ولا شك ان أكبر الأثر في ذلك يعود الي الرياضة البدنية وممارسته لها طوال حياته، والى انسجامه مع نفسه ـ كما يبدو واضحا من مذكراته.

اما السيد عبدالرزاق الحسني، فمؤرخ العراق الأكبر، في العصر الحديث، وله حتى الان ثلاثون كتاباً مطبوعاً، أشهرها (الوزارات العراقية) الذي ظهر في عشرة مجلدات، أعيد طبعها عدة مرات. وهو رجل جم النشاط، ذكي الفؤاد، متحفز الحواس، يتمتع بذاكرة قوية متيقظة. وهو يبدو ـ على الرغم من سنيه السبعين ـ وكأنه في الخمسين. ومن فرط طموحه صنع نفسه بنفسه، فتعلم اللغة الانكليزية على الرغم من نشأته في ظلال الدولة العثمانية، وهو يستعمل تلك اللغة للافادة من المصادر المطبوعة بها. والعراقيون يثنون عليه قائلين انه دوّن تاريخ العراق في كتبه العديدة، تدوين العالم الباحث عن الحقيقة. وقد سعدت بزيارته في منزله في حي الكرّادة الشرقية وشاهدت مكتبته العامرة بالكتب المهمة والمصادر المختلفة، فأكبرت هذا الرجل الذي انقطع للعلم والتأريخ وعكف على متابعة موضوعه، حتى

أصبح نوعاً من الموسوعة الشاملة في تاريخ العراق الحديث.

وفي تلك الأثناء ذهبت والحسني لزيارة محمد مهدي كبّه، وهو سياسي بارز، ترأس حزب الاستقلال في العهد الملكي، ووقف معظم سني حياته في صفوف المعارضة. ألفيتُ رجلاً ضخم القامة عظيم الهامة جهوري الصوت، يتحدث باسلوب طبعه العمل الطويل في ميادين السياسة بطابع القوة والتوكيد. وكنت قرأت كتابه (مذكراتي في صميم الأحداث ١٩١٨ ـ ١٩٥٨). تشعب الحديث، وأبدى رأيه بأن العرب يجدون أنفسهم في مواجهة اسرائيل تجاه ثلاثة مواقف (كانت زيارتي له يوم ١٨ ايلول ١٩٧٣ ـ أي قبل نشوب حرب تشرين ١٩٧٣).

اولاً: موقف المجابهة العسكرية. ويبدو ان العرب لا يضمنون رجحان كفتهم فيه، بسبب تفرقهم من جهة وبسبب الوضع الدولي من جهة ثانية.

ثانياً: موقف الحلول السلمية. ويتضح ان الاسرائيليين لا يريدون سلماً مع العرب، بل استسلاماً مشروطاً بشروط لا يستطيع العرب قبولها.

ثالثاً. سلاح النفط. انه الوسيلة الوحيدة المتوافرة بين أيدي العرب في الوضع الراهن للضغط على الدول الكبرى المتحيزة لاسرائيل، كي تضغط بدورها على اسرائيل للانسحاب من الأراضي المحتلة.

السوداني الأسبرطي

جرّنا الحديث ذات يوم مع زميلنا الدكتور محمد ابراهيم ابوسليم (رئيس الوفد السوداني) وزميلته السيدة خديجة زرّوق، الى عادات البدو وتقاليدهم، والى صلابة البدوي وصبره، قياسا على ليونة ابن المدينة. وذكرت كيف ان البدو في بلادي كانوا ـ قبل انتشار الطب الحديث ـ يعالجون جراحهم البليغة بصب السمن عليها وهو في درجة الغليان. عندئذ قال ابوسليم: اسمع قصة حادثة وقعت لأبي خديجة، عثمان زرّوق، تستحق ـ في مجال الصبر والمكابرة النفسية ـ أن تروى ويتناقلها المتحدثون:

عصر ذات يوم، كان عثمان زرّوق يجلس مع أصدقاء له، في ظل نخلة قريبة من نهر النيل. وأراد ان يشعل سيجارة، فطلب من صبية سوداء اللون كانت تقف غير بعيد عنه، أن تأتي له بجمرة من نار قريبة، وخاطب الصبية بقوله: يا خادم (أي يا عبدة). ولكن الصبية كانت من قبيلة عربية عريقة تعتز بنفسها على الرغم من سواد لونها. ومنعها أدبها من الردّ على الاهانة بعبارة قاسية، بل أرادت ان تعطي للرجل الذي احتقرها ردّاً عملياً، فذهبت الى حيث النار والتقطت جمرةً باصبعيها مجردتين وجاءت بها اليه وقالت: تفضل، سأشعل لك السيجارة. وذُهل عثمان لهذا الاحتجاج العنيف، وشعر بالخطأ الذي ارتكبه في حق الفتاة. وعلى الفور رفع ثوبه

عن فخذه وطلب من الفتاة ان تضع الجمرةً عليه. ووضعت الفتاة الجمرة على فخذه، فتركها هناك تأكل من لحمه حتى تحولت الى رماد، دون أن تندّ عن فمه آهة واحدة ... كان عثمان بدوره رجلاً يعتز بنفسه وكرامته، فأدرك أن لا بدّ له أن يرد على بادرة الفتاة الباسلة ببادرة تماثلها او تفوقها. ولو لم يفعل ما فعل للحق به العار والشنار، ولما كان بوسعه ان يرفع رأسه بين أقرانه وأسوياته من الرجال، ولذلك عاقب نفسه بنفسه. وكان عليه بعد ذلك ان يعالج الاصابة التي أحدثتها الجمرة المشتعلة، تلك الاصابة التي تركت في فخذه ندبة عميقة ما تزال ظاهرة حتى اليوم.

وقصة أخرى عن عزة النفس عند السودانيين، رواها ابوسليم:

أُصيب رجل بظهور دمامل خبيثة في احدى ساقيه. واستشرت الدمامل والقروح حتى أعيت نطس الأطباء الشعبيين (حدث هذا في منطقة لم تكن قد عرفت بعد الأطباء العصريين)، فقرّر هؤلاء، بعد أن استنفدوا جميع أساليب المعالجة التي يعرفونها، انه لا بدّ من قطع ساق الرجل عند الركبة، حتى لا يمتد الداء الى فوق. وفي تلك الأيام كان اسلوب القطع يتم بالسكين العادية، ثم يوضع العضو الذي بُتر طرفه في زيت الزيتون بعد أن يُسخّن على النار الى ان يبلغ درجة الغليان. وفي مثل تلك الحالة، كان الناس يربطون يدي الرجل المصاب الى خلف ظهره، ثم يمسك به عدة رجال ويشدونه بكل قواهم لكي يمنعوه من الاتيان بحركة تعيق الطبيب عن القيام بمهمته على الوجه الأكمل. وهذه ترتيبات طبيعية تجاه الالم الفظيع الذي لا بد ان يحسّ به المرء عندما يتعرض لمثل هذا النوع من العلاج الرهيب، في زمن لم يكن اولئك الناس يعرفون فيه التخدير والبنج. ولكن ذلك الرجل المصاب كان كبير قومه وزعيم عشيرته، فكرهت نفسه ان تُربط ساعداه وأن يمسك به الرجال يشدّونه وهو موثق لا يستطيع حراكا. أبت عليه روح الفروسية ان يخضع لذلك النوع من المعالجة، فصاح قائلاً انه ليس بحاجة الى وثاق، وان الطبيب يستطيع ان يقوم بمهمته واجراء العملية وهو مطمئن الى انه - المريض - لن يأتي بحركة تعيقه في القيام بعمله. وهكذا كان. ومدّ الرجل ساقه، وأخذ الطبيب يقطع المفصل بسكينه، وهو محتسب صابر، لا يزيد عن ان يصرّ بأسنانه. وتمّت العملية دون أن يتأوه أو تندّ من بين شفتيه أنّة شكوى أو تألم، والناس متحلقون حواليه بقلوب واجفة مشفقة. وعندئذ انطلقت من أفواه النسوة زغاريد الإعجاب لصبر هذا الرجل صبراً يفوق طاقة الانسان العادي بمراحل. وابتهج الرجل وتراخت أسارير وجهه سروراً لتلك البادرة، فالتفت للنسوة يقول: يهون عليّ والله لو تُقطع رجلي الثانية، كي أفوز مرة أخرى بمثل هذه الزغاريد!!

قلت لأبي سليم، وقد امتلأت نفسي اعجاباً: ما أشبه قصة هذا السوداني بقصة

ذلك الفتى الاسبرطي الذي أخفى ثعلباً داخل عباءته، فأخذ الثعلب ينهش من أحشائه حتى مزقها، وهو صامت لا يتحرّك لئلا يفضح نفسه، وظل على تلك الحال الى ان سقط على الارض ميتاً لا حراك فيه.

بلادكم بلادنا

اما الدكتور عبدالجبار عبدالرحمن (امين مكتبة جامعة البصرة) فقد روى القصة التالية، وهي تحمل في باطنها عبرة ودلائل تماثل ما يحمل ظاهرها من تفكهة. قال.

ذهبت ذات يوم لزيارة جامعة الكويت. وتنقلت من مكتب هذا الى مكتب ذاك، حتى وصلت الى مكتب أحد كبا ر المسؤولين في الجامعة، وهو كويتي، فرحّب بي ترحيباً جميلاً. وأثناء تبادل التحيات المعتادة، قلت: أشعر أنني بين أهلي وقومي، ولا غرابة في هذا فاننا نعتبر هذه البلاد بلادنا. قلت هذا ببراءة وحسن نية. ولكن راعني وأدهشني ان مضيفي انتفض قائلا: لا، لا. كل شيء ولا هذا!!

- هذه البلاد بلادنا نحن، وليست بلادكم.

وعقّب الدكتور عبدالجبار على هذا بقوله: أدركت حينذاك مبلغ حساسية أهل الكويت تجاه مقولة رجل عراقي: ''هذه البلاد بلادنا'' ... لأنهم ما يزالون يذكرون القلق الذي استبدّ بهم يوم طلع عبدالكريم قاسم بدعواه القائلة بأن الكويت ليست الا قائمقامية تابعة للعراق.

استودع الله في بغداد ...

اذا كانت الأغاني الشعبية تدل على نفسية شعبٍ ما، فالأغاني العراقية تعطي فكرةً عما يكمن في نفوس العراقيين من عواطف عميقة وحزينة. وتساءلنا: هل ان سكان المناطق الحارة متماثلون في هذا؟ ذات أمسية كنت وأبا سليم نخوض في هذا الموضوع ونحن نسير في شارع (ابونواس) على ضفة دجلة. وتذكرنا عندئذ قصيدة ابن زريق البغدادي، الذي ترك حبيبة قلبه في بغداد وقصد الأندلس سعياً وراء الغنى، فلم يوفق، ولم يُقدّر له الرجوع الى أهله. قصة ابن زريق المأساوية أبقت لنا قصيدته الرائعة:

لا تعذليه فان العذل يولعه قد قلتِ حقاً ولكن ليس يسمعه

وكان موعد سفرنا قد أزف، فاستبدت بنا عواطف الوجد ونحن نردّد الأبيات التالية:

استودعُ الله في بغـداد لي قمراً بالكرخ من فلك الأزرار مطلعــه
ودعــته وبـــودّي لو يودعــني صفو الحياة وأني لا أودعـــــه

وكم تشـــفّع بي أن لا أفارقـــــه وللضرورات حال لا تشفـــّعه
وكم تشفّع بي يوم الرحيل ضحىً وأدمعـــي مستهلّاتٍ وأدمعـه

وبارحنا بغداد وقلوبنا مشدودة الى ذكريات حميمة جادت بها أيام عشرة، ثم مرّت سريعاً كما يمر السحاب في ليالي الصيف، في ليالي بغداد.

حديث شنشل

عدت الى بغداد بعد ذلك أكثر من مرة. كان الاستاذ الحسني والاستاذ الآلوسي في طليعة من أسعى للقائهم كلما جئت الى بغداد. في أوائل عام ١٩٧٨ كان من تفضل الاستاذ الحسني وحبه لي انه سمح لي بالاطلاع على أوراق تخص فيصل الاول، وكانت وُجِدت في البلاط الملكي بعد انقلاب ١٩٥٨، وأعارها له واحد من قادري فضله وعلمه. كما ان الاستاذ نجدة فتحي صفوت أعارني مذكرات محمد رستم حيدر لكي أطالعها وأقدم له ملاحظاتي. كان ذلك فرصة عظيمة، بعد ان أخفقت في اقناع جودت حيدر بالسماح لي بنشر تلك المذكرات. لا بدّ ان تكون موهبة الاستاذ صفوت في الاقناع، أقوى بكثير من موهبتي. وذهبت والحسني لزيارة ناجي شوكت رئيس وزراء العراق الأسبق. ألفيته ما يزال قوي البنية ويحتفظ بأسنانه كلها على الرغم من سني عمره الثماني والثمانين. وحضّني الحسني على زيارة محمد صدّيق شنشل، الذي اشترك في أول وزارة تألفت بعد انقلاب ١٩٥٨. وزرناه فتحدّث طويلا، وكان مما قال.

فيصل الاول أحترمه كثيرا. عمل من أجل بناء العراق، وحدّثني كثيرون من زعماء القبائل انه كان يشجعهم على القيام بحركات ضد الانكليز. بل انه كان يشجع على قيام حركات في ايران من أجل تقوية وضع العراق الوطني. مع الأسف جاء بعده غازي. كان غازي متحمساً ولكنه لم يكن متعلماً ولم يكن يملك شيئاً من مواهب ابيه ونظره البعيد، والقدرة على استغلال المواقف لمصلحة بلاده. ثم جاء عبدالاله الذي كان السبب في ثورة ١٩٥٨. كان يستطيع العفو عمن قاموا بحركة ١٩٤١ واستخدامهم، كما فعل الحسين بن طلال. فيصل الثاني ذهب اليه ثلاثة سياسيين وطلبوا أن يبعد خاله عبدالاله عن العراق. ولكنه لم يفعل شيئاً. أنا خدمت مع عبدالكريم قاسم. ولكنني لم ألبث ان انسحبت عندما أحاط به الشيوعيون وأخذوا يوجهونه. عبدالسلام عارف كان رجلا أحمق. نوري السعيد لم يكن وحدويا. علي جودت عارض في اتحاد العراق وسوريا، وقال لي: انت لا تعرف السوريين. ان حكمهم ليس من الأمور الهيّنة، بسبب كثرة اختلافاتهم. الحسين بن علي ضحّى بعرشه من أجل فلسطين. لا أحد يستطيع أن يجحد هذا.

هنا قال الحسني ان نوري السعيد لم يكن يقرأ ولا يكتب. صديقه أحمد

المناصفي هو الذي كان يكتب له. بعض الرسائل التي تصل اليه كان يلقيها في سلة المهملات.

وزرت الاستاذ أمين المميز (السفير السابق) فروى الطرفة التالية:

في عام ١٩٤٣ كان هناك اجتماع في مصر من أجل تأسيس الجامعة العربية. في الاجتماع قال صبري ابوعَلَم لمصطفى النحاس - بعد ان حضر ممثلو الدول العربية كلهم - لماذا لا تبدأ بافتتاح الجلسة؟ فرد عليه النحاس قائلا : ولكن المجدّدي لم يحضر بعد (المجددي سفير الأفغان في مصر)!!

ثم مضى يقول:

- جمال عبدالناصر هو الذي أقنع المصريين بأنهم عرب، ولكن المصريين لم يحاولوا معرفة بلاد العرب معرفة حسنة، وظلوا يحتفظون بعنجهية سخيفة ظناً منهم أنهم أكثر تمدناً ورقياً من العرب.

الموظف الكبير الكبير

اما سالم الآلوسي فقد روى القصة التالية:

أرسلت حكومة اليمن الجنوبي لنا شاباً من أجل الالتحاق بمعهد تدريب الوثائقيين. عندما وصل ذلك الشاب الى بغداد، قال انه موظف كبير جداً، وطالب براتب وامتيازات (منزل وتسهيلات أخرى). قلت له: نحن نقبل طلابا يقيمون في نزل المعهد ويتقاضون الراتب المخصص للجميع وهو ٤٠ دينارا في الشهر. ولكن الشاب اليمني أصرّ انه موظف كبير كبير جداً في حكومة بلاده، ومن الضروري أن يتمتع بالامتيازات، وهو بالاضافة الى ذلك يساري متطرف. طالت اقامته هنا أكثر من شهر وهو يواصل الالحاح، الى ان اضطرت حكومة العراق الى اعادته لبلاده على حسابها.

ثم روى قصة عن الشاعر حبيب العبيدي (من الموصل)، فقال انه كان محسوباً من أصدقاء جعفر العسكري. وعندما اغتيل جعفر بأمربكر صدقي، بادر العبيدي الى نظم قصيدة في مدحه. وعندما قُتل بكر صدقي جاء العبيدي يسلم على رئيس الوزراء جميل المدفعي، فعاتبه على مدحه لبكر صدقي بعد فعلته الشنعاء. الا ان العبيدي قال له: لم تكن القصيدة في مدح بكر صدقي، بل كانت في مدحك انت!

وكثيرا ما تذاكرنا، وتبادلنا الشكوى من آفة النسيان. وكثيراً ما ردّد الآلوسي أبيات الشعر التالية:

قد بلغَ النسيانُ بي أَنـه ... لم يُبقِ لي فكراً ولا حسّا

فصرت إمّا عرضتْ حاجةٌ ... تهمّني ، أودعتُها الطِرسا

وصرتُ أنسى الطِرسَ في راحتي وصرتُ أنسى أنني أنســـى

تحسين قدري

في زيارتي تلك (شباط ١٩٧٨) علمت ان تحسين قدري موجود في بغداد. كنت أعرف انه بدأ حياته العملية ضابطا في الجيش العثماني، وحارب في المدينة المنورة تحت قيادة فخري باشا، وفي عام ١٩١٨ التحق بالثورة العربية، وان فيصل عينه مرافقاً له وظل ملازما له طوال عمره. قيل لي انه على قدْرٍ من الثراء، يقضي فصل الشتاء في بغداد والبصرة، ويقضي الصيف في سويسرة ... ذهبت لزيارته مع اثنين من الأصدقاء، فلاحظت انه ما يزال منتصب القامة وفي صحة جيدة. وجّهت اليه بضعة أسئلة فأجاب عليها.

عندما نهضنا لتوديعه، دعاني للمجيء الى سويسره والاجتماع به هناك قائلا ان لديه صناديق مملوءة بالأوراق التاريخية. قلت له الامر يحتاج الى نفقات فوق طاقتي. قال: الا يهتم ذوو العلاقة بما تكتب؟

بعد خروجنا قيل لي انه يميل الى حياة الدعة والراحة والمتعة. لو كانت عنده الحماسة الكافية والشعور القوي بالواجب، لكتب مذكراته، ابتداءً من انفصاله عن الخدمة العامة قبل عشرين سنة. قال انه سيفعل، ولكن هل يتصور ان يعيش ٨٠ عاماً أخرى؟(١)

وبعد ثلاث سنوات أتيحت لي فرصة الذهاب الى سويسرة، وذهبت لزيارته في دارته المطلة على بحيرة لوزان، وتحدثت اليه مرة أخرى، وتناولت معه طعام الغداء، وتكرم فأهداني زجاجتين من النبيذ المعتق على سبيل الهدية لزوجة ابن اختي السويسرية. اما الأوراق المهمة التي كان يحتفظ بها وكنت أطمع في الاطلاع عليها، فلم أحظ برؤيتها. وهكذا يسافر المؤرخ من زيورخ الى لوزان من أجل الاطلاع على أوراق تاريخية، فيكون نصيبه أن يعود بزجاجتي نبيذ!!

١ ـ بعد وفاته نُمي الى علمي أن الأمير الحسن ابتاع دفتراً من مخلفات تحسين قدري، في مزاد مؤسسة ساوثبي في لندن. ربما يكون هو الدفتر الذي كان ذكـــــر أمره لي. ولكن أين بقية أوراقه؟

العادات والتقاليد

في احدى زياراتي لبغداد رحّب بي السيد صفر مخلص ترحيباً خاصاً. كنت نشرت سيرة موجزة لحياة ابيه مولود مخلص في كتابي (صور من البطولة). وكان ترحيبه نابعا من تقديره لأنني كتبت ما كتبت، دون غاية، ومن مجرّد الاعجاب المخلص بمجاهد عظيم. عندما سألته عن أية أوراق تاريخية يمكن ان تكون بقيت بعد وفاة ابيه، كان جوابه: هناك تقليد عند بعض الأسر في العراق، يقضي بأن تغلق الغرفة التي يقيم فيها الرجل الزعيم، بعد وفاته، سنوات وسنوات. دُفن الوالد في تكريت، وتم اغلاق الغرفة التي كان يقيم فيها. ومرّت اثنتا عشرة سنة، وفتحنا الغرفة، فوجدنا ان كل ما كان فيها من أوراق ومقتنيات قد أصبح رماداً ، بسبب الرطوبة.

وحدث في زيارتي لبغداد سنة ١٩٧٩ أنني ذهبت وزملاء لي للسلام على وزير الثقافة والاعلام لطيف نصيّف جاسم. تحدث وتحدثنا، وكان من جملة أقواله انه زار دولة الامارات العربية أخيراً، فلم يجد أحداً يتكلم العربية. وان العراق يخشى الخطر على الخليج، وسيقطع اليد التي قد تمتد اليه. ان كثيرين من أثرياء النفط يشوهون صورة الانسان العربي بأفعالهم الرديئة في الخارج.

أيقنت مدى ما في كلام الوزير من صحة عندما هبطت بي الطائرة ذات يوم في مطار دولة الامارات، ولاحظت فعلاً ان المطار والسوق الحرة فيه، يكاد يكون حكراً على الهنود الذين يرطنون بالانكليزية. وقفت ذاهلا يمتزج الألم بالعجب في نفسي، وتذكرت قول المتنبي:

ولكن الفتى العربي فيهـــا   غريبُ الوجه واليدِ واللســـانِ
ملاعبُ جنّةٍ لو سار فيهـــا   سليمـــانٌ لسارَ بترجمـــانِ

قصيدة في مدحي

حسبت حساباً لأمور كثيرة، ولكنني لم أحسب أنني سأستمع الى قصيدة في مدحي. ولكن ذلك حدث فعلا. في احدى زياراتي لبغداد (١٩٨١) جاء الدكتور عبدالمجيد القصاب الى الفندق، يردّ لي الزيارة، وكان معه الشاعر طالب فليّح. وفوجئت بعد قليل بذلك الشاعر الطيب يتناول من جيبه ورقة ويقرأ منها قصيدة في مدحي. أدهشني الموقف الذي لم يخطر لي ببال. ولكن ماذا يستطيع المرء ان يفعل، سوى ان يستمع بأدب، ويشكر صاحب القصيدة على حسن ظنه. وكنت التقيت بالحاج طالب عند زيارتي للدكتور القصاب، في مجلسه المعتاد يوم الجمعة.

أما القصيدة فكانت كما يلي:

(سليمان موسى) ألف أهلاً ومرحبا ... لك القلب عن بعدٍ وحقّك قد صبا

تتيمــنا منــك السجايـا كريمــةَ ... وتشرق في جو التعارف كوكبا

عرفنــاك في دار (المجيد) وانمـا ... يرى كل من فيها لقاءك طــيبا

كتبــتَ لنا تاريـخ شــعبٍ وأمـة ... مفاخره قد سرن شرقاً ومغربا

حداه الى العليا (الحسين) ومن يكن ... حداه (حسينٌ) للعلى نالَ مطلبا

فأهلاً فتى عمــان، يا خيرَ كاتــب ... عرفناه فيما خطّ كان مــهذبا

(سليمان) إن حركتَ في الكفِ خاتماً ... عجيبا بدا ما رحتَ تمليه أعجبا

صحابك في بغداد قد حفظوا الهـوى ... وما زال كل منهمو بك معجبـا

أطلْ بينهم مكثا فانت مكـــــرّمٌ ... وأهلاً وسهلاً بالأديبِ ومرحبـا

ولما كان الشيء بالشيء يذكر، فقد التقيت في مهرجان المربد بالصديق القديم الشاعر حسن عبدالله القرشي. وبعد السلام والقبلات، شاء له كرم نفسه ان يداعبني ببيتين من الشعر:

أطلعتَ من شمس فكري ... سامي المقام عروسا

هي ابنــــةٌ لشعيــبٍ ... فأين في الناس موسى؟

(أود ان أعترف هنا أنني لم أفهم بصورة كافية المعنى الذي قصد اليه القرشي).

وفي عام ١٩٨٩ زرت أضرحة الملوك الهاشميين، مع الصديقين صفر مخلص وسالم الآلوسي.وقفنا خاشعين وقرأنا سورة الفاتحة على أرواحهم. وقفت أقول لنفسي: حقا، انه لا يبقى للانسان الا عمله وصفحة تاريخه: فيصل الأول، علي، غازي (٢١ / ٣ / ١٩١٢ ـ ٤ / ٤ / ١٩٣٩)، فيصل الثاني (٢ / ٥ / ١٩٣٥ ـ ١٤ / ٧ / ١٩٥٨). ثم زرنا مسجد الامام الأعظم ومسجد الكاظمين ومسجد الجيلاني الكبير.

الاهتمام بالثقافة

لا يفوتني أن أذكر أن مندوبة اليونسكو في اجتماع عُقِد حول التعاون الثقافي بين الأقطار العربية، شكت من ان الدول العربية لا تقدم دائماً المعلومات التي تطلبها اليونسكو منها. وقبل مدة غير بعيدة طلبت اليونسكو معلومات عن النشاط الثقافي في البلاد العربية، فلم تستجب للطلب الا أربع دول فقط، هي الأردن والعراق

وتونس والجزائر.

الرئيس صدام حسين

اشتركت في اجتماع المؤرخين العرب الذي عُقد في بغداد عام ١٩٨٨. وتقرر في ذلك الاجتماع تقديم وسام المؤرخ العربي للرئيس صدام حسين. ثم دُعينا للذهاب الى قصر الرئاسة. وبينما نحن في الحافلة في طريقنا الى دار الرئاسة، قال الدكتور مصطفى النجار (الأمين العام لاتحاد المؤرخين العرب) حبذا لو ان أحد الاخوان يوجه للرئيس سؤالاً ما، بحيث يستطيع الرئيس ان يتحدث في الموضوع الذي سيطرحه ذلك السؤال. وجّه النجار اقتراحه هذا الى بعض الأشخاص، وانا من بينهم، الا انه شدّد علي في ذلك. قلت: ولكن أي سؤال يمكن أن أطرح على الرئيس؟ هنا قال زميلنا الدكتور محمد عدنان البخيت: لماذا لا يكون السؤال حول الموقف الذي يجدر بالمؤرخ أن يقفه بازاء المنطلقات القومية والمنطلقات القطرية. كان اقتراح الدكتور البخيت منطقياً ومعقولا.

بعد ان تمت الاجراءات لدخولنا الى دار الرئاسة، وبعد تفتيش دقيق، أُدخلنا الى قاعة الاجتماعات. ثم جاء الرئيس فرحّب بنا وجلس. هنا تقدم ثلاثة خطباء: من المغرب، ومن دولة الامارات، ومن مصر الدكتور محمود متولّي الذي ألقى خطاباً طويلاً بالغ بالتبذل فيه. ثم تبع ذلك تقليد وسام التاريخ للرئيس صدام.

قيل في أحد الخطابات ان في بلاد العرب ١٢ الف مؤرخ. استكثرت العدد. البارزون من بينهم بضع عشرات أو بضع مئات. الكثرة الكاثرة من المؤرخين العرب مستعجلون، يهمهم الكم أكثر بكثير من الكيف. كثيرون من أساتذة الجامعات يكتبون، لا حباً بالتاريخ، بل بدافع المهنة من أجل الحصول على الترقيات.

بعدئذ جلس الرئيس في المنصة المواجهة لنا. جاء الوقت الذي اقترحه النجار من أجل فتح باب الحديث، تلفتُ حوالي عسى ان ينهض أحد ممن انتدبهم النجار، فلم تقع عيني الا على وجوهٍ ساهمة واجمة. قلت لنفسي: لا بدّ مما ليس منه بد. توكلت ونهضت وألقيت السؤال اياه. وفتح السؤال باب الكلام. تحدث الرئيس صدام حديثاً طويلاً، تحدث بعفوية ودون انفعال. امتدح العرب كل العرب، وقال ان مؤازرتهم كان لها أثر كبير في انتصارات العراق. أكبرتُ ذلك منه وقلت في نفسي: لو لم يكن زعيماً كبيراً، لوجه الشتائم الى من يستحقونها. ثم تحول للرد على سؤال ''أخي سليمان موسى من الأردن ...'' فقال ان على المؤرخ ان يتحرّى الدقة ويكون رائده الأمانة. تكلم باجادة في موضوع القطرية والاقليمية (صحف العراق نشرت الحديث كاملاً يوم ١ / ١٢ / ١٩٨٨).

اما زيارتي الأخيرة للعراق فكانت في ايار ١٩٩٠ للمشاركة في المؤتمر العربي الشعبي للتضامن مع العراق. أُفتتح المؤتمر يوم ٧ أيار، وكان هناك مدعوون كثيرون من مختلف الأقطار العربية. في اليوم الثالث جاء الرئيس صدام حسين للمؤتمر وألقى خطاباً تحدث فيه عن السلاح الذي يملكه العراق ''الكيماوي المزدوج''، للدفاع عن نفسه. لم يكن أحد يعلم ان القوات العراقية سوف تستولي على الكويت بعد ثلاثة أشهر، وأن ذلك سيكون بداية لأحداثٍ بالغة الخطورة لها أبعاد وأبعاد.



بغداد ١٩٧٣

المؤلف مع الدكتور محمد ابراهيم ابو سليم والدكتور هشام الشواف

في السعودية

في أواخر عام ١٩٦٦ زار الأردن وفد من الكتاب السعوديين ـ عبدالقدوس الأنصاري وعبدالله السعد وعبدالله بن خميس ومحمد حسين زيدان ـ ضيوفاً على وزارة الاعلام الأردنية. ولم تلبث وزارة الاعلام السعودية ان وجهت الدعوة لثلاثة من الكتاب الأردنيين ـ محمود سيف الدين الايراني وعيسى الناعوري وسليمان موسى ـ لا أدري من الذي قرر اختيار هؤلاء الثلاثة من بين الكتّاب الأردنيين، ولكنني كنت آنذاك أعمل رئيس تحرير لمجلة (أفكار)، المجلة الأدبية الوحيدة في الأردن آنذاك، فلم أستغرب توجيه الدعوة لي. وعندما جاء السفير الشيخ أحمد الكحيمي الى مكتبي في دائرة الثقافة والفنون، ووجّه الدعوة لي، أجبت بالقبول مع الشكر والامتنان.

استغرقت تلك الرحلة سبعة عشر يوماً، زرنا خلالها مدن الرياض والظهران وجدة، وقدمنا تحياتنا للملك فيصل في مجلس عام له في قصر المعذر، وشاهدنا كيف يقدّم البدو له شكاواهم وظلاماتهم. وعلمنا انه يداوم على العمل صباحاً ومساء أكثر من عشر ساعات في اليوم، وانه يحرص على زيارة اختين شقيقتين له يوميا.

كان من حسن الحظ ان المؤرخ الاستاذ امين سعيد كان يقيم في فندق (اليمامة) في الرياض، وهو الفندق الذي نزلنا فيه. وهكذا أُتيحت لي الفرصة للجلوس معه والتحدث اليه في لقاءات عدة. كان امين سعيد بالنسبة لي شخصية تاريخية مهمة، فهو مؤلف كتاب (الثورة العربية الكبرى) بأجزائه الثلاثة، وهو في ظني أول من أطلق على الثورة العربية لقب ''الكبرى'' وجعل منه عنواناً لكتاب.

كما التقيت في جدة بالامير عبدالله الفيصل والشيخ محمد نصيف والسفير الأردني الشيخ محمد امين الشنقيطي. وكانت لي مع هؤلاء السادة أحاديث ذات طرافة ودلالات تاريخية.

في الحقيقة كان سبق أن التقيت بأمين سعيد ثلاث مرات، الأولى في دمشق عام ١٩٥٥ عندما كان يصدر جريدة الكفاح، والثانية في بيروت في مكتب الاستاذ قدري قلعجي، والثالثة في عمّان. وكان قد جاء الى عمان لمقابلة الشريف حسين بن ناصر، عندما كان رئيساً للوزراء في عام ١٩٦٣ (وكانت بينهما معرفة قديمة)، وهدفه المراجعة من أجل نشر كتاب له مخطوط بعنوان (الدولة الهاشمية في الأردن). وبطبيعة الحال كان يود ـ كما قال لي ـ أن لا يخرج من المولد بلا حمص. ولكن مسعاه ذاك لم يكلل بالنجاح. ومما حدثني به انه كان ألّف أربعة مجلدات عن مصر في عهد الرئيس جمال عبدالناصر، ثم أُلقي به في السجن عدة أشهر (لم يحدثني عن

السبب). وبعدها جاء الى السعودية وأخذ يعمل على تأليف سلسلة كتب عن تاريخ السعوديين. اتضح لي انه كان يعيش من قلمه. وقد عمل في الصحافة وفي كتابة التاريخ ضمن فكرة تأمين مورد مادي. من هنا تآليفه في ثلاثة موضوعات متعارضة. ولكن أمين سعيد ـ كما يبدو ـ لم يكن يرى تعارضاً فيها.

وأسعفني الحظ فالتقيت بالشيخ حافظ وهبه في الرياض، وكنت قرأت كتابه (جزيرة العرب في القرن العشرين) وكتابه الآخر (خمسون عاماً في الجزيرة العربية). قمت بزيارته في فندق (الصحارى) الذي كان يقيم فيه. وفي لقائي الثاني به عرض علي أوراقاً من بينها رسائل من الشيخ رشيد رضا ورسائل من المعتمد البريطاني ولسون الى الشريف حسين، وسمح لي بنسخها (ساعدني في ذلك ابني عصام الذي كان يعمل مدرسا في الرياض). وكان حافظ وهبه قد دخل مكة المكرمة في ركاب الملك عبدالعزيز، وهناك شاهد في ساحة دار الحكم أكياساً مليئة بأوراق وملفات الحكومة الهاشمية في الحجاز، فأفاد منها في تأليف كتابه الاول. وفي المقابلتين دار بيني وبينه حديث ينطوي على اطلالات تاريخية، كما أنني ورفيقي لقينا تكريماً فائقاً من الاستاذين الشاعرين عبدالله بن خميس وحسن عبدالله القرشي.

الأمير عبدالله الفيصل

زرت ورفيقي الايراني والناعوري، الامير عبدالله ابن الملك فيصل في مكتبه بمدينة جدة، وهو شاعر معروف له ديوان شعر (محروم)، ويعمل في التجارة والأعمال الحرة. استغرقت الزيارة أكثر من ساعة، وكان هو صاحب الحديث معظم الوقت، وقد فتح قلبه لنا. سجلت في دفتري المقتطفات التالية.

أخذت اسم (محروم) من بيت شعر بدوي لواحد من أعمامي. والحرمان الذي كنت أشعر به حاجة نفسية لا علاقة لها بالمادة. لست بحاجة للمادة ولا ينقصني شيء من الجاه، ولكنني لا أستطيع أن أحيا الحياة التي يعيشها الناس العاديون بحكم مقام أسرتي. لا أستطيع أن أذهب حيث أشاء وأن أرافق من أشاء. انا أعمل الان وأنكبّ على العمل بصورة مستمرة، لانني لا أريد أن أقضي أوقات فراغي في ظروف غير مرضية. وفي اوروبا اذا أردت مرافقة فتاة فانني لا أستطيع أن أفعل ذلك على المستوى الانساني المعتاد، لانها تريد أن تبيعني جسدها وانا لا أريد جسدها بل أريد عواطفها ومشاعرها قبل كل شيء.

نحن عرفنا الفقر في أيامنا. أذكر أنني وأمي كانت مخصصاتنا في الشهر عشر روبيات. وأذكر انه كان يقال لنا في تلك الأيام: اليوم لا تفوّتوا على أنفسكم طعام الغداء، لاننا كنا نأكل اللحم مرة واحدة في الاسبوع وكان من لحم الجمال. أما الأرز فلم نكن نذوقه الا اذا كان هناك ضيوف أو سقط أحدنا مريضا.

ما تزال في ذهني علاقة صداقة أقمتها مع مطربة في أحد ملاهي القاهرة حيث كنت أدرس. كانت تلك الفتاة ترفض مجالسة رواد الملهى. ولكنني أعجبت بها حتى أصررت على صاحب الملهى ان تجالسني. وجاءت على كره منها وقالت. سأجالسك الآن ولكن يجب ان تفهم انني لن أخرج معك، مهما حدث. وقلت لها. لم أطلب منك أن تخرجي معي، ولكنني أود ان تجالسيني فقط، أريد ان نجلس كانسانين. واستمرت العلاقة بيننا على هذا المنوال البرئ حتى النهاية. وبعد عودتي الى بلادي كانت الوحيدة التي أبرقت تهنئني بعيد ميلادي، دون كثيرات وكثيرين ممن عرفتهم في مصر.

عندما بدأت أنظم الشعر لم أكن واثقا من جودة ما أنظم. لذلك أخذت أرسل شعري الى جريدة (البلاد) السعودية دون توقيع. ونشرت الجريدة لي عشر قصائد. ثم أخذت أنشر تحت توقيع ''محروم''. ولم يعرف أحد انني عبدالله الفيصل، الا عندما قام صديق لي بنشر كتاب عن الشعر الحديث ونشر فيه مقطوعات من شعري. ثم نشرت ديواني. وعندي الان ديوان شعر آخر ولكنني لا أعرف ما اسميه. إن أكثر ما يزعجني هو ايجاد العناوين لقصائدي.

غايتي من العمل أن لا أكون عالة على أبي وأهلي، بل أن أكفي نفسي بنفسي وأدخر ما يلزم لشيخوختي. وهاإن أولادي يعملون في وظائف الحكومة برواتب عادية ودرجات تتناسب مع مؤهلاتهم العلمية، مثلهم مثل غيرهم من المواطنين. لي ولد في الجيش أمضى سنة كاملة في منطقة تبوك البعيدة، وأحد أبنائي في جازان وآخر طيار. ولي ابن في الرابعة عشرة من العمر أداريه وأقدم له النصيحة. وقبل يومين وجدت نفسي مضطراً أن أمنعه من تلبية دعوات الآخرين حتى لا تفسد أخلاقه، ولكنني في نفس الوقت أبحت له أن يدعو رفاقه الى ما يشاء من الحفلات. ولي ابنان متزوجان أعاملهما كأخوين، وطلبت من زوجتي ان لا تزورهما الا في فترات متقطعة، وأن لا تتدخل مطلقاً في شؤونهما، وانا لا أدخل غرفة أبني الخاصة، أبني ذي الأربعة عشر عاما.

لا أحبذ الالتزام ولا أوافق عليه، لان الفنان الأصيل لا يستطيع ان يلتزم بما يريد ان يعبّر فيه عن ذاته ومكنونات نفسه.

بعد ذلك بأعوام طوال (١٩٨٩) جاء الأمير عبدالله الفيصل الى عمان، مدعواً لتقديم قصيدة له في مهرجان جرش. وأقامت السفارة السعودية حفل عشاء في أحد الفنادق الكبرى تكريماً له. وحضر الحفل جمهور من الكتاب والشعراء والأدباء. ولكن في الليلة التالية لم يحضر للاستماع لقصيدة الأمير في جرش الا القلائل من اولئك الكتاب والشعراء والأدباء!!

الشيخ الشنقيطي

في مدينة جدة زرنا السفير الشيخ محمد امين الشنقيطي، فاستقبلنا مرحّباً وأقام لنا حفلة فاخرة. وفي يومياتي عن تلك الرحلة وصفته بأنه رجل حازم حاد اللسان قوي الجنان، شديد في أداء أعماله. والحقيقة انني احترمت صراحة الشنقيطي، واحترمت الخط الواحد الذي اتخذه لنفسه بعيداً عن التلون والتلوين. وحقاً لم يكن الشنقيطي من طراز الرجل الذي:

يعطيك من طرف اللسان حلاوةً ويروغ عنك كما يروغ الثعلب

حدثنا الشنقيطي أن برقيةً وصلت اليه من وزارة التربية والتعليم في عمان، مفادها ان وفداً من تلك الوزارة سوف يأتي الى السعودية للتباحث مع المسؤولين في بعض القضايا التعليمية. وأوردت البرقية أسماء أعضاء الوفد ومن بينها اسم الدكتورة عدوية العلمي. وعلى الفور أبرق الشنقيطي لوزير التربية يطلب الغاء ايفاد الدكتورة عدوية العلمي، لان الوضع الاجتماعي في هذه البلاد لا يتقبل فكرة التفاوض مع سيدة. ثم علق على ذلك تعليقات حادة، من ان بعض المسؤولين لا يستطيعون تقدير الأمور ووزنها بالميزان الصحيح، وان هذا الأمر لو أُحيط السعوديون به علماً لأحدث عندهم صدى غير مستحب ولاستاءوا من هذا التصرف، وما كان ينتظر أن يقبلوا به. وقال انه شخصياً يوافق على فكرة السعوديين من ان المرأةميدانها في منزلها وتربية أطفالها،وليس العمل في الميادين الأخرى التي يجب أن تبقى للرجال.

في الواقع كان رأي الشنقيطي مطابقاً لواقع الحال في السعودية. فالمرأة لا وجود لها ظاهراً للعيان. ونادراً ما يرى الانسان شبح امرأة في الرياض، الا اذا كانت أجنبية أو من قطر عربي آخر.

وفي حفل العشاء الكبير الذي أقامه الصديق الأمثل الاستاذ عبدالقدوس الانصاري، تصدر الشيخ الشنقيطي المجلس الواسع، وتولى ادارة دفة الحديث. وكان من جملة ذلك قوله ان وجود (فلان) وزيرا ـ بعد ان عمل ما عمل ضد الأمن والنظام ـ معناه ان قيام الساعة أصبح وشيكاً جدا. ثم تمثل برواية القصة التالية:

كان عند السلطان سليم العثماني شيخ اسلام يناقشه كثيراً في مدى انطباق أحكام الشريعة الاسلامية على الاجراءات التي يتخذها. وغضب السلطان منه ذات يوم فقال له: لا تغتر كثيراً بعلمك في أحكام الشريعة، ولا تظن ان ذلك العلم يمكن ان يضطرني الى ابقائك في هذا المنصب، انني أستطيع أن أجعل من أي شخص آخر شيخاً للاسلام. ولم يلبث السلطان ان عزل ذلك الرجل واستدعى رجلاً سكيراً عربيداً فاسقاً يدعى بكير، وعيّنه في وظيفة شيخ الاسلام. ومضت مدة من الزمن.

وذات يوم توفي أحد أخصّاء السلطان، فسار بكير افندي في جنازته. وفي الطريق الى الجبانة، أمر بايقاف النعش وبوضعه على الارض، وهناك رفع الغطاء عن رأس الميت وهمس بكلام في أذنه، ثم أمر باستئناف السير ... وبلغت القصة مسامع السلطان فاستدعى بكير افندي وسأله عن الحكاية، فأجابه قائلا: يا جلالة السلطان، ان الذاهب حديثا الى الآخرة تتكاثر عليه الأسئلة ممن سبقوه، عما اذا كان قد شاهد أية علامات تدل على اقتراب الساعة، لأنهم يتحرقون شوقاً لاقتراب ذلك اليوم. وقد أحببت أن أسهل الأمر على فقيدنا وأحمّله البشرى الى دار الآخرة، فهمست في أذنه قائلاً: اذا سُئلت عن قيام الساعة وعلاماتها، فقل انها قد اقتربت حتماً، ودليلي على ذلك ان بكير أصبح شيخاً للاسلام!!

وسعيت في جدة للالتقاء بالشيخ محمد نصيف، فزرته في منزله مرتين، واستقبلني في غرفة استقبال واسعة في الطابق الثاني، كان الشريف حسين بن علي يجلس فيها ويستقبل زائريه، حينما كان يأتي من مكة الى جدة. وقد حدّثني عن الحسين وعن أشخاص آخرين عرفهم من طراز الشيخ رشيد رضا وعزيز علي المصري.

ومن جملة ما رواه الشيخ محمد نصيف ان امير الحجاز الشريف عون الرفيق كان غريب الأطوار. وقد ظهرت في الحجاز معارضةٌ لسوء ادارته، وكتب المعارضون شكاوى بحقه للسلطان، فأرسلت الحكومة لجنة تحقيق برئاسة أحمد راتب باشا. وبادر الأمير الى كسب جانب الباشا، فأرسل اليه صرةً تحتوي على ستة آلاف ليرة ذهباً، حال نزوله من الباخرة في جدة. وكانت النتيجة ان الباشا كتب تقريراً يبرىء الأمير من التهم التي أُسندت اليه.

وسألت الشيخ: وهل قبل الباشا صرة النقود؟

فأجاب ضاحكاً: قبلها فقط؟ لقد عمد الى عدّها واحدةً بعد أخرى، ليتأكد ان الصرة تحتوي على المبلغ كاملاً!

وأُتهم الشريف حسين بأنه كان وراء تلك الشكاوى، فصدر الأمر بنفيه الى استانبول.

مؤتمر الملك عبدالعزيز

بعد تسعة عشر عاماً عدت ثانية الى الرياض، للاشتراك في مؤتمر دولي عملت جامعة الامام محمد آل سعود على عقده في الشهر الأخير من عام ١٩٨٥. كانت الدعوة وصلتني قبل ذلك بأشهر، فكتبت بحثا عن مراسلات دارت بين الملك عبدالله والملك عبدالعزيز، واستدللت من تلك المراسلات على ما كان يتمتع به كلاهما من واقعية وحنكة سياسية، وما كان من اهتمام كل منهما بمصلحة بلاده وقومه.

وفيما بعد تأكدت ان المسؤولين عن المؤتمر عقدوا العزم على عدم التعريض بأحد ممن كانت بينهم وبين الملك عبدالعزيزخصومة، وبخاصة الأشراف. ومن ذلك المنطلق شُطبت عبارات هنا وهناك من بعض الأبحاث، بل ان بعض الأبحاث لم يتم قبولها ـ لهذا السبب على الأرجح. كان واضحا من ذلك انه لا بأس من الاشادة بالملك وبيان مآثره، ولكن لا يجوز التعريض بالآخرين.

أول ما يلاحظ المرء هنا ان المجتمع مجتمع رجال، والتطور العمراني الكبير الذي شهدته مدينة الرياض، رافقه تطور لا بأس به في التعليم ـ تعليم الرجال.

واطلعت على النص المطبوع من البحث الذي كنت بعثت به للجامعة الداعية للمؤتمر، ولدى التدقيق والمقارنة تبين لي ان المسؤولين حذفوا منه مقاطع وعبارات دلتني على رغبتهم في الابتعاد عن أي موضوع يثير الحساسيات. وقد شمل الحذف إشارةً مني الى حركة ابن رفاده، والى معاملة الأشراف في الحجاز، والى النداء الذي وجهه ملوك العرب عام ١٩٣٦ الى أهل فلسطين، لفك الاضراب، والى لجوء رشيد عالي الكيلاني الى ابن السعود.

كان البرنامج حافلاً بالمحاضرات. جلسات طويلة قبل الظهر وجلسات طويلة بعد الظهر. ولا شيء غير ذلك الا الاقامة في الفندق وتناول وجبات الطعام. في الأقطار الأخرى التي زرتها واشتركت في مؤتمراتها واجتماعاتها، كانت هناك مجالات أخرى للترويح عن النفس وللاطلاع على معالم تاريخية وثقافية وعمرانية. ولكن هنا لا شيء على الاطلاق: لا موسيقى، لا مسرح، لا غناء، حتى ولا أماكن أثرية.

الدكتور فارس الفايز كان واسطة التعارف مع الامير الدكتور تركي بن محمد بن سعود الكبير، أحد كبار المسؤولين في وزارة الخارجية. كانت رسالة الامير للدكتوراه بحثاً من بحوث التاريخ، فلا عجب أن يطول الحديث بيننا حول التاريخ وأحداث التاريخ.

بعد ظهر اليوم الذي انتهى فيه المؤتمر لم يكن هناك أي عمل. طلبت من المشرفين على تسيير المؤتمر والاهتمام بالمشاركين، ان يتيحوا لي فرصة التجوال في المدينة لمشاهدة معالمها. وصدرت التعليمات لسائق ان يأخذني في جولة. كان السائق شاباً في نحو الخامسة والعشرين من العمر، الا انه كان شديد السمنة (من كثرة الأكل بطبيعة الحال) حتى ليكاد عرض بدنه يوازي طول قامته. أخذ مقعده وراء مقود السيارة وهو يلهث. دار بضع دورات في شوارع غير بعيدة عن الفندق. بعد نصف ساعة رأيته يقف بي أمام الفندق. قلت له: ماذا جرى؟ أريد الذهاب الى الشوارع الرئيسية وبعض المعالم المهمة في المدينة. قال: الشوارع متشابهة، فلماذا تتعب نفسك؟ واستسلمت لقدري ورضيت من الغنيمة بالاياب.

على ان اشتراكي في هذا المؤتمر أفادني من حيث لم أكن أحتسب، فقد التقيت في اثناء انعقاده بعدد من أساتذة الجامعات الاميركية، وحدثني أحدهم (من جامعة كولومبيا في نيويورك) ان دائرته تنوي عقد مؤتمر عن بعض جوانب تاريخ العرب الحديث، وانه يحب ان يدعوني لتقديم بحث لهذا المؤتمر. أبديت استعدادي للاستجابة، ولم ألبث بعد عودتي الى عمان ان تلقيت الدعوة وتفاصيل الموضوعات المطروحة للبحث .وبالنتيجة عُقد المؤتمر بعد سنة من مؤتمر الرياض، وأسعف الحظ فأشتركت فيه.



مؤتمر تاريخ الملك عبد العزيز - الرياض ١٩٨٥

اساتذة سعوديون، ويبدو هنا الامير الدكتور تركي بن محمد بن سعود الكبير (الثاني من اليسار) والدكتور فارس الفايز والمؤلف.

تونس الخضراء

سعدى! سعدى! ماذا فعلت بأبيك وأهلك يا سعدى؟

وبينما كانت الطائرة تحلّق في الجو، ويشقّ جناحاها عباب الفضاء، تارةً فوق الغيوم، وأخرى تحتها ـ ظل ذهني مشغولاً بسعدى بنت السلطان، الصبية الجميلة التي أعماها الهوى، وسلب العشق لبّها، فلم ترحم أباها الزناتي خليفة، ولم تشفق على وطنها. كان همها أن تنقذ فارس بني هلال مرعي، ابن السلطان حسن، الذي استولى حبّه عليها وغمرها وأضاع رشدها. سعدى ، سعدى! ماذا فعلت بمدينتك تونس وماذا فعلت بأبيك السلطان؟!

كانت قصص بني هلال تعيش في ذهني منذ أن كنت في العاشرة. ربما قبل ذلك. وكانت القصائد يتغنّى بها ابن عمي، بصوته الجميل، تحلّق بخيالي، وتذهب بعيداً، في الرحلة الطويلة التي قام بها الهلاليون، من الحجاز شرقاً الى تونس غرباً. من بلاد القفار والصحارى الجافة الى الارض الخصيبة في تونس الخضراء. ولكن كل القصص تبهت وتذهب مع الريح، الا قصة سعدى مع ابيها. يا لها من مأساة رائعة مروّعة. هل في أساطير اليونان القديمة ما يماثل هذه التراجيديا الملحمية! هل يلد رحم الزمن يوما ذلك الفنان العبقري الذي يكتب قصة سعدى ومرعي والزناتي، يكتبها مثلما كتب شكسبير قصة القائد المغربي عطيل وحبيبته ديدمونة؟!

الرحلة الى تونس كانت حلماً من الأحلام البعيدة. ولكن في صيف ١٩٧٠ تحقق الحلم البعيد. لسوف ألتقي بالزناتي بين التونسيين الذين ستطالعني وجوههم. ولا بدّ ان ألتقي بسعدى وأسألها ألف سؤال وسؤال. سوف أستمع في إحدى السهرات الليلية الى القصائد الحماسية، والى ذلك الفارس الهلالي وهو يصرخ «لا بدّ من لطمة على باب تونس».

وتصّعد الطائرة. وتطل أنت من النافذة لترى معالم الأرض وهي تصغر وتتضاءل كلما زادت الطائرة من ارتفاعها. يا له من مشهد رائع. الغيوم تملأ صفحة الفضاء، فتبدو أعاليها كجزائز الصوف الناصعة البياض، كأنما هي قمم جبال كستها الثلوج. وتلامس الطائرة سطح الغيوم، فيبدو لك كأنها تجلس عليها القرفصاء. ولكن الطائرة تظل تتحرك الى الامام بينما تتراجع الغيوم الى الوراء. وعندما تبلغ البحار العالية، ترى صفحة الماء بلون الرصاص المذاب. عظيمة هادئة رهيبة الى حدّ الرعب. تحس أكثر وأكثر انك معلق بين الأرض والسماء. وحينما تقترب من البحر، وتقترب أكثر فأكثر، يصبح لون الماء أخضر كالحشيش، حتى لترى تجعدات الماء التي تصنعها الريح، فتتذكر المعتمد وجاريته الذكية، وتردّد

معهما:

نَسَجَ الريحُ على الماءِ زردْ
يا له درعاً منيعاً لو جَمُدْ

الجانب الشمالي من تونس المتصل بالبحر، حديقة غناء تكسوها الأشجار اليانعة، أشجار الزيتون وكروم العنب. هذا الجمال الطبيعي جعل من تونس منطقة سياحية يقصدها الأوروبيون لقضاء اجازاتهم على شواطئها النظيفة حيث الهدوء والطقس المعتدل والشمس والمناظر الخلابة. هنا ايضاً يجد السائح حرية لا تقل عن الحرية التي يجدها في اوروبا، فالسياح يسيرون على الشواطيء بملابس الاستحمام، دون ان يلقوا مضايقة، بل دون ان يبحلق أحدٌ فيهم أو يوجه نحوهم نظرات الاستهجان. التونسيون اعتادوا على هذا من طول مخالطتهم للأوروبيين.

كانت اقامتي وزميل الرحلة المرحوم محمود العابدي في المركز الثقافي في بلدة الحمامات. وكان من فضل مضيفنا الطاهر قيقة انه نظّم لنا (المشتركون في الملتقى الثقافي) رحلة يوم واحد زرنا خلاله مدينتي سوسة والمناستير على الساحل، ومدينة القيروان في أعماق الداخل. هنا شاهدنا من الآثار العربية الاسلامية ما أدهشنا. من ميناء سوسة انطلق أسد بن الفرات لفتح جزيرة صقلية. والسور المتين البنيان العالي الأركان بناه الأغالبة لردّ عادية الغزاة النورمان. وفي شوارع سوسة الضيقة تذكرنا شوارع القدس القديمة. ووقفنا في المناستير والقيروان نتأمل السورين الضخمين اللذين يعودان كذلك الى أيام الأغالبة.

وترى في كل مدينة حصناً حصيناً يطلقون عليه اسم (رباط)، وقد صُمّم على هيئة القلاع من أجل ان يصمد للحصار. استدللنا من ذلك ان العرب المسلمين في تلك الأقطار ظلوا يواجهون خطر الغزو عشرات، بل مئات السنين. ولذلك وطّنوا أنفسهم على فكرة الدفاع، وأقاموا الحصون والقلاع، مما لا مثيل له في سوريا والعراق وشبه الجزيرة العربية. وزرنا المسجد الجامع لعقبة بن نافع في القيروان، وشاهدنا الساعة الشمسية القديمة في صحنه الفسيح، ثم صعدنا الى الطبقة العليا من مئذنته الضخمة المربعة الأضلاع، ومن هناك أشرفنا على المدينة التاريخية التي ظلت عاصمة لأقطار المغرب عشرات السنين، وانطلقت منها الغزوات لفتح بقية تلك الأقطار حتى شواطيء الأطلسي.

الفرق واضح في تونس بين الساحل والداخل. فبينما منحت الطبيعة الكثير من عطاياها للمنطقة الساحلية، فانها لم تجد على منطقة الداخل الموغلة جنوباً في بعدها، الا بالقليل القليل. وترى الفرق في الناس أيضاً. فبينما ترى أهل الداخل أقرب ما يكونون الى الريف والفلاحة والبداوة، ترى أهل الساحل وعليهم طراوة

المدنية، بل انك ترى كثيرين منهم يتحدثون بالفرنسية ويسلكون مسلك الافرنج في حياتهم. وقد قرأت في احدى الصحف التونسية انتقاداً لشبان وشابات يتجولون في الحدائق وهم يتأبطون سواعد بعضهم البعض ويجلسون متلاصقين ويتعانقون غير آبهين ... فأدركت مدى قوة التأثير الأوروبي. ودُعينا ذات ليلة لمشاهدة مسرحية (أقفاص وسجون) لفرقة علي بن عياد التابعة لبلدية تونس، فلاحظت انها تتضمن أحاديث ومشاهد ذات طابع جنسي. وبعد انتهاء المسرحية دُعينا الى قاعة خلفية للتعرّف على الممثلين، وهناك أخذ البعض منهم يرتلون المدائح النبوية والموشحات الدينية مع مصاحبة الآلات الموسيقية. وبعد ذلك دعا ابن عياد فتاتين من حسناوات فرقته، فرقصتا رقصات رائعة على أنغام الموشحات.

بدا لي أن التونسيين أقل سفسطائية من العرب المشارقة، وأكثر ميلاً الى الجوانب العملية منهم الى الجوانب النظرية. وحدثني من عرفهم عدة سنوات أن كثرتهم الغالبة تثبت على مبدأ واحد، فهم لا يكثرون من تقليب الأمور على عدة وجوه، بل يأخذون بالوجه الذي يعتقدون بصوابه ويثبتون عليه.

وتلقى الثقافة والفنون الجميلة رعاية وتشجيعاً من الحكومة والمجالس البلدية. وتقدم الحكومة للدار التونسية للنشر اعانةً سنوية تتيح لها مجال نشر الانتاج الجيد للكتّاب والأدباء والشعراء.

قضايا المسرح

كانت الندوة التي اشتركنا فيها، تناقش قضايا الخلق المسرحي، ومن جملتها قضية الحوار: هل تكون بالفصحى أم بالعامية؟ أدهشني ما جاء في أقوال بعض الزملاء المغاربة انه توجد في المملكة المغربية أكثر من ألف فرقة من فرق الهواة المسرحيين، وان في مدينة الدار البيضاء وحدها ما لا يقل عن ١٣٠ فرقة هواة . وقد تساءل أحد المشاركين الأجانب عن الأسباب التي تجعل العرب يحتذون الطريقة الأوروبية التقليدية في جعل المواسم المسرحية تبدأ في أوائل فصل الشتاء، بينما الفصل الأنسب في بلاد العرب هو فصل الصيف، حيث يمكن عرض المسرحيات في الهواء الطلق في مسارح مفتوحة، كالمسارح التي أنشأها الرومان، وحيث تتاح الفرص لجماهير كبيرة من الناس لمشاهدة المسرحيات بأسعار زهيدة. ومما قيل ان الدول في شمالي افريقيا تدعم النشاط المسرحي بسخاء.

والتقينا بالطيب الصدّيقي، الفنان المغربي الذي يجمع بين عدة هوايات كالنحت والرسم والتأليف والاخراج المسرحي. وهو يعيش حياةً تماثل حياة (الهبيين)، فتراه بلحيته ذات السوالف وشعر رأسه الكثّ وصدره المفتوح تتدلى عليه قلائد الخرز والتعاويذ، مع صدرية ذات ألوان براقة فاقعة مزركشة بالنقوش، فيبدو لك كساحرٍ من سحرة القرون الوسطى. ولهذا الانسان من شذوذات أهل الفن ما لا

يستطيع الكاتب أن يسجله على الورق.

ودار جدل واسع حول اللهجة الفصحى واللهجة العامية في الحوار المسرحي، وكان لكل لهجة أنصار أيدوا وجهة نظرهم بحجج وبراهين متعددة. والحقيقة انني قدمت بحثاً في الملتقى حول هذا الموضوع، أبديتُ فيه تخوفاً من ان يؤدي طغيان اللهجات العامية المحلية الى توسيع شقة التباين بين الأقطار العربية، لان لكل قطر لهجته العامية الخاصة به، ولان أهل بعض الأقطار لا يستطيعون فهم اللهجةَ المحلية السائدة في هذا القطر او ذاك. ثم أعطيت مثالاً من أحد أعداد مجلة (الفكر) التونسية (شباط ١٩٧٠) لقصةٍ كُتبت بمزيج من الفصحى والعامية، وتتضمن تعابير لم أستطع فهما لها:

''الزقاق المتلعوس. طابية متدلهسة. الفيران المتناقزة موزوزة. لكلك بعض أوراقه. تكركب. قيدون كرهبة. طرطوشة لسانه. الكعلف. يفنفن. الفيتاس. الأرياط. زريط بقرجومته. أدباش. حلومة الهجالة تبشبش. الزرزومية. تحلجز. الماء الشايط المنزوس. متباوعاً يتمايح موحوحاً كأنه مريض بالشهلب. تخلوض. طبس. البباصة...''.

وأعطيت مثالاً من شيء كتبه الشاعر أنسي الحاج بالعامية اللبنانية:

''كان فيه شاب لابس كنزة قبتها عالية، حاطط ايديه عاخصر الصبية. الشعر أشقر عسلي. شاقلتوا من ورا ونازلة خصل متوع جهة الشمال، وهيي ايديها عاكنزتو، تحت دقنو، عيونو عاشفافها وعيونها سعيونو، وبين وجّا ووجّو الله فاتح طريق. حد منن شجرة يلعبوا حولها الزغار اللي بكرا راح الله يفتح كل الطرقات قدامن...''.

كما أعطيت نموذجاً من الشعر البدوي في بلاد الشام:

يا عقابْ اركب فوق ساجوج مهذّابْ نظوِ سبتري ســوسحاني فريــدِ
أسرع من الدولاب لن ساب أو ثابْ اكشف خبر مـحــبوب عيني واريــد
كل ما غشيت مراح أو جيت مرقابْ لجوح جوح الذيب واعضّ بـــــيدي
انهف والوح وأقطر الدمع سكّابْ عصويحبي اللي راح ما هو عن ايدي

هذا بالاضافة الى نموذجين من مسرحيتين باللهجة العامية في مصر.

الحبيب بورقيبة

بعد ست سنوات عدت مرةً ثانية الى تونس (آذار ١٩٧٦). وكانت المناسبة دعوة الحكومة التونسية للاشتراك في بحث مشروع لحفظ حقوق المؤلف. وقد أُتيح لي

ولزملائي مجال زيارة الرئيس الحبيب بورقيبة في قصره بقرطاج. وهذا القصر يقوم علي سفح رابية تتصل بخليج تونس، فترى من هناك بلدة ابوسعيد والتلال الشرقية للجانب الآخر من الخليج. وتحيط بالقصر الابيض الاشجار الخضراء من جهة والبحر من جهة ثانية. وتبدو غير بعيد من القصر آثار قرطاجة التي تحدّت جبروت روما ووقفت في وجهها. وهكذا تمتزج معطيات الحاضر بذكريات الماضي، وترى في أبهاء القصر لوحات لعدد من البايات الذين حكموا تونس قبل ان تتحول الى جمهورية. والقصر رائع العمارة، تزدان قاعاته وأبهاؤه وسقوفه من الداخل باللوحات والرسوم والنقوش البديعة. وبين اللوحات واحدة كبيرة تمثل الاستقبال الشعبي للحبيب بورقيبة عند عودته من المنفى في عام ١٩٥٥. ولم يلبث ابورقيبة ان جاء، فرأيت رجلاً متوسط القامة معتدل البنية، يبدو أصغر سناً من أعوامه الاثنين والسبعين. ولاحظت ان فكه الأسفل أكثر بروزاً من الفك الأعلى، فبدا لي ذلك دليلاً على العزم والتصميم.ثم ألقى خطاباً بالعربية، ودلّ تعثره في قراءة بعض المقاطع انه لم يطلع عليه قبل ذلك. وصافحه زميل انكليزي فقال ابورقيبة معتذراً انه لا يعرف من اللغات الا العربية والفرنسية. ثم نزلنا الى المسرح في الطابق الأول، وقال أحد التونسيين ان الحبيب مولع بمشاهدة المسرحيات ، فاذا جاءت الى تونس فرقة مسرح جديدة دعاها لاقامة عرض خاص له ولكبار رجال الدولة. وألقى زميل تونسي خطاباً حافلاً بالمدح والثناء، وعندما انتهى الرجل من تلاوة خطابه، كان ابو رقيبة أول المصفقين.

وذهبنا لزيارة مركز الحمامات الثقافي، وفي أثناء تجوالنا في الحديقة الغناء، مررنا بشجيرات صبّار، فقال أحد أعضاء الوفد الايراني: أتعلم ما اسم هذه الشجيرة في ايران؟ انه ''لسان الحماة''. قلت: لعل هذا لقب يطلقه الناس على سبيل النكتة، الا انه أكد لي ان هذا هو الاسم الحقيقي ولا اسم آخر للصبّار في اللغة الايرانية. وعجبت لهذه التسمية الغريبة التي لا أعتقد ان في لغات العالم الاخرى تسمية هجاء مقذعة مثلها.

وحدثني الشاعر التونسي ابن جدوان أن فتيات مدينة صفاقس لا يتزوجن من خارج المدينة، لكي لا يوزع إرث الأسرة على أنسباء غرباء. هنا تذكرت قول الشاعر''

بنونا بنو أَبنائنا، وبناتُنا ... بنوهنّ أبناء الرجال الأباعدِ

وسرنا في الشارع الرئيسي في مدينة تونس، فلفت نظري كثرة الكتب والمجلات الفرنسية المعروضة في الأكشاك وقلة المعروض منها بالعربية. وقيل لي عندئذٍ ان معظم الذين يقرأون هم الذين تشبعوا بالثقافة الفرنسية، حتى ان ما يباع من الصحف والمجلات الفرنسية يعادل ٧٠ بالمائة من مجموع المبيعات. ومما لاحظناه

ان مندوبي تونس والمغرب كانوا في الاجتماعات يستعملون اللغة الفرنسية، لانهم أقدر على التعبير عن أفكارهم بها مما لو تحدثوا بالعربية. وفي مناسبات أخرى لاحظت مثل هذا بالنسبة للجزائريين. وهذا طبعاً من تأثيرات الاستعمار الفرنسي.

لمست هنا أكثر من أي وقت مضى، أهمية اللغة كعنصر من عناصر القومية، اذ لولا اللغة العربية لاحتاج العربي في تونس (وفي الجزائر والمغرب ايضا) الى ترجمان. ذلك ان العربي المشرقي لا يستطيع ان يفهم اللهجات المحلية، وكثرة ما فيها من كلمات غريبة.

ولا يفوتني أن أذكر هنا انني في هذه الرحلة سعيت لمقابلة الباهي الأدغم رئيس وزراء تونس الأسبق، والذي كان له دور في الأردن في عام ١٩٧٠، حينما انتدبته الدول العربية للقيام بمهمة التوفيق بين الحكومة الأردنية ومنظمات الفدائيين. وقد تم لقائي به عن طريق صديقي الدكتور عبدالجليل التميمي. وفي عام ١٩٨٠ عدت للقائه مرة ثانية، فألفيت الرجل في وضع عسير، بسبب التضييق الذي فرضه عليه الرئيس الحبيب بورقيبة، على الرغم من خدماته الطويلة والجليلة لتونس. وبهذه المناسبة أذكر أن بعض الناس في الأردن (الشرق أردنيين على وجه التخصيص) لم تعجبهم أساليب الباهي في قيامه بمهمته، وخُيّل لهم انه يحابي المنظمات، فصحّفوا اسمه تصحيفاً يدل على ما كان يساور نفوسهم من مشاعر، فأطلقوا عليه اسم "الباغي الأدهم"!!(١)

الثقافة في العالم

أورد نائب المدير العام لمنظمة اليونسكو، في خطابه في الملتقى، احصاءات عن انتاج الكتب في العالم ونسبة قراء تلك الكتب. وتعطي هذه الاحصاءات دلالة على مراكز الثقل في العالم بالنسبة للعلم والثقافة. ففي عام ١٩٧٢ نُشر في العالم ٥٦١ ألف عنوان، كان صدورها على النحو التالي:

في اوروبا	٣٢٨ر٠٠٠ عنوان
في آسيا	١٠٩ر٠٠٠ عنوان
في امريكا الشمالية	٩٥ر٠٠٠ عنوان
في امريكا الجنوبية	١٧ر٠٠٠ عنوان
في افريقيا	١٠ر٠٠٠ عنوان

١ - يبدو أن الناس يلجأون أحياناً الى التصحيف وضرب الأمثال للتعبير عما في مكنونات نفوسهم. ففي الأيام التي أمضاها الباهي الأدغم في عمان، كنا نشاهد على جدران المنازل والأسوار، كتابات ضخمة الحجم، تقول "كل السُلْطة للمقاومة" وكثيراً ما كنا نمرّ ثانيةً بتلك الكتابات، فنرى ان أشخاصا آخرين عملوا على تصحيف المعنى بوضع حركتي فتح على الكلمة الثانية. بحيث أصبحت العبارة "كل السَلَطة للمقاومة".

وعند مقارنة أرقام الكتب المنشورة في كل قارة، مع عدد السكان، تبين لنا ان كل مليون انسان في ذلك العام بالذات قرأوا الأعداد التالية من الكتب:

في اوروبا	٥٢٧ كتابا
في امريكا الشمالية	٣٩٥ كتابا
في امريكا الجنوبية	٨٥ كتابا
في آسيا	٤٩ كتابا
في افريقيا	٢٧ كتابا

فرحان شبيلات وفاضل الجمالي

التقيت بالسيد فرحان شبيلات الذي كان يقيم في تونس آنذاك. وزرته في منزله، تحدث طويلاً عن الملك عبدالله وهزاع المجالي.

كما التقيت بالدكتور فاضل الجمالي، رئيس وزراء العراق الأسبق، وتحدث بدوره عن قضايا عديدة.

في الجامعة التونسية

كان من محاسن الصدف أنني التقيت بالدكتور عبدالجليل التميمي الاستاذ في الجامعة التونسية. وكنت التقيت به في طرابلس الغرب في عام ١٩٧٥. والتميمي مؤرخ نشيط يصدر وحيداً (المجلة التاريخية المغربية) التي يتمثل فيها الجهد العلمي الدؤوب والمثابرة والتكريس، وتصدر باللغتين العربية والفرنسية.

دعاني التميمي لالقاء محاضرتين في كلية الآداب في الجامعة، عن نشأة القومية العربية الحديثة (في المشرق العربي)، وأسباب قيام الثورة العربية الكبرى. ورحّبت بالفرصة المتاحة، وألقيت المحاضرتين بحضور ما يزيد على ٣٠٠ طالب وطالبة، مع وجود عدد من الأساتذة (١ آذار ١٩٧٦) . ومن المعلوم ان الدعاية الفرنسية عملت جاهدةً بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، على تشويه سمعة الحركة القومية العربية، بعد ان ناهضت تلك الحركة مطامع فرنسا الاستعمارية في سوريا. ولما كان للثقافة الفرنسية تأثير كبير عند المثقفين التونسيين، فقد ترسخ في أذهانهم اقتناع بصحة ما يقول الفرنسيون واتهامهم الحركة العربية بالتجاوب مع خطط الانكليز. ومن هنا وجدت المناسبة ملائمة لكي أقول ما خلاصته: ان العرب حاربوا الأتراك العثمانيين من أجل الفوز بحريتهم، ثم بعد انتهاء الحرب اكتشفوا أن حلفاءهم يقفون ضد أمانيهم القومية فقاتلوا الفرنسيين قتالاً بلغ ذروته في معركة ميسلون وبعدها في الثورة السورية الكبرى، وحاربوا الانكليز في العراق عام ١٩٢٠ في ثورة عارمة، وكذلك في فلسطين في ثورات متعاقبة. (دعوة التميمي هذه سبقت

أي دعوة مماثلة من الجامعة الأردنية التي أنشئت قبل ذلك بأربعة عشر عاماً، مصداقاً للمثل الدارج ''بنت العم عوراء''!).

الحكومة تنظم شعراً

وزرت السيد حسن الكايد، وزير العدل الأردني، الذي كان جاء الى تونس للاشتراك في مؤتمر لرجال الادارة. وجرّ الحديث بعضه فروى القصة التالية:

ذهبت ذات يوم في عام ١٩٧٠ وقابلت الملك الحسين، وشرحت له سوء الأوضاع الأمنية في البلاد، بسبب تدخل رجال المنظمات في أعمال الحكومة، وكيف أصبحوا هم الحكومة الحقيقية، يحكمون ويرسمون، وكيف أن معظم الأردنيين أصبحوا في ضيق عظيم ويتذمرون من الوضع القائم. بعد أن أنهيت حديثي، سألني الملك. ولماذا لا تفعل الحكومة شيئاً بهذا الخصوص؟ قلت: الحكومة تنظم شعراً يا مولاي. عندئذ ضحك الملك ضحكةً مدوية ومن أعماق قلبه. ثم لم يزد عن قول كلمتين: سوف نرى.

المعهد الرشيدي

ودعينا لحضور حفلة موشحات في المعهد الرشيدي، فاستمعنا من فرقة المعهد الى أغان من الموشحات والمالوف هزّت النفوس والأعطاف طرباً ونشوة:

بي رشأٌ تيّمنـــــــي   جارَ وقـــــد أتلفنـــي
قد سكَن القلبَ ومـــا   أحسنـــه من سكـــــن
يا بـــدرَ التمـــــامْ   في جنـــحِ الظـــلامْ
مـــا عنـك مـلامْ

هجرَ الحبيبُ وما درى   من بعدِ هجرٍ ما جـــرى
ان المحاجر بعـــــــده   منها جرى ما قدْ جـرى
إن شفّني شغفٌ فـــما   كنتُ المفـــرّد في الورى

وفي الدار المغربية بقرطاج استمعنا الى فرقة عزفت وغنّت ألحاناً من الغناء الأندلسي الرائع. وكان هناك رقص بديع أخذ بمجامع القلوب. فيا لها من ساعات أنس سمح بها القدر في غفلة من عين الزمن:

يا غصن نقا مرصّعٌ بالذهبِ   أفديكَ من الردى بأمي وأبي
ان كنتُ أسأتُ في هواكم أَدبي   فالعصمةُ لا تكونُ الا لنبي
الله أكبر ... الله أكبر



تونس ـ الحمامات ـ ايار ١٩٧٠:

الصف الأول: محمود العابدي، سليمان موسى، مصطفى الفارسي، الطاهر قيقة، يوسف العاني، هدى زكا، عبد الله عقرون

الصف الثاني: نبيل الالفي، اسعد فضة، جاك لانج، محمد عزيزة، المركيز اسكوبار.. الطيب العلج

طرابلس وبنغازي

كان أهم ما استلفت نظري، والطائرة تحلّق فوق مدينة طرابلس (تشرين الاول ١٩٧٥) كثرة الأشجار التي تحيط بها وتتخلل أرباضها، فتبدو معها أشبه ما تكون بحديقة غنّاء واسعة الأرجاء. وتتوغل المزارع - وأكثرها من شجر الزيتون - بعيداً عن المدينة الى ان تصطدم بالصحراء العريضة المترامية الأطراف. من هنا يدرك المرء ان ذلك الحزام الأخضر المحيط بالمدينة، لا يستهدف التجميل فحسب، بل مقاومة الزحف الصحراوي ايضا.

في سبيل الوطن

وعلى امتداد الشريط الساحلي بين طرابلس ولبدة (لبدة التاريخية ذات الآثار الشامخة) ترى آلافا مؤلفة من أشجار الزيتون تنوء بأحمالها. ولكن قيل ان البلاد تواجه مشكلة في قطف ثمار الزيتون والافادة منها، لان الناس أخذوا ينصرفون عن حياة الريف والزراعة الى حياة المدن وما فيها من صناعات ووظائف وأعمال حرة. بل قيل ان الحكومة تشجع موظفيها في موسم القطاف على العمل في جني الثمار، وتعطيهم مرتبات اضافية فوق مرتباتهم الأصلية، ومع ذلك لا يقبل الا عدد قليل منهم على ذلك العمل، فتضطر الحكومة عندئذ الى الاستعانة بالعمال التونسيين. وهذا من جملة ما ألحق النفط بالمجتمع من أذى.

في لبدة الكبرى آثار لا تقل في عظمتها عن آثار جرش. وهناك قصة مثيرة تُروى عن هذه المدينة وتعود الى أواسط القرن السادس قبل الميلاد (يوم كانت لبدة، واحدة من المدن التابعة لدولة قرطاجة):

كان اليونانيون قد أنشأوا مستعمرات لهم في اقليم برقة. وأصبح من الطبيعي ان ينشب الصراع بينهم وبين لبدة حول الحدود. واتفق الجانبان - بعد ان أخفق كلاهما في احراز انتصار حاسم - على تعيين الحدود بينهما سلماً. اما الاسلوب الذي لجأا اليه، فكان ان يرسل كل جانب اثنين من العدّاءين يبدآن في آن واحد، على ان يكون موضع التقائهما الحدّ الفاصل. ومثّل الجانب القرطاجني الأخوان فيليني. وجرى السباق، وكان الأخوان فيليني هما السابقين، حتى انهما قطعا ثلثي المسافة المتنازع عليها حينما التقيا مع نظيريهما. ولم يرض اليونانيون عن النتيجة واتهموا الأخوين بالخداع وبأنهما شرعا في العدو قبل الوقت المتفق عليه. وأصر اليونانيون على ان يُحلّ الخلاف على أحد وجهين: فاما ان يضحي الأخوان فيليني بنفسيهما لكي يثبتا صدق ادعائهما، أو أن يسمح للعداءين اليونانيين بالسير مسافة أبعد حتى يبلغا الموضع الذي يرتضيانه ثم يضحيا بنفسيهما.

واختار الأخوان فيليني الشرط الأول وضحيا بنفسيهما فداءً لحدود وطنهما. وقد أقام أهل لبدة نصباً تذكاريا في ذلك الموضع، تخليداً لبطولتهما الفذة، وكان يُعرف باسم ''مذبح الأخوين فيليني''.

عبدالسلام أدهم

فوجئت في طرابلس بلقاء مواطن ليبي - أردني. وما دام ان لكل انسان في هذا العالم قصة واحدة على الأقل، فان قصة عبدالسلام أدهم من القصص الجديرة بأن تُروى. وقد يكون من عناصر الاثارة في القصة، القول انه شارك في الحرب العالمية الأولى، وعانى مرارة الأسر، ثم فرّ من المعتقل في رحلة محفوفة بالأخطار، ثم قاتل ضد الطليان، ثم ذاق مرارة الاخفاق ومضى مشرّداً الى بلاد الشرق، الى ان استقر في بلدة المفرق. أما أن يتحوّل عبدالسلام بعد ذلك كله الى مترجم ومؤلف وهو في العقد السابع من عمره، فكان قمة الاثارة بالنسبة لي.

كان ابوه ضابطاً في الجيش العثماني الذي قاتل الطليان الغزاة. وعندما عقدت الدولة العثمانية الصلح مع ايطاليا، انتقل عبدالسلام مع ابيه الى استانبول، ثم تلقى تعليمه في حلب، ثم انخرط في صفوف الجيش وقاتل في ايران والعراق. وفي الحرب العالمية الأولى وقع في أسر الانكليز. وبعد ان أمضى عشرة أشهر في الأسر، أُتيحت له فرصة الفرار، فسار ماشياً على قدميه طوال ٧٢ يوماً من بغداد الى قونية. وعندما وصل الى استانبول، أعطاه معتمد الحكومة العربية السورية (علي الحنش) تذكرة سفر بواسطة القطار الى دمشق. وفي دمشق انضم الى ابيه، واشتغل موظفاً في الحكومة السورية. ثم عاد الى طرابلس الغرب، واشترك عام ١٩٢٣في ثورة ضد الطليان في منطقة (الدواخر). وبعد سنة من الجهاد والجلاد، تمكن الطليان من سحق تلك الثورة، فمضى عبدالسلام الى مصر ومنها الى شرقي الأردن، فاتخذها دار اقامة له ابتداء من أيار ١٩٢٤.

منحت الحكومة الأردنية حق الاقامة والتملك لمجموعة المجاهدين (المغاربة) الذين جاءوا الى شرقي الأردن. واتخذ هؤلاء من موقع المفرق دار اقامة لهم. لم يكن في المفرق عام ١٩٣٠ الا مبنى محطة سكة الحديد. وبدأ المغاربة ينشئون المنازل ويشتغلون بالزراعة والتجارة، الى ان ازدهرت البلدة في سني الحرب العالمية الثانية. وفي أعقاب تلك الحرب نالت ليبيا استقلالها، فشد الحنين الى الوطن معظم اولئك المهاجرين. وعاد عبدالسلام الى طرابلس عام ١٩٥٣، بعد غيبة استمرت ثلاثين عاماً.

كان من محاسن الصدف أنني التقيته في دار الوثائق الليبية، ثم زرته في منزله الحديث الذي يدل على بسطة في العيش، فقدم لي سجائر وقهوة، دون أن يمسّ أياً منها. وسألته فقال: لقد انقطعت عن شرب الشاي والقهوة منذ زمن بعيد.

- والتدخين؟

- تركت التدخين قبل ان تولد.

- قلت له انا من مواليد سنة ١٩٢٠.

- فقال: وانا تركت التدخين سنة ١٩٢٠.

- قلت: والكتابة والتأليف والترجمة. أليس ذلك غريبا؟

- كنت مولعاً بالمطالعة منذ صغري. متاعب الحياة وهمومها لم تدع لي مجالاً لممارسة الكتابة. بعد عودتي الى طرابلس لاحت الفرصة. اذ طُلبت للعمل في دار المحفوظات التاريخية، من أجل فرز الأوراق التي بقيت من أيام العهد العثماني، والتي كان الكثير منها باللغة التركية. ويعود الفضل في حفظ الأوراق الى مستشرق ايطالي أقنع الوالي بأنه لا يجوز القاؤها في البحر. ومنذ عام ١٩٦٤ وانا أعمل في فرز هذه الأوراق وفي ترجمة المهم منها الى العربية.

في عام ١٩٦٩ نُشر لي كتاب مترجم عن التركية، وهو بعنوان: الاتراك العثمانيون في افريقيا الشمالية. كما ان جامعة بنغازي نشرت كتاب (تاريخ طرابلس الغرب) الذي قمت بترجمته بالاشتراك مع محمد الأسطه.

ونشرت جامعة بنغازي أيضًا كتاباً آخر لي، وهو بعنوان (وثائق تاريخ ليبيا الحديث) وهو مجموعة وثائق معظمها مترجم. وظهر على الكتاب اسم الدكتور أحمد صدقي الدجاني الذي قام بترتيب الوثائق ومراجعتها.

وهناك كتابان آخران يشتملان على وثائق ترجمتها عن اللغة التركية، وستقوم جامعة بنغازي بنشرهما قريبا.

كنت عرفت عبدالسلام أدهم عندما كنت أُقيم في بلدة المفرق. وكم سعدت بلقائه بعد ما يقارب ربع قرن من الزمن وعلى غير توقّع أو انتظار. في الحقيقة امتلأت نفسي اعجاباً بهمته وطموحاته، اذ انصرف للنشاطات الذهنية بعد ان تجاوز الستين من العمر. ورأيته ما يزال يواصل العمل بروح متفتحة شابة، والطموحات الفكرية تتأجج في صدره. هذا المنعطف في حياته يفتح بأب الأمل أمام الذين يبلغون سن الكهولة أو يُحالون على التقاعد، ويعطي مثالاً على سعة أبواب الحياة أمام أصحاب الارادة القوية، الذين يرفضون الرضوخ لعوامل الخَوَر وبواعث اليأس.

بعد سنتين جاء عبدالسلام أدهم الى المفرق وعمان (ظل يحتفظ بأملاكه في المفرق على الرغم من عودته الى بلاده الأصلية). فوجئت به يزورني ذات يوم في مكتبي بوزارة الاعلام. قال انه على الرغم من الألم في ساقيه، فانه صعد درجات المبنى لكي يزورني تقديراً لمقالتي التي رويت فيها قصة حياته (مجلة أفكار - كانون الثاني

١٩٧٦)، وخاصة لان بناته وأبناءَه قالوا له بعد ان قرأوا المقالة انهم لم يكونوا يعرفون الا بعض ما ورد فيها.

الأطعمة الحارة

في ليبيا ـ بل في أقطار المغرب العربي كلها ـ يكثر الناس من أكل الأطعمة ذات الحرارة الزائدة. ويقدم الفندق الذي أقمت ورفاقي فيه، أصنافاً من الحساء بينها (الشوربة الليبية) وهي حساء فيه من البهارات والفلفل والشطة مقادير لا بأس بها. عندما أبديتُ عجبي لان أهل المناطق الحارة يميلون لأكل الأطعمة الحارة، قال الصديق سالم الآلوسي انه سمع تفسيرا لذلك في احدى سفراته الى الهند. قيل له هناك ان حرارة الجو تضطر الجسم الى افراز العَرَق بكثرة، وان الطعام الحار يستدعي شرب كميات وافرة من الماء، لاحداث المعادلة المتوازنة بين العَرَق الذي يفرزه جسم الانسان والماء الذي يدخل اليه، وهي معادلة يصعب أن تحدث لو ان الانسان أكل طعاماً بارداً لا فلفل ولا بهارات فيه.

وبالمناسبة روى أحد الرفاق الظرفاء القصة التالية، وهي على الرغم مما فيها من غلو ومبالغة، تعطي الدلالة على ما يستهلك الناس من كميات الفلفل في بلدان المغرب العربي:

كان عدد من الصيادين المغاربة يصطادون السمك في البحر. وهبّت ريح عاتية قلبت زورق اولئك الصيادين، فأخذوا يسبحون باتجاه الشاطيء. في تلك الأثناء ظهر حوت هائل هاجم الصيادين وابتلع واحداً منهم. وفي اليوم التالي لفظ البحر ذلك الحوت وألقى بجثته على الشاطيء. وأرادت السلطات المختصة ان تستقصي أسباب موت الحوت، فشقّ أحد الأطباء جوفه فوجد فيه الصياد. وفحص جسم الصياد وجثة الحوت، فتبين له ان الحوت مات بتأثير حرارة الفلفل الذي كان في جوف الصياد!!

سرعة وصول البرقيات

كانت الرحلة الى طرابلس الغرب بقصد الاشتراك في أحد اجتماعات الوثائقيين العرب. وقد حدث في اختتام الاجتماعات انني أُنتخبت عضواً في لجنة صياغة البيان الختامي، مما أدى لحرماني من زيارة آثار سبراطة. وقد أسفت لذلك حقاً، وخاصة لمعرفتي اليقينية ان البيانات الختامية لا يقرأها أحد ولا يعمل بها أحد.

ومن غرائب ما وقع في صدد سفري (انا والزميل مجيد غنما) الى طرابلس، ان الدكتور صلاح الدين حسن (الداعي للمؤتمر) أرسل برقية الى وزير الاعلام الأردني بتاريخ ٩ تشرين الاول ١٩٧٥، تتضمن موعد بدء الاجتماعات. ولكن البرقية وصلت الى عمان بعد عودتنا بيومين (استغرقت البرقية عشرة ايام حتى

وصلت الى عمان، واستغرقت اربعة أيام أخرى حتى وصلت من مكتب البرق في عمان الى مكتب وزير الاعلام ١٩-٢٣ تشرين الاول).

هذا المثال يكفي لاولئك الذين يضعون الحق دائما على الطليان.

الرئيس القذافي

كان للشريف فواز شرف فضل المبادرة في انعقاد أول مؤتمر لوزراء الثقافة العرب، في عمان، في كانون الاول ١٩٧٦، اما المؤتمر الثاني فقد دعت الجماهيرية الليبية الى عقده في عاصمتها طرابلس الغرب.

وهكذا وجدتُ نفسي في طرابلس الغرب للمرة الثانية (شباط ١٩٧٩). وتوافد وزراء الثقافة من مختلف الأقطار العربية. وفي يوم الافتتاح جاء الرئيس القذافي متأخراً عن الموعد نصف ساعة. وبعد ان اتخذ مجلسه في صدر القاعة، تقدم مرافقه ووضع خطاب الافتتاح أمامه، الا ان القذافي دفع المرافق بكوعه دفعةً قويةً، ثم أزاح أوراق الخطاب جانباً، وبادر الى القاء خطاب ارتجالي برزت من خلاله نقطتان رئيسيتان.

١ - الثقافة السائدة الان في العالم العربي هي الثقافة الغربية التي نقلها بادئ ذي بدء الكتّاب والأدباء المصريون، وهي ثقافة غريبة عن تقاليد العرب وتراثهم ولا تلائمهم. انها ليست "ثقافة" بل "سخافة". ومن هنا يجب التخلي عنها واهمالها والتوجه نحو خلق ثقافةٍ عربية صميمة أصيلة.

٢ - سينظر المؤتمر في برامج الاحتفال بنهاية القرن الرابع عشر للهجرة، وهو أمر حسن. ولكن الجماهيرية تعتقد ان "الهجرة" لم تكن الحدَث الأهم في تاريخ الاسلام، وان الحدَث الأهم هو وفاة النبي محمد، اذ بوفاته انقطع الاتصال بين الارض والسماء، لانه كان آخر الأنبياء وخاتمة المرسلين. وخلص العقيد القذافي الى القول: ان الجماهيرية سوف تبدأ باستعمال تاريخين هما. وفاة الرسول، وميلاد المسيح. (وبالفعل ظهرت الصحف في اليوم التالي وهي تحمل ذينك التاريخين).

واختتم المؤتمر أعماله بعد ثلاثة أيام. وبطبيعة الحال اتخذ عدداً من التوصيات. ولكن الأمر المهم ان المؤتمر لم يتخذ أي قرار ذي صفة عملية. فلم يقر البدء بالموسوعة العربية، ولا الاتفاقية الخاصة بحقوق التأليف، ولم يتخذ أي قرار بشأن رفع الحواجز على تنقل الكتاب العربي بين الأقطار العربية، ولم يقرر رفع الرسوم الجمركية على الكتب، أو الورق.

قال لي أحد ممثلي موريتانيا. قبل الاستقلال كنا نرفض الدخول في المدارس الفرنسية، وبعد الاستقلال شعرنا بضرورة تعليم أبنائنا. وحيث اننا لم نجد العون اللازم من الاخوان العرب، فقد ألفينا أنفسنا مضطرين لارسال هؤلاء الأبناء الى

المدارس الفرنسية.

على ان الجلسة الختامية للمؤتمر شهدت بادرة تكريم لعلم من أعلام الثقافة العربية، هو الاستاذ الدكتور ناصر الدين الأسد، رئيس الجامعة الأردنية آنذاك. فقد أعلن مدير عام المنظمة العربية للثقافة (اليكسو) منحه الوسام الذهبي للمنظمة تقديراً لخدماته السابقة فيها. وألقى الدكتور محيي الدين صابر خطاباً مؤثراً، فردّ عليه الأسد بخطابٍ مرتجل بلغ فيه قمة البلاغة والتأثير، واستشهد في أثنائه ببيتٍ من شعر ابن الفارض:

أشكو وأشكرُ فعله فأعجبْ لشاكٍ منه شاكر

أحسست ان ذلك التكريم لم يقتصر على الأسد، بل اتسع ليشمل بلده الأردن ايضاً.

طرابلس وشعاراتها

شاهدت في طرابلس لافتات عديدة تنتشر في كل مكان. وعلى تلك اللافتات عبارات منقولة عن (الكتاب الأخضر) الذي وضعه العقيد القذافي، ومن خطاباته. سجلت في دفتري بعض تلك العبارات:

- لا ديموقراطية بدون مؤتمرات شعبية.
- في الحاجة تكمن الحرية
- لا نيابة عن الشعب، والتمثيل تدجيل
- شركاء لا أجراء
- الأرض ليست ملكاً لأحد
- اللجان في كل مكان
- من تحزّب خان
- المجلس النيابي حكم غيابي
- سيروا وسبحوا الله
- الليبيون فقط شعب سيد
- الكتاب الأخضر للعروبة والاسلام
- الكتاب الأخضر يبشر الانسانية بعصر حرية الجماهير.

كنت أشعر وأنا أدوّن هذه العبارات أن بعضها بحاجة الى تفسير.

مهرجان عمر المختار

تولى اتحاد المؤرخين العرب الدعوة للاشتراك في مهرجان الشهيد العظيم عمر المختار (تشرين الثاني ١٩٧٩) في مدينة بنغازي. عندما أقبلنا على المطار أخذت بعض النساء الليبيات يزغردن ابتهاجاً بالعودة. شعرت بالفرح لفرحهن. وعند هبوط الطائرة قالت سيدة باكستانية كانت الى جانبي: الحمد لله. قلت: نعم، الحمد لله. كانت المقاعد ضيقة حتى أحسست كأنني في قفص. لم أجد أحداً في انتظاري، وحاولت أن أتكلم بالهاتف فقيل لي أن مطراً غزيراً هطل قبل يومين وتقطعت أسلاك الهاتف، ولم يتم اصلاحها بعد. أخذت سيارة أجرة أوصلتني الى الفندق.

عندما شاهدني الدكتور حسين أمين، أمين عام اتحاد المؤرخين العرب، قال: اذا كنت تصر على القاء بحثك فنحن على استعداد، ولكن الأبحاث كثيرة ولا يوجد وقت لها كلها. قلت له: لا ضرورة ولا إصرار. دعاني بعد الظهر لترؤس جلسة الندوة. ربما أراد تطييب خاطري. كان من توفيقي انني حلت دون وقوع صدام بين استاذ من المانيا الغربية (صديقي الدكتور هلموت مايشر) واستاذ من المانيا الشرقية (روبا). بالنتيجة كان ذلك مدعاة لسرور الاثنين، حتى ان روبا أهداني كتاباً من تأليفه (بالألمانية).

قيل كلام كثير في شجب الدول الاستعمارية. فتدخل الدكتور ناصر الدين سعيدوني (الجزائر) قائلاً: ايها الناس. لا تلقوا الذنب كله على عاتق الاستعمار، ولا تلجأوا الى أساليب التبرير. وقال الدكتور أحمد ذياب (السودان): حصلنا على الاستقلال الرسمي، اما الاستقلال الحقيقي فلم نحصل عليه. وتساءل آخر عن المستقبل وضرورة التطلع نحوه واليه. قلت: الاستعمار القديم كان غزواً بالسلاح والرجال، وهذا انتهى أو كاد. الاستعمار الجديد يتمثل في الصناعة والعلم والمعرفة. هانحن قد تحولنا الى مجتمعات استهلاكية ـ نأكل مما لا نزرع، ونلبس مما لا ننسج، ونستعمل مصنوعات كثيرة لا حصر لها، وكلها ليست من صنع أيدينا. الاستقلال الحقيقي لا يكون الا بالاكتفاء الذاتي. كل امة بأبنائها، وبما يقوم به اولئك الابناء من عمل، وما يكمن في نفوسهم من عزم. من هو القائل: الانسان أثمن رأس مال في العالم؟ وما قيمة المال اذا لم نستطع تشغيله بكفاءة؟

في المساء كنت أتحدث مع السيدة البرتين جويده، وهي استاذة في جامعة تورنتو بكندا. قالت ان الحكومة العراقية أوفدت بعد انقلاب ١٩٥٨ خمسة ضباط الى بريطانيا لكي يقدموا تقريراً عن ثروة الملك فيصل الثاني. أحد اولئك الضباط زار أهلها فيما بعد وأخبرهم ان اللجنة قدّرت قيمة ثروة فيصل في بريطانيا بـ٢٢ الف جنيه استرليني، بما في ذلك المنزل الذي كان يقيم فيه والسيارة. ومما قال ذلك الضابط: كنا عند التخطيط للانقلاب نعتقد ان فيصل يملك ملايين الجنيهات.

ومضت البرتين تقول: انها الان تقيم في منزل في كندا، وهو ملك لها ولزوجها، أفضل بكثير من قصر الرحاب وأكثر اتساعاً، وان عبدالاله لم يكن يملك ثروة خارج العراق، وان الأسرة الهاشمية كانت تعيش في مستوى رفاهية أقل بكثير من مستوى عائلات العراق الارستقراطية.

ومضى تقديم الأبحاث. لم يكن بعضها يساوي الورق الذي كُتب عليه. رأيت في وجه أحد المحاضرين صورة (مالك الحزين) التي طبعها في مخيلتي كتاب (كليلة ودمنة) وانا في العاشرة من العمر. ولكن سانتريللي الايطالي قدم بحثاً ممتازا. من حيث انه اعتمد على الوثائق الايطالية والتقارير التي كان يبعث بها القادة الطليان الى حكومتهم. قال ان سكان برقة قبل الغزو الايطالي كانوا نحو ٢٠٠ الف نسمة، قُتل منهم نحو ٥٠ الفا وهاجر عن طريق مصر نحو عشرة آلاف. أنشأ الطليان لمن بقي من أهل برقةخمسة معسكرات في أعماق الصحراء، أسكنوا فيها ٧٥ ألفاً عام ١٩٣١. وأثناء عملية التهجير هذه والتي تمت خلال ثلاثة أشهر، قُتل ما بين ١٠و١٥ ألف انسان. انتشرت الأمراض المعدية في المخيمات، وكان الناس يحصلون كل ثلاثة أيام على طعام يوم واحد. نتيجة لذلك قضى كثيرون نحبهم. اقترحت ان تتم ترجمة البحث (أكثر من ١٠٠ صفحة) الى اللغة العربية. وعدوا بذلك، ولا أدري اذا كان قد تُرجم فعلاً.

وزرنا ضريح عمر المختار وقرأنا على روحه آيات سورة الفاتحة. هناك لوحة رخام نُقشت عليها أبيات من قصيدة أحمد شوقي في رثاء ذلك البطل الكبير: هي قصيدة تهز المشاعر:

ركزوا رفاتك في الرمـــال لـــواءَ   يستنهض الوادي صباحَ مساءَ
يا ويحهم نصبوا منـــاراً من دمٍ   يوحي الى جيل الغدِ البغضـاءَ
خُيِّرتَ فاخترتَ المبيت على الطوى   لم تبنِ جاهــاً أو تلــمَّ ثــراءَ
ان البطولةَ أن تموت من الظـــما   ليس البـطولةُ أن تعبَّ المــاءَ
افريقيا مهد الأسود ولحدُهـــــا   ضجّت عليك أراجلاً ونســاءَ
والمسلمونَ على اختلافِ ديارِهمْ   لا يملكون مع المصابِ عـزاءَ

ثم امضينا يوماً في زيارة الجبل الأخضر، معقل الثورة ضد الطليان. هنا تكثر الأشجار فتكسو الجبال والروابي بحلّة بديعة تسر العيون وتنعش القلوب. وفي مدينة (شحّات) الأثرية أخذ استاذ الآثار فوزي جادالله يحدثنا عن الساحة التي كانت مخصصة لمصارعة الأسود، واستعمل كلمتين أجنبيتين، فقال الاستاذ الايراني جعفر شهيدي الذي يعرف العربية معرفة جيدة: الا يمكن ان تكون كلمة

ARENA مأخوذة من كلمة (عرين) وكلمة Gladiator مأخوذة من كلمة (الجلاد)؟

الجهاد في سبيل الله

أثار بحث الاستاذ هوبوود (الجهاد في سبيل الله) نقاشاً مستفيضاً. فقد قال إن المهدي في السودان والجزائري في الجزائر والمختار في برقة ـ كانوا مجاهدين اسلاميين ولم يكونوا زعماء قوميين. ناقش البعض هذه المقولة. سمحت لنفسي ان أقول ما يلي:

«ان اولئك القادة لم يكن عندهم تمييز وتفريق بين العقيدة القومية والعقيدة الدينية. العقيدتان عندهم تكملان بعضهما بعضا. أعتقد ان المهدي والجزائري والمختار، كانوا في الأساس زعماء قوميين، ولو كانت القوات الغازية قوات اسلامية من بلاد أخرى لقاوموها أيضاً، كلمة ''قومية'' لم تكن متداولة في القرن التاسع عشر مثلما أصبحت في أيامنا. كانت الأمم والشعوب تدافع عن أوطانها منذ بدء التجمعات البشرية. والفكرة التي يطرحها هوبوود هي ذات الفكرة التي طرحتها دول اوروبا الغازية من ان المهدي وأمثاله من الزعماء الوطنيين كانوا يقاومون الغزاة الاوروبيين بدافع من التعصب الاسلامي ضد المسيحيين. كانوا يطرحون هذه الفكرة ويذيعونها حتى يتحاشوا القول ان اولئك الزعماء كانوا يقاومون الغزاة المعتدين، لانهم غزاة معتدون وليس لأنهم مسيحيون، وان تلك المقاومة كانت تنبع في أساسها من العزم والتصميم على ردع المعتدين أكثر مما كانت تنبع من معين تعصّب ديني».

أيد هذا الرأي أساتذة كثيرون من بينهم الاستاذ جعفر شهيدي (جامعة طهران)، وتلقيت في أثناء النقاش رسالة من الاستاذ سليمان العيسى قال فيها:

«كان تعليقك الان رائعاً. بطولات هؤلاء الأبطال القوميين ما تزال تحارَب بكل وسيلة ممكنة، كي لا تبدو على حقيقتها القومية العميقة، وهي بعث هذه الشعوب المقهورة وعودتها الى الحياة. وليس من الضروري أن يكون عمر المختار والأمير عبدالقادر أو غيرهما منظّرين قوميين بالمعنى الحديث كي ينتفضوا ويعبّروا عن أعماق أعماق امتهم المقهورة...».

في اليوم الأخير من المهرجان ألقى الشاعر سليمان العيسى قصيدة نظمها في ذكري عمر المختار. قدّم للقصيدة بكلمات مؤثرة قال فيها انه عرف لأول مرة باستشهاد المختار من جريدة جاء بها والده الشيخ أحمد، وكان هو صبياً يومذاك في العاشرة من عمره، قبل ان يُضطر الى الهجرة من قريته الصغيرة في لواء اسكندرونة. قوبلت قصيدة العيسى بتصفيق تكرّر مرات ومرات. أخذ زميلنا جعفر الخليلي يستعيده بعض الأبيات (كعادة اخواننا العراقيين من فرط حبهم

للشعر)، الا ان العيسى اعتذر بأن أوتار صوته لا تساعده على ذلك.

دمك الطريقُ ... وما يزالُ بعـــــيدا   علّقْ برمحك فجرنا الموعــودا
دمك الطريق ... ولو حملنا وهجـــه   أغنى، وأرهب، عُـــدّةً وعديـدا
دمك الطريق ... فما تقول قصيــدةٌ؟   أنت الذي نسخَ الخلودَ قصيدا.
يا فارس السبعين ... تخضرّ الذرى
تتشامخ الواحات ... تنتفض القرى
تهب الإناخة والسرى
طعم الرجولة ... كلما   عبقت بذكراك الطريق ... ودمدما

وكان هناك شعراء آخرون من بينهم الدكتور صفاء خلوصي، الذي ألقى قصيدة حفرت في ذاكرتي منها ثلاث كلمات: فقد تساءل عن ماهية (المجد) وأصله وفصله، ثم أجاب بحزم وتوكيد «إن المجد ليبي»!

حديث في الشعر

سليمان العيسى يعتقد ان المتنبي أعظم شعراء العرب. وقفنا نتأمل أبيات شوقي على لوح الرخام. قال ان نظم الشعر العمودي أصبح مسؤولية كبيرة على الشعراء في عصرنا الراهن، بسبب الحاجة الى التجديد، وحتى لا يقع الشاعر عن صهوة جواده. تأمل يا رعاك الله، بيت شوقي:

في ذمةِ اللهِ الكريمِ وحفظه   جسدٌ ببرقةَ وُسّدَ الصحراء

صدر البيت عادي مبتذل، ولكن عجزه يحمل صورةً شعرية رائعة من طراز الشعر الذي يمتطي صهوة الجواد. هنا ذكرت مطلع معلقة امرئ القيس:

قفا نبك من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ   بسقط اللوى بين الدخولِ فحوملِ

فالشاعر الذي بلغ الذروة في صدر البيت، اذ وقف واستوقف وبكى واستبكى ـ هبط في العجز الى تعداد اسماء أماكن عادية، شأن من يذكر أسماد أزقة في أحد الأحياء.

تذكر العيسى عندئذ انه كان يسهر ذات ليلة صيف على سطح أحد فنادق عمان، فأعجبه منظر المدينة فنظم قصيدة استهلها بقوله:

نشرتْ شعرها على القممِ السبعِ   وقالت: انا الجمال الأصيلُ

قلت: بيتك هذا يذكرني ببيتين للمهلهل:

طفلةٌ شثةُ المخلخل بيضاءُ لعـوبٌ، لذيذةٌ في العنـاق

رفعتْ نحرها الي وقالـت يا عدياً، لقد وقتك الأواقي

قال العيسى: هذا مما نظمه الشعراء في أواخر العصر الأموي أو أوائل العصر العباسي، لان فيه من الرقة ما يبعده فراسخ عن خشونة شعر الجاهلية.

وانضم الينا الاستاذ جعفر الخليلي، فقال انه ترجم عن الفارسية البيتين التاليين:

إن يمتْ من مشايخ الدين شيخٌ نبتت وردةٌ مكان الفقيدِ

وقياساً فان يموتوا جميعـاً تغدُ ايران جنةً من ورودِ

هنا ذكرت أبياتَ شعرٍ لأحمد محرّم كانت نُشرت في مجلة الثقافة سنة ١٩٤١ وفيها حوار يثير الاعجابَ:

تكثرين السؤالَ في الكـتبِ عني تحسبينَ الهوى سلاماً وبردا

كيف حالي؟ سلمتِ. ما حالُ صبٍ؟ هدّه لاعجٌ من الشوق هـدّا

اسلمي انت. لا يكن بك مـا بي انت لا غيرك الحبيبُ المفدّى

قال سليمان العيسى: لقد ارتفع الشعر هنا فوق صهوة الجواد مراراً وسقط مراراً أخرى. انا لا يمكن أن أستعمل كلمة «صب» في قصائدي بعد أن استنفدها الشعراء. ثم انظر الى كلمة «هدّ» ما أثقلها. ثم انظر الى عجز البيت الثالث كم هو عادي ومبتذل.

قلت: ومع ذلك فان الأبيات الثلاثة تحمل صورة وصفية رائعة.

الأشقـاء العـرب

تأخر في الحضور الى المهرجان استاذ واستاذة من السودان. والسبب عدم وجود خط طيران مباشر بين السودان وليبيا (وهما جارتان جغرافياً)، وعدم وجود خط طيران بين مصر وليبيا (بسبب القطيعة السياسية)، لذلك أُضطرا ان يسافرا الى اليونان ومنها جاءا الى بنغازي، فاستغرق ذلك أياماً. سمع الحكاية شايف عبده سعيد من اليمن الجنوبية، فقال: عندما كان اليمن الجنوبي يخضع لحكم الانكليز، لم تُقطع الحدود بينه وبين اليمن الشمالي سوى ثلاث أو أربع مرات، خلال فترة تزيد على مائة عام. اما منذ الاستقلال فلا تكاد الحدود تُفتح بين اليمنين السعيدين! (كان ذلك قبل قيام الوحدة بين شطري اليمن الشمالي والجنوبي).

الشعـــــارات

تكثر في بنغازي اللافتات الضخمة وعليها شعارات، هي في الأصل عبارات للعقيد القذافي. في كل بلد عربي عبادة الزعيم قائمة، بنسب متفاوتة. توقفت طويلا عند شعار «المجالس النيابية، تزييف للديموقراطية»، وعند شعار«في الحاجة تكمن الحرية» وعند شعار «اللجان في كل مكان»، لم أدر كيف أفسر ذلك.



هامبورغ - ١٩٨٢:

المؤلف مع نجدة فتحي صفوة والكساندر شولش

المغرب والجزائر

عندما أطللتُ لأول مرة في حياتي على المحيط الأطلسي، وأنا أقف على شاطيء مدينة الرباط، بصحبة الاستاذ فايز الربيع - عدت بذهني الى عقبة بن نافع، الذي دفع جواده للخوض في مياه ذلك المحيط، ربما في نفس الموقع الذي كنت أقف فيه. أية مشاعر تضطرم في النفس في موقفٍ كهذا؟ وعلى امتداد البصر ترى الأمواج الصاخبة تتلاطم فوق الصخور، في حركة دائبة لا أول لها ولا آخر .... وعندما عبرت بي الطائرة فوق مضيق جبل طارق، الى البر الأسباني، غير بعيد عن مدينة طنجة، جاشت الذكريات في نفسي وأنا أشاهد غابات الشجر الكثيفة في الجانب الآخر. ذكرت عندئذ أبيات فوزي المعلوف:

غرنـاطـــةٌ، أواه ، غرناطـــةٌ　　　لم يبقَ شيءٌ لك من صولتكْ

ما نهركِ الجاري سوى أدمعٍ　　　تبكي على ما دال من دولتك

في الرباط تزور معالم المدينة القديمة التي تناوح المدينة الجديدة. وتطل على نهر أبو رقراق، وتقف في الساحة الواسعة لمسجد حسّان القديم، وترفع بصرك نحو مئذنته المربعة الأضلاع، ثم تنتقل الى ضريح الملك محمد الخامس في طرف تلك الساحة. هنا ترى روعة الفن المدهشة. تراها تتجلى في القبة والأعمدة والأبهاء، في زخارف المحاريب والجدران. آيات رائعة من الفن ابتدعتها يد الانسان، واللوحات المصنوعة من خشب الأرز ومن الفسيفساء. يا لها من جوهرةٍ نادرة من جواهر الفن في أسمى ملامح سحره وفتنته.

صرحٌ عظيم لتخليد ذكرى ملكٍ عظيم.

ابتكارات الأخضر غزال

كنت وزملاء لي نزور المغرب (كانون الاول ١٩٧٨) للاشتراك في ندوةٍ عن وسائل النشر. وفوجئت بأن الاستاذ أحمد الأخضر غزال، ابتكر طريقةً جديدة (الطريقة العربية المعيارية)، وبدا لي ذلك الابتكار المدهش نوعاً من ثورةٍ علمية متقدمة. لقد أدّى العمل الدؤوب الذي كرّس هذا العالم المغربي الجليل سني عمره، من أجل البلوغ به الى حدّ الكمال - الى ابتداع حروفٍ وحركات جديدة للطباعة العربية، تخفّض عدد أشكال الحروف والحركات التي نستعملها من نحو ألف شكل الى ١٠٧ أشكال فقط. كان واضحاً ان وضع هذا الابتكار المدهش موضع التنفيذ في بلاد العرب، أو حيثما تُستعمل اللغة العربية، سوف يؤدي الى توفير هائل في الوقت وفي النفقات. وقد بلغ من اقتناع الملك الحسن بالابتكار، ان الحكومة المغربية

أصدرت أنظمة وقوانين تحتم استعمال الطريقة المعيارية، خطوة إثر خطوة. ولكن لا يكفي أن يتبنّى قطرٌ عربي واحد هذه الطريقة، لان المؤسسات الصناعية الكبرى التي تصنع آلات الطباعة وحروفها، لا بدّ أن تجد سوقاً واسعة، من أجل أن تقتنع بالتحول من صنع الحروف الطباعية القديمة (التي تقارب ألف شكل) الى صنع آلاتٍ جديدة للطباعة بواسطة الحروف الجديدة التي لا تتجاوز ١٠٧ أشكال. وعندما زرنا مدينة فاس في أثناء انعقاد الندوة، وشاهدنا المطبعة الصغيرة التي تم تطويرها للعمل بالطريقة المعيارية، أدركنا مدى أهمية الابتكار وأهمية تطبيقه.

كان السفر بالطائرة الى المغرب في الذهاب عن طريق باريس، وفي الاياب عن طريق مدريد وأثينا. وفي هذا دليل على استقطاب القارة الأوروبية لحركة السفر الجوي بين أقطار شرقنا العربي وأقطار الشمال الافريقي. وتبيّن لي أن الأحد هو يوم العطلة الأسبوعية هناك. وقد قيل إن الضرورات الاقتصادية حتمت ذلك، بسبب العلاقة الوثيقة مع اوروبا في مجالات التجارة والمال والاقتصاد.

وفي معهد الدراسات والأبحاث الذي يديره الاستاذ غزال، عرفنا ان العمل الدائب يجري للبحث عن الكلمات العربية التي تلائم التسميات الافرنجية. قيل لنا إن المصطلحات الجديدة التي تظهر في عالم الغرب تقارب ٧ آلاف مصطلح كل سنة. والطريقة المثلى للسيطرة على هذا الفيض المتدفق هو تخزين الكلمات في بنك الكتروني.

التقيت في الرباط بالاستاذ الشيخ محمد الفاسي الذي كان تجاوز السبعين من العمر، وله في المغرب مكانة كبيرة من التقدير والتوقير. وحدثني الفاسي عن انه زار ٨٦ قطراً في القارات الخمس (بعضها أكثر من مرة)، وكان رئيساً لجامعة محمد الخامس. كان اللقاء في حفل عشاء، قُدمت لنا فيه أصناف مغربية تقليدية، ولكن مضيفينا ـ بخلاف أهل الشرق ـ قدموا لنا طبق الباستيلا أولا، وهو حلوى يصنعونها من رقائق الخبز المحشو باللوز والمكسرات ولحم الطيور وتحتوي على عشرين صنفاً من التوابل والبهارات. اما طبق الكسكسي الشهير فقد جاء بعد ذلك. وكان جلوسي على المائدة بين الشيخ الفاسي من جهة والآنسة ريشار الفرنسية (مساعدة الأخضر غزال)، وهي عانس متصابية أضفت عليها الاناقة والثقافة والتهذيب الرفيع رونقاً وجاذبية، فكان لمرحها وضحكاتها نصيب في تلطيف الجو (همست في اذني انها أخذت كأسين من الويسكي قبل مجيئها). وقد نصحني الفاسي أن آتي على قطعة الباستيلا التي وضعها النادل في صحني قائلا ان هناك مقولة دارجة في المغرب بأنه مهما كان امتلاء المعدة فان الكسكسي يجد مكاناً له فيها. ولكنني لم أكن ناجحاً في الاختبار، لان الكسكسي لم يستطع أن يجد مكاناً له في معدتي (بعد الباستيلا). وقد حدث بعد عشر سنوات انني التقيت في

عمان بالدكتور عبدالهادي بوطالب، وحدثته عما دار من حديث بيني وبين الفاسي حول الكسكسي، فضحك وقال: دعني أروي لك الطرفة التالية·

قيل لرجل: المعدة يجب أن تكون ثلاثة أقسام ـ قسم للطعام، وقسم للماء، والقسم الثالث للتنفس. فأجاب الرجل (ويظهر انه كان جائعا): انا لا اعترف بوجاهة هذه التقسيمات أو ضرورتها، وأنا أريد أن أملأ الأجزاء الثلاثة بالطعام، ذلك ان الماء يتسرب من بين الطعام ولا حاجة لترك فراغ له. اما التنفس، فأنا، إذا ملأتُ معدتي بالطعام وشبعتُ تماماً، لا ابالي اذا تنفست أو لم أتنفس!!

وفي الطريق من الرباط الى مدينة فاس، شاهدنا جزءاً من سور قيل لنا إن أحد أمراء مراكش كان أقامه بعرض مترين على طول ٧٠٠ كيلومتر، ليكون جداراً يحيط ببلاده. ولا أدري اذا كان هناك سور في العالم (غير سور الصين العظيم) يزيد عن هذا السور المغربي في طوله وعرضه. وسعدنا في فاس بزيارة مسجد القرويين الشهير الذي يُعتبر أقدم جامعة في العالم لانه يعود الى القرن الثاني عشر للميلاد، وهو يقوم على أعمدة عديدة. وزرنا ايضاً مسجد سيدي اسماعيل ذا القبة الشامخة العظيمة. ومررنا بالأسواق القديمة الضيقة التي تنتشر فيها صناعة الأواني النحاسية.

لقد بلغ من اغتباطي بتلك الرحلة، أنني أذكر بالخير دائماً الشريف فواز شرف، وزير الثقافة آنذاك، الذي حثّني على اغتنام الفرصة المتاحة، جزاه الله عني أحسن الجزاء.

بلاد عبدالقادر الجزائري

يمثل التجوال في حي (القصبة) الشهير في مدينة الجزائر، فرصةً عظيمة ونادرة. هنا يذكر المرء أيام الحرب الوطنية ضد المستعمرين الفرنسيين، عندما كان هذا الحي، بدروبه الوعرة الضيقة وأزقته المتعرجة ـ التي لا يزيد عرضها عن مترين، بل حتى عن متر واحد ـ معقلاً من معاقل المجاهدين. وتسرّح البصر في قصر الداي القديم، الذي يطل على البحر من مكانه المرتفع، فترى قلعةً منيعة كانت لمدافع من أبراجه العليا تصدّ بقنابلها تقدم السفن الحربية المعادية.

وفي وهران التي تبعد ٤٠٠ كيلومتر الى الجنوب من مدينة الجزائر، أشاع البهجة في نفوسنا (مؤتمر وزراء الثقافة العرب ـ ايار ١٩٨٣) طلاب المدارس من فتيان وفتيات، عندما استقبلونا وهم ينشدون عبارة «يا مرحبا بضيوفنا، يا مرحبا». جزاكم الله كل خير أيها الناس الطيبون. ومن وهران مضت بنا السيارات الى منطقة بني شعران، منطقة عبدالقادر الجزائري الشهير. هناك يقوم تمثال ضخم لذلك البطل العظيم على رابية مرتفعة تشرف على ما حولها، وعلى مقربة

بلدة (معسكر) مقر عبدالقادر ومعقله، وفيها مسجد المبايعة حيث بايعه أهل المنطقة. وزرنا منزله القديم في (سيدي قاده) حيث شاهدنا مهرجان فروسية انطلق فيه الفرسان جمهرةً متراصة على خيولهم وهم يطلقون النار. كان مشهداً من مشاهد الحروب في الأيام الخالية، هزّ مشاهرنا وأعطانا صورة حية ناطقة عن المعارك التي خاضها المجاهدون الجزائريون ضد المدرعات الفرنسية. وحدثنا الوزير عبدالمجيد مازيان، ان عبدالقادر لم يكن زعيم جهاد قومي فحسب، بل كان شاعراً ومثقفاً ومؤلفاً.

لاحظت أن الاختلاط طبيعي وعفوي بين أفراد الجنسين في الجزائر كلها. والتعليم مختلط في جميع مراحل الدراسة من ابتدائية وثانوية وجامعية، مع وجود مدارس خاصة بالأولاد ومدارس خاصة بالبنات. كما لاحظت ان الجزائريين متدينون جدا. وقيل لي انهم يقبلون على الصلاة في المساجد اقبالاً عظيما، حتى لا يجد أحدهم مكاناً يقف فيه اذا وصل متأخراً، لشدة الازدحام.

ومما ترك انطباعاً قوياً في نفسي ان الجزائريين يقومون بعمل عظيم لايقاف الزحف الصحراوي، اذ انهم أخذوا يعملون منذ بضع سنوات على انشاء «السد الأخضر»، بزراعة الأشجار في حزام من الأرض عرضه خمسة كيلومترات وطوله ١٢٠٠ كيلومتر - اي على امتداد الحدود المواجهة للصحراء. وهم يوجهون الشبان الذين يؤدّون خدمة العلم لانشاء هذا السد الهائل.

وبقيت في ذهني عبارة قالها الشيخ عيسى خليفة (مدير الثقافة في البحرين)، وهو ينفث الدخان من سيجار غليظ «السفر متعب، حتى لو كان ساعة واحدة». تساءلت: أية مصيبة عمل النفط على إلحاقها بنا؟ هذا رجل كان جيل آبائه وأجداده يركبون الأباعر ساعات وساعات ويسيرون في البوادي والصحارى المحرقة أياماً وأياماً، ويعرفون شظف العيش وقسوة الحياة ... هل السفر بالطائرة متعب حقاً؟ أيبلغ البطر بالناس الى هذا الحد؟

الخرطوم

كانت زيارة الخرطوم من جملة الأحداث الجميلة في حياتي. ولكنني لم أصل الى تلك المدينة الا بعد شيء من المعاناة. ففي البداية تأخرت الطائرة الأردنية في الوصول الى مطار القاهرة. وكان موعد اقلاع الطائرة التي سأسافر بها الى الخرطوم قد اقترب من دقيقة الصفر. وأمضيت ساعة محمومة في انتظار الحصول على حقيبتي. ومرّت الساعة الصعبة، وأخذتُ الحقيبة وذهبت مسرعاً الى مكتب شركة (اليطاليا) وانا على مثل اليقين ان الطائرة أقلعت. ولكن تبين انها ما تزال على أرض المطار. تنفست الصعداء. قيل ان الطائرة تأخرت لان العواصف الرملية في الخرطوم تحجب الرؤية. وهكذا أركنت الى الانتظار، بشيء من الطمأنينة لان عدداً من زملاء الرحلة لحضور الاجتماع الذي كنت مدعواً للاشتراك فيه - كانوا قد تجمعوا وتلاقوا في مطار القاهرة (عواطف سنّو من بيروت، وعبدالجليل التميمي من تونس، وجواد علوان من الكويت، وسالم الآلوسي من بغداد). بعد ساعات قيل لنا اننا سنبيت في القاهرة. وكان نصيبي فندق (الكونتننتال) في حي العتبة. فندق قديم كانت له أيام عز فيما مضى، ولكن غرفه أصبحت الان في وضع بائس. كان نصيبي مع التميمي وعلوان في غرفة واحدة. لكن الغريب العجيب ان الحمام المحاذي لتلك الغرفة كان له باب آخر يفتح على غرفة أخرى فيها ثلاثة أشخاص. وأمضينا ساعات على الطريقة البدائية، اذ كانت حقائبنا بقيت في الطائرة. ربما غفوت ساعة أو نصف ساعة. ومع طلوع الشمس كان علينا ان نغادر الفندق. وأسرعنا في ترتيب أنفسنا ومضينا الى المطار ونحن بين الأمل والشكوك. هنا قيل لنا ان الطائرة المصرية التي كان مقرراً أن نسافر عليها، امتلأت بالركاب. وبدا كأننا في حالة ضياع. العزاء الوحيد الذي شعر به كل واحد منا في داخله، هو اننا كنا مجموعة من الناس. وأخيراً جاء شخص اقترح علينا أن نذهب الى قاعة الطعام للافطار. كان ذلك نوعاً من الالهام، أراح أعصابنا المتوترة. وذهبنا وأمضينا نحو ساعة من الزمن. ثم جاء من يقول: انتظروا. وانتظرنا بنوع من الاستسلام للقدر. الى ان جاء الفرج قبيل الظهر، فأقلعنا بطائرة سودانية. كانت الرحلة الى الخرطوم كئيبة مرهقة بسبب العواصف وسوء الأحوال الجوية (آذار ١٩٧٨). وحطت الطائرة وشعرت بالانتعاش عندما شاهدت السيد فيصل الحمود (القائم بالاعمال في السفارة الأردنية) في انتظاري في المطار. آه ما أحلى رائحة بلادي.

لم ألبث ان التقيت بالأصدقاء السودانيين. واصطحبني محمد ابراهيم ابوسليم بسيارته الى حيث يلتقي النيل الأزرق بالنيل الأبيض، بعد ان يتركا لساناً طويلا من الأرض بينهما. ذلك اللسان الطويل الطويل بدا للسودانيين الأوائل انه

يشبه خرطوم الفيل. ومن هنا الاسم الذي أُطلق على المدينة ـ الخرطوم. اما بعد التقاء النيلين فان المرء يجد نفسه في (أم درمان)، المدينة القديمة والأصيلة في الخرطوم. ومن بعيد تبدو قبة (المهدي) الذي عمل على تحرير بلاده من سيطرة الانكليز.

كان من جملة التجارب الجديدة في عالم الرحلات، اننا دُعينا لعقد اجتماعاتنا في باخرة صغيرة ترسو في النيل الأزرق (الدعوة من منظمة اليونسكو: تدريب العاملين في مراكز الوثائق). ثم تبع الاجتماع الأول رحلة نهرية، فشاهدنا مناظر جميلة الى حدّ الروعة. وفي الليل ذهبنا الى مسرح الفنون الشعبية في ام درمان ـ فشاهدنا عروضاً من فنون الرقص الشعبي من مختلف أنحاء السودان. في تلك الرقصات صورة طبيعية للفنون البدائية التي كانت تمارسها القبائل والجماعات السكانية منذ آلاف السنين. كانت تجربةً غنية حافلة.

ومضيت الى دار الوثائق لعلني أجد فيها ما يفيد. بحثت عن أوراق علي الميرغني لعلني أعثر على المراسلات التي تبادلها مع الشريف حسين في أوائل الحرب العالمية الاولى، لم أجد ما أبتغي. هناك تقارير استخبارات تحمل تواقيع نيوكمب وأحياناً لورنس. وهناك المنشور باللغة العربية الذي يقول إن الحكومة البريطانية تريد حرية العرب، ويعود الى سنة ١٩١٤. هذه الدار كانت لعبدالرحمن المهدي الذي يكنّ له السودانيون احتراماً كبيرا. وقيل لي ان الحكومة استولت على الدار نتيجة لقرارات التأميم.

أمضيت أياماً جميلة في السودان. ومن أجمل الانطباعات ان السودانيين يتمتعون بروح طبيعية لا تصنّع ولا تكلّف ولا تلوين فيها. هنا لا تجد مبالغة المصريين مثلاً عندما يطلقون على الكاتب لقب «باشكاتب» وعلى المهندس لقب «باشمهندس». وعند السودانيين قدر كبير من طول البال. اما الصبايا ففي عيونهن من السحر ما لم أجد مثيلا له في كل الأقطار التي زرتها.

وزرت جامعة الخرطوم، وهناك شاهدت كتابات بالخط الكبير على الجدران تنادي بالحرية وتشجب الدكتاتورية. هناك عبارات سياسية يمكن تفسيرها بأنها ضد النظام القائم في السودان. أبديت استغرابي، فقيل ان حرم الجامعة مصون تماماً ولا يستطيع رجال الشرطة الدخول اليه. قلت: الا تلاحق الشرطة خصوم النظام في منازلهم؟ فقال ابوسليم: أبداً، لا يلاحقهم أحد.

الملوك والدكتاتورون

ذات يوم، وكنت أجلس مع بعض رفاق الرحلة، تذكر الدكتور التميمي الآية القرآنية الكريمة «ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزّة أهلها أذلّة».

فقال الدكتور ابوسليم. ولكن أحداث أيامنا الراهنة تدل على ان الملوك كانوا أكثر رفقاً بالشعوب من العسكريين الذين حلوا محلهم. هذه الحبشة (أثيوبيا)، كان يحكمها هيلاسلاسي، امبراطوراً اوتوقراطياً دون شك، ولكنه كان رحمة من السماء اذا قيس بمنجستو مريام، الضابط الذي حلّ محله في الحكم. ففي عهد هذا الضابط أُعطي الجنود صلاحيات بترصيص (اطلاق الرصاص) على كل من يشتبهون بولائه. يدخلون قريةً يشتبهون بولاء أهلها، فيقتلون كل من فيها دون حسيب أو رقيب. أي والله. ان فترة تدريب الجندي الأثيوبي ثلاثة أسابيع فقط، يتمرن خلالها على اطلاق الرصاص على الأبدان، فاذا اقتنع المسؤول عن التدريب ان الجندي يستطيع اصابة الهدف (جسد انسان ما)، فانهم يطلقونه للقيام بعمله. ويقف الجندي على ناصية شارع، وقد يخطر على باله ان يسأل أحد الناس عن هويته، وربما يخطر على بال الجندي ان هذا الرجل لا يحظى باستلطافه، وقد يخطر له ان ذلك الرجل غير موال للوضع القائم، فيطلق عليه النار، ويسقط قتيلا على الأرض، ويقف الجندي عند الجثة الملقاة على الأرض، وينتظر الى أن يأتي أهل القتيل ليأخذوا جثة قريبهم، ولكن الجندي ـ بحكم الأوامر ـ مخول بأن يطلب ثمن الرصاصة التي قتل بها الرجل، وهو مخول أن يطلب أي ثمن يريد. قد يطلب ٥٠ جنيهاً، ويضطر أهل القتيل الى دفع المبلغ المطلوب ليأخذوا جثة الرجل الذي قُتل بالدم البارد وبقرار من رجل واحد ... لقد قتل جنود منجستو مريام جيلاً كاملاً ـ وبخاصة من طلاب المدارس ـ فهل كان هيلاسلاسي يفعل هذا؟ ... ثم هناك (....) والمظالم والأفاعيل التي تمت في عهده، والتي هو مسؤول عنها، لانه رئيس العهد. فهل يا ترى كان مثل ذلك يحدث في عهد الملك...؟



الخرطوم: سالم الآلوسي، المؤلف، مبارك سري عمر

أنقرة واستانبول

من أهم ما يثير اهتمام الانسان في الرحلات، تلك المشاهد والتصرفات التي تختلف عما ألف في بلاده واعتاد عليه. ومع انني لا أستطيع أن أزعم أنني عرفت الأتراك على حقيقتهم من مجرد اقامة اسبوع في أنقرة وأسبوع آخر في استانبول - الا انني استطعت ان أعرف وألمس عدداً من المفارقات التي استلفتت نظري وأثارت اهتمامي.

كانت الدعوة الى أنقرة لحضور مؤتمر العلاقات التركية - العربية ، في جامعة (حاجة تبّه). لم يُطلب مني أن أعدّ بحثاً معيناً للمؤتمر ولم ترسل لي المعلومات الضرورية عن الموضوعات التي سيعالجها المؤتمر، ولم يكن هناك وقت واسع بين توجيه الدعوة وبين يوم السفر. وقد استدللت على ان هذا لم ينطبق علي وحدي، بل على زميلي الاستاذين في الجامعة الأردنية (عبدالكريم الغرايبة ومحمد عدنان البخيت)، وعلى معظم الذين اشتركوا في المؤتمر من العرب. واحد منا نحن الأردنيين كتب شيئاً عمومياً بعد أن وصلنا الى انقرة، بل بعد افتتاح المؤتمر، وألقاه في اليوم التالي. والليبيون السبعة الذين حضروا المؤتمر، تكلم من تكلم منهم، ارتجالا. ولم يظهر على القائمة الرسمية التي وزعتها رئاسة المؤتمر عن المشاركين فيه من الليبيين - الا اسم واحدٍ. كان ذلك يعني ان الدعوة وصلت متأخرة الى ليبيا، أو أن تأليف الوفد لم يتم الا قبيل السفر الى انقرة. أعضاء ذلك الوفد كانوا أدباء وصحافيين واعلاميين. لم يكن فيهم اختصاصي سوى شاب كان ما يزال يدرس في استانبول. ولا يفوتني أن أذكر أن ثلاث دول عربية (العراق والسعودية والجزائر) كلفت سفاراتها بتمثيلها في ذلك المؤتمر(وموظفو السفارات غير اختصاصيين، ولا يستطيعون الخروج عن صفتهم الدبلوماسية في العاصمة التي يمثلون بلادهم فيها). وقد ظهرت المفارقة الاولى والأهم عندما أخذ المشاركون الأتراك يقدمون أوراقا تتضح فيها العناية والدقة والتركيز، مما يدل أنهم حصلوا على وقت كاف لاعداد أبحاثهم. فهل يدل كل هذا على ان الداعين للمؤتمر لم يكونوا يعرفون الكثير عن النظراء العرب الذين يمكن أن توجه الدعوة اليهم، أم على اننا «كلنا في الهمّ شرق»؟ لست أدري. الخلاصة كانت أكثر أبحاث الزملاء الأتراك دراسات متخصصة، بينما كانت أكثر كلمات العرب مجرد خطابات!

المفارقة الثانية ظهرت في مواقف العرب أنفسهم تجاه الدولة العثمانية. فالعرب المشارقة كانوا ينظرون اليها كدولة سامتهم ألوان العسف والاضطهاد وحاولت تتريكهم، وعملت على قتل لغتهم، وعلقت أحرارهم على أعواد المشانق. اما العرب المغاربة فكانوا ينظرون اليها كدولة الاسلام الكبرى التي ساندتهم في محاربة دول

اوروبا المسيحية الغازية. من هنا نستطيع ان ندرك ما ورد في كلمة أحمد توفيق المدني - سفير الجزائر آنذاك في تركيا - من أن الاتراك دخلوا سوريا لانقاذها ولم يكونوا مستعمرين، والتعليقات الخنفشارية المسهبة التي كان الكاتب الليبي علي المصراتي، يتحفنا بها، بين آونة وأخرى، والتي جاء في احداها وصفه للزعيم العربي ابوالهدى الصيادي، بأنه كان «نصاباً». بل ان المصراتي ارتجل في المؤتمر خطاباً، وكان قد جاء بجهاز تسجيل، وطال الخطاب وانتهى شريط التسجيل، فتوقف عندئذ وقام بوضع شريط آخر على الجهاز، ثم استأنف الكلام. بدا ذلك لي ولغيري حركة مسرحيةً الى حدٍ ما. وذات يوم وصل أعضاء الوفد الليبي متأخرين نصف ساعة، وكان المحاضر الأول قد أنهى حديثه، ولكن أسئلة السائلين كانت ما تزال مستمرة، وخُيّل لأحد الرفاق الليبيين ان الموضوع يتعلق بجمعية الاتحاد والترقي، فطلب الكلمة وأخذ يتحدث عن نشاطات الاتحاديين في ليبيا، ومضى يهضب في القول الى ان لفت رئيس الجلسة نظره الى أن موضوع المحاضرة كان بعيداً عن الاتحاديين، فاختتم مداخلته الاعتباطية ، وأراح واستراح.

أما المؤرخ التونسي الدكتور عبدالجليل التميمي، فألقى خطاباً غير مكتوب، نوّه فيه بالدولة العثمانية وما بذلت من جهود لمعاونة أقطار الشمال الأفريقي في صدّ الغزوات الأوروبية.(١)

مما استلفت نظري ان الأتراك لا يبالغون في الاحتفاء بضيوفهم. عندما وصلنا الى المطار لم نجد أحداً في استقبالنا، كما كنت أتوقع. قال زميلاي (وهما يعرفان تركيا والاتراك): هنا لا يستقبلون ولا يودعون، كما نفعل نحن في بلادنا. أطمئن من هذه الناحية. اما في الفندق فان أيام الاستضافة كانت محسوبة ومحسومة - خمسة أيام لا غير. اما اذا أوصلتك الطائرة قبل ذلك، أو تأخر وقت سفرك بعد ذلك - فعليك ان تتحمل نفقات الفندق والطعام. أعترف هنا أنني أكبرت الأتراك على ذلك، وبخاصة عندما قارنت اختصارهم بما نحيط به ضيوفنا من مبالغة - الضيوف الذين ننفق عليهم من جيب الدولة وليس من جيوبنا، بطبيعة الحال. أقام الداعون حفلة استقبال متواضعة وبسيطة. الدكتور كوران دعانا نحن الأردنيين للعشاء في منزله، وقد أثار اعجابي لبساطة الطعام الذي قدمه لنا.

واستلفت نظري ايضاً ان العطلة الرسمية في تركيا هي يوم الاحد وليس يوم الجمعة.

١- بدا لي حينذاك ان التميمي بالغ في اشادته، فقلت في المقالة التي كتبتها عن المؤتمر (الرأي - ١٢ / ٧ / ١٩٧٩) انه «صوّر تاريخ الدولة العثمانية زاهياً خلاباً أبيض كالثلج». وعندما اطلع التميمي على مقالتي أبدى عتبه علي ونشر في (المجلة التاريخية) التي يصدرها نص الكلمة التي ألقاها قائلا انها بقيت حية ماثلة في ذهنه.

قبل سفرنا زرنا مدير المطبوعات، صباح يوم السبت، وقضينا أكثر من ساعة في مكتبه، ثم خرجنا دون ان يقدم لنا كأس شاي أو كأس ماء (حزيران ١٩٧٩). اما القهوة فغير موجودة لان الحكومة أوقفت استيرادها.

كان اليوم يوم عطلة للدوائر الرسمية. خرجت من الاجتماع يملأ نفسي الاعجاب والاكبار. المهم عندهم هو العمل وليس المجاملات. لا أذكر ان الرجل اعتذر، وهذا ما زادني احتراما لتصرفه. كان قد دعانا قبل يومين الى حفل استقبال وعشاء، ولكنه اقتصر الدعوة على الضيوف العرب وحدهم. وكان العشاء بسيطاً والطعام بالكاد يكفي. تذكرت عندئذ حفل العشاء الفاخر ـ والفاخر جدا ـ الذي كان مدير المطبوعات الأردني قد أقامه للوفد الاعلامي التركي الذي زار عمان قبل شهرين، برئاسة مدير المطبوعات التركي، ودعا لحضوره جمهرةً من الأردنيين كنت واحداً منهم. تذكرت ذلك ونفسي تفيض استغرابا للمفارقة بين الكرم عندنا (علي حساب المال العام) والاقتصاد عندهم في انفاق المال العام. دار في خلدي ان الامر يعود الى مقدار الثقة بالنفس، والى قواعد الانضباط التي هي عند الأتراك أقوى منها عندنا. بل تساءلت: هل يوجد عندنا شعور بالنقص نحاول ان نغطي عليه أحياناً بالاسراف الزائد عن الحد؟

كان من جملة المفارقات المثيرة للتأمل، ان اللغة المشتركة بين الاتراك والعرب لم تكن اللغة التركية، ولم تكن العربية، بل الانكليزية. المشاركون الأتراك كانوا يلقون خطاباتهم ومداخلاتهم بالتركية، والمشاركون العرب يلقون بالعربية. ولكن كانت هناك ترجمة فورية بواسطة السماعات من التركية ومن العربية الى الانكليزية. وهكذا لم نجد دليلاً واحداً يذكرنا بالجيرة الجغرافية أو بالقرون الأربعة التي كان الاتراك العثمانيون يحكمون بلاد العرب الشرقية خلالها. ولم نجد أثراً للحروف العربية التي اتخذها الاتراك حروفاً للغتهم منذ أن بدأوا التدوين، وحتى عام ١٩٢٧ (عندما أمر أتاتورك بالتحول الى الحروف اللاتينية). هذه المفارقة قادت في أحد الأيام الى مفارقة أخرى. ففي اليوم الأخير من المؤتمر ألقى أحد الاساتذة الاتراك (الدكتور عمر كوركوجلو) كلمة تحمل معنى الانصاف للعرب (وتتضمن رداً مبطناً على استاذ تركي آخر تحامل على العرب). وكان مدار كلمته ان العرب ثاروا من أجل الحصول على حريتهم، وان الثورة العربية كانت تمثل العرب. المفارقة الجنائية اقترفها المترجم العربي الذي كان يترجم من التركية الى العربية، فقد لاحظت (كما لاحظ آخرون) انه ترجم العبارات الاولى بأمانة، ثم صدرت له اشارة من عضو ليبي كان الى جانبه، فأخذ يلف ويدور ويقول ان المحاضر يعيد ما قاله سابقاً. وتحولت الى القناة الأخرى التي كانت تنقل الترجمة الانكليزية، فتبينت انها تنقل بأمانة ما كان الاستاذ التركي يقوله وهو أن العرب ثاروا من أجل تحقيق حريتهم. وهكذا ـ وبكل أسف ـ وقع الخلل في الجانب العربي.

وكان العرب الذين استمعوا الى القناة العربية ضحايا لذلك الخلل، بينما استمع الذين كانوا يستعملون القناة الانكليزية الى ترجمة أمينة صادقة.

أحسست عندئذ بألم عميق.

في إحدى الجلسات اقترح أحد الأساتذة الأتراك ان يعمل العرب والاتراك على انشاء وكالات انباء اقليمية. وكان أصل الاقتراح نابعاً من كون شركات الأنباء الكبرى هي التي تسيطر على توزيع الأخبار (وتلوينها باللون الذي تريد). وتبعاً لذلك فان أقطار العالم الثالث تعرف عن بعضها البعض من خلال ما تبثه تلك الشركات من معلومات. من هنا تستغرق البرقية بين قطر عربي وآخر اسبوعاً او اسبوعين كي تصل، بينما تصل البرقية من أي قطر عربي الى لندن في نصف يوم. ومما قيل ان مكالمة هاتفية بين قطر عربي واميركا قد تحتاج الى نصف ساعة انتظار، بينما يحتاج المرء الى يوم كامل لكي يهاتف من عاصمة عربية الى عاصمة عربية أخرى (لنذكران هذا قيل سنة ١٩٧٩).

ملاحظة عن أمر ترك في نفسي انطباعا قوياً: الأتراك يتكلمون ويقرأون بأصوات قوية جهورية وبشيء غير قليل من الحدّة والحماسة والتوكيد، بينما يتكلم العرب بصورة عادية هادئة وطبيعية. تساءلت: هل هذا ناشيء عن طبيعة اللغة التركية، أم عن تربية الاتراك العسكرية؟

الاستاذ السوداني تاج السر حرّان، ألقى بحثاً بعنوان (سياسة الاتحاديين تجاه العرب). كان هناك تعليق من استاذ تركي انه سمع هذا البحث مرتين، مرة في عمان وأخرى في دمشق. وقال التميمي: البحث مأخوذ عن رسالة دكتوراه كتبها قبل عشر سنوات وليس لديه سواها ـ كما يبدو. لذلك نسمعه يكرر ما جاء فيها في كل مؤتمر يُدعى اليه.

مما ترك انطباعاً قويا في نفسي ان الشعور بالانضباط عند الاتراك أقوى من الشعور بالأهمية الشخصية. كانت هناك شابات وكان هناك شبان، يعملون في مكتب المعلومات والعلاقات العامة للمؤتمر، ويساعدون في تسيير الامور ونقل المذكرات بين المشاركين، بل حتى القاء ما في منافض السجائر من أعقاب. عرفت ان معظمهم من حملة شهادة الدكتوراة. أبديت عجبي للبارعة الملاحة (جوردآل اورندر) فقالت: لم يكن بمقدورنا ان نرفض طلب الاستاذة أمل هانم، عندما طلبت منا القيام بهذه المهمة (الدكتورة امل دوغراماجي ـ عميدة كلية الآداب).

واغتنمت فرصة فراغ فذهبت لزيارة ضريح أتاتورك. بناء عظيم يليق بزعيم عظيم قاد بلاده الى الوحدة والحرية. ووقفت في متحف الضريح عند صورة للملك عبدالله كان أهداها عام ١٩٣٧ الى اتاتورك وكتب عليها بخط يده.

''هديتي الى صديقي الحميم رئيس الجمهورية الفخيمة التركية أتاتورك''.

استدللت من هذا ان الزعماء الكبار النفوس ينظرون دائما الى المستقبل. لقد انتهت الحرب التي كان يقف فيها عبدالله ومصطفى كمال في جيشين متقابلين يقاتل أحدهما الآخر. وبعد انتهاء الحرب أدرك الزعيمان ضرورة عقد أواصر الصداقة بين بلديهما من أجل المستقبل.

وحدثني فهمي نوزت (وهو رجل تجاوز السبعين)، باعجاب عما كان يتمتع به الملك عبدالله من جاذبية. فقال ان عبدالله التقى في لندن بعصمت اينونو، في أثناء احتفالات بريطانيا بتتويج الملك جورج السادس. ووجّه اينونو اليه دعوة لزيارة أنقرة في طريق عودته. وعند وصول الامير استقبله مصطفى كمال استقبالاً رسمياً فيه من المجاملة أكثر مما فيه من البشاشة. ولكن لم تكد تمضي خمس دقائق حتى ذهبت المجاملة الرسمية، ووقع أتاتورك تحت تأثير جاذبية الملك عبدالله وسحر حديثه. وقد دهشنا فعلاً عندما رأيناه يتأبط ذراعه كأنهما صديقان قديمان.

ورافقني في زيارة الضريح موظف شاب يعرف قليلاً من الانكليزية. علمت منه أنه من مدينة اورفه وأن امه واباه عربيان. سألته: وأنت؟ قال: لا أعرف من العربية الا كملتي: أهلاً وسهلاً ... تملكني العجب وازداد يقيني بان اللغة ذات أهمية كبرى بالنسبة لأية قومية، بل انها تأتي في المقام الأول بين عناصر القومية. هذا الشاب وُلد من ابوين عربيين، وهاهو الان قد أصبح تركياً قلباً وقالباً، بسبب اللغة، لأن مدينته أورفه صارت جزءاً من تركيا.

نحن أحفاد سليمان القانوني

أبدى عدد من المتحدثين الأتراك نوعاً من العتب على العرب - عرب الدول النفطية - لانهم لا يقدمون العون المادي لتركيا ولا يبتاعون بضائعها ومنتوجاتها. ويظهر ان الاستاذ عبدالقادر قره خان رأى في تلك الأقوال نوعاً من المسايرة والتطامن، مما أثار عاطفة الكبرياء القومي في نفسه. وهكذا رأيناه في اليوم الأخير للمؤتمر يقف ويلقي خطاباً حماسياً خاطب فيه زملاءه الاتراك قائلاً:

«لا تجعلوا قضية الاقتصاد مرتكزاً لأفكاركم، ولا تحوّلوا موضوع المؤتمر الى قضية نفط. لا تنسوا أننا أحفاد سليمان القانوني، وأن جيوشنا طرقت أبواب فيّنا ذات يوم. إننا نؤثر ان نموت على ان نستعطي»...

عجبت لذلك الرجل الهادئ، كيف تحول وهو يتكلم الى انسان ملتهب العاطفة، وقد احمرّ وجهه وانتفخت أوداجه. خُيّل لي ان كبرياء المحاربين الأتراك القدماء تلبسته واستولت عليه، ولم أستغرب عندما قابل بعض الحضور خطابه بالتصفيق.

نقطة تثير جدلا

افتتح نائب رئيس الوزراء التركي المؤتمر بخطاب ركّز فيه على الجوانب الايجابية في العلاقات بين العرب والاتراك. وقال ان تركيا في الوقت الراهن تؤيد العرب وتقول بوجوب انسحاب اسرائيل من القدس والضفة الغربية وقطاع غزة، واعطاء الفلسطينيين حقهم في تقرير مصيرهم وانشاء دولة مستقلة لهم في أراضيهم.

على ان هذه البداية الطيبة لم تلبث ان عكّرتها كلمة الدكتور كاربات (شريك الدكتورة امل دوغراماجي في الدعوة للمؤتمر). والدكتور كمال كاربات هذا استاذ تركي يعمل مدرسا في احدى الجامعات الاميركية. كان كاربات في كلمته الافتتاحية يريد رسم اطار عام للعلاقات التاريخية بين العرب والاتراك. ومن هنا قوله ان الدولة العثمانية لم تكن امبراطورية (لم يقل ماذا كانت)، ومن الخطأ القول انها كانت تستعمر سوريا أو غيرها من بلاد العرب. ولم تكن هناك حروب بين الاتراك والعرب منذ ان استولى العثمانيون على سوريا ومصر (نسي الحرب في شبه الجزيرة العربية بين السعوديين والدولة، والحرب في اليمن وعسير وثورة الكرك وجبل الدروز). ثم خلص الى القول ان جمعية الاتحاد والترقي هي التي أحدثت فجوةً بين العرب والاتراك. ثم جاءت الثورة العربية، وهذه الثورة لم تكن حرباً بين العرب والأتراك «لان الذين قاموا بها هم بدو الحجاز الرحل الذين كانوا يبحثون عن الغنائم والاسلاب».

داخلني غضب عارم من قول كاربات عن الثورة. رأيت انه بذلك ينسف التاريخ الحديث للقومية العربية من أساسه. عقدت العزم على ايضاح وجهة النظر العربية، ولذلك أخذت الكلمة في جلسة بعد الظهر وقلت ما خلاصته:

«الثورة العربية لم تقم ضد الدولة العثمانية، بل ضد الاتحاديين. ظل الشريف حسين سنة كاملة يذكر اسم السلطان ـ الخليفة في مسجد الكعبة. من هنا أعترض على قول كاربات ان الثورة لم تكن ثورة العرب. الثورة كانت بالتأكيد ثورة العرب وتستهدف تحقيق الوحدة والاستقلال لكل العرب».

أحسست أنني أزحت عبئاً عن صدري. وفيما بعد اعتذر كاربات بقوله انه لم يقل بالضبط ما فهمته انا، وأن خطأ وقع في الترجمة، وانه لم يقل سوى ان البدو في الحجاز لم يكونوا يمثلون الثوار العرب (عذر أقبح من ذنب لانه ألقى كلمته بالانكليزية وسمعتها وفهمتها دون أن أصغي للترجمة). ولكن المهم انه تراجع عن مقولته.

الدكتور الغرايبة ترأس جلسة في اليوم التالي وردّ بصورة غير مباشرة على

كاربات، عندما عرّف بنفسه انه قادم من الأردن، بلد الثورة العربية الكبرى التي سالت فيها دماء العرب والاتراك معاً.

اثنان من الأساتذة الأتراك ردا بصورة مباشرة وغير مباشرة على زملائهم الناقمين على العرب وثورة العرب. الدكتور عمر كوركوجلو أعلن في كلمته ان ثورة العرب كانت من أجل الحرية (هنا عمد المترجم الى خلط الكلام ـ كما سبقت الاشارة)، والثورة كانت تمثل العرب جميعا. وقد توسع في شرح وجهة نظره هذه، فكان بذلك من العلماء الذين يغلّبون الحقيقة على الهوى. اما الاستاذ آتوف (قيل انه يساري) فقد أجاد وأفاد وأوفى على الغاية وهو يدعو ابناء قومه الى رؤية حق العرب الواضح في فلسطين، والى تأييد ذلك الحق والوقوف الى جانبه.

في كلمته الختامية عمل الدكتور كاربات على اصلاح الخطأ الذي ارتكبه في كلمة الافتتاح، فأشار بصراحة الى الثورة العربية. ولكن أثار عجبي واستغرابي ان الاستاذ فهمي نوزت قال لي بعد انتهاء الجلسة: لقد استأت كثيراً من كاربات لانه ذكر الثورة العربية مرتين كحقيقة مسلّم بها. ولولا ان الجلسة انفضت لرددت عليه بأنه لم تكن هناك ثورة عربية، بل حركة قام بها الشريف حسين وبدو الحجاز. أدركت عندئذ ان الجيل القديم من طراز فهمي نوزت يصعب عليه تبديل المفهوم الذي ترسخ في عقله الباطن، وقلت في نفسي ''على من تقرأ مزاميرك يا داؤد''. وأحسست بشيء من الاشفاق على كاربات الذي أغضب العرب ولم يرض الأتراك، فخرج ''لا مع ستّي بخير ولا مع سيدي بخير''.

وأثار عجبي أكثر وأكثر ان زميلنا الليبي الدكتور علي خشيم، عاتبني لانني أشرت في احدى مداخلاتي الى الخطأ الفادح الذي ارتكبته الدولة العثمانية عندما حرمت تدريس اللغة العربية في بلاد العرب. كان من رأيه ان هذا يثير الأتراك.

وفي ليالي صيف أنقرة، بحثت طويلاً عن الشاعر الذي وقف واستوقف وبكى واستبكى، الشاعر الذي ضيّعه أبوه صغيراً وحمّله دمه كبيراً، الشاعر الذي جعل هدفه واحداً من بديلين: إما الملك أو الموت. وعندما أعطاه قيصر الملك وافته المنية هنا، في أنقرة ... بحثتُ طويلاً عن امرئ القيس، الا أنني ـ مع الأسف ـ لم ألتق به ولم أعثر عليه.

استانبـــــــول

بعد ثلاث سنوات أتيح لي ان أُدعى لزيارة مدينة استانبول. كانت وراء تلك الدعوة قصة غريبة نوعاً ما. فقد حدث ان المجلة الفرنسية L'histoire نشرت في عام ١٩٨١ مقالة لي عن الدور الذي لعبه لورنس في الثورة العربية. وكنت نفيت في تلك المقالة ادعاء لورنس ان قائد موقع درعا هاجم محي الدين بك اعتدى عليه جنسياً.

وقلت ان ذلك الضابط كان رجلا محترماً، وان القصة من ابتداعات خيال لورنس ولا صحة لها. وتشاء الصدف ان يطلع السفير التركي رشاد اريم على مقالتي تلك، فاتصل بي (وكنت آنذاك مستشاراً في وزارة الثقافة) قائلاً انه يود أن يزورني. رحّبت به، فجاء وأعرب لي عن اعجابه بما اعتبره دفاعاً عن ضابط تركي، وان يأتي ذلك الدفاع من كاتب عربي. في الحقيقة لم يكن خطر ببالي شيء من هذا القبيل، عندما كتبت تكذيبي لزعم لورنس. كان هدفي كشف النقاب عن الواقع الحقيقي، دون النظر في تأثير ذلك على هذا الشخص او ذاك.

وحدث في اثناء تلك الزيارة انني ذكرت له ما كانت أوردته احدى الوثائق البريطانية من ان الحكومة التركية نصحت الحكومة الأردنية بأن تعمل على عقد الصلح مع اسرائيل، بعد أن أصبحت اسرائيل أمراً واقعاً، وبعد ان أخفقت دول العرب في كبح جماحها. وقلت انني سوف أنشر هذا الكلام في الكتاب الذي كانت جريدة (الرأي) في تلك الفترة تقوم بنشر حلقاته على صفحاتها (أيام لا تُنسى). عندما أخبرت السفير بهذا، لم اكن أحسب حسابا لرد الفعل الذي بدر منه، فقد أبدى رأيه ان نشر قول كهذا سوف يلقي ظلالا على الصورة الحسنة التي تحاول تركيا ان تظهر بها أمام العرب، ولهذا فانه يرجو ان لا أنشر مضمون هذه الوثيقة. بل ولا أشير اليها. وفكّرتُ قليلاً وقلت لنفسي: انني اذا رفضت طلب السفير الشخصي، فانه يستطيع ان يطلب من الحكومة الأردنية ان تعمل على منع النشر. ولم يساورني أي شك في ان الحكومة سوف تستجيب لطلبه. من هنا آثرت ان تكون الاستجابة طوعاً مني مع كسب بياض الوجه، على أن تكون بأمر من الحكومة وأخرج بسواد الوجه.

ومضى شهران على هذا الحديث.

وذات يوم اتصل السفير هاتفياً بي وقال ان هناك فرصة لتوجيه الدعوة لي لزيارة استانبول، مع جماعة من الصحافيين العرب، فهل أقبل بذلك؟ كان جوابي: أقبل الدعوة بكل سرور. وعلى الاثر بعث السفير رسالة الى وزير الثقافة.، فوافق على تلبيتي للدعوة.

تحققت زيارتي لاستانبول في أيار ١٩٨٢. بعد الوصول التقيت بصحافيين واعلاميين من بلاد المشرق العربي. وقد تزاملت ايضا مع الصديقين الصحفيين أحمد علاوي وأحمد سلامة. كانت الزيارة فرصة عظيمة لمشاهدة أماكن قرأت عنها في كتب التاريخ وطالما هفت نفسي للوقوف بها والتملّي من روعة معالمها. الباب العالي، جامع السلطان أحمد ذو المنارات الست، كنيسة آيا صوفيا، القرن الذهبي، والعبور من آسيا الى اوروبا فوق ذلك الجسر الرائع المريع، تراقيا، استينية، بورصة (عاصمة السلاطين العثمانيين قبل فتح استانبول)، بحر مرمرة، قصر

يلدز وتوب كابي (باب المدفع).

قضيت في استانبول أياماً لا أجمل ولا أحلى. ولكنني في الوقت نفسه سعيت للافادة من الفرصة المتاحة في المجال العلمي. وأسعفني الحظ فاتصلت باللواء المتقاعد سليم تورخان، نجل القائد الشهير فخري باشا، قائد القوات العثمانية في المدينة المنورة في اثناء الحرب العالمية الاولى. وعندما التقيت به قدمت له واحداً من مؤلفاتي ورد فيه ذكر والده. لا يفوتني هنا ان أذكر ان تحسين قدري هو الذي حدثني (عندما زرته في لوزان قبل سنة) عن سليم تورخان. وبادر الرجل فأهداني الكتاب الذي يتناول سيرة حياة ابيه والذي كنت شاهدت نسخة منه عند تحسين قدري. والحقيقة ان ذلك الكتاب يضم صورة لفخري باشا ومعه مرافقه تحسين قدري. ودار حديث بيننا، ومما رواه سليم تورخان ان فخري باشا هو الذي اصطحب معه تحسين قدري من سوريا الى المدينة، لكي لا يتعرض للموت على يد جمال باشا. وأكد لي ان اجراءات الاعدام التي نفذها جمال في الوطنيين العرب، كانت ضد رغبة الحكومة المركزية في استانبول. ولم ألبث ان التقيت ايضا باللواء المتقاعد اورخان شقيق سليم باشا. وكانت خلاصة حديثهما ان جمال باشا كان رجلاً ظالماً قاسي القلب، وبالتأكيد كانت له اتصالات سرية من أجل انشاء دولة في سورية يكون هو على رأسها. وكان من رأيهما ان جمال كان ذا أطوار غريبة، فقد حدثت في عام ١٩٠٦ حركات ضد الأرمن، فأقدم على اعدام كثيرين من الأتراك من أجل إرضاء الدول الأجنبية. ومن البديهي القول ان الانكليزية كانت لغة التفاهم المشتركة بيننا وبين مضيفينا الأتراك.



استانبول: صحفي تركي (من قبرص) صحفية تركية والمؤلف

رحلات الى بلاد جون بول
بــريـطــانيـــــــا

في نيسان ١٩٥٨ أتاحت لي الظروف بصورة غير متوقعة، أن أسافر الى بريطانيا، في رحلة من رحلات العمر.

كنت آنذاك أعمل في الاذاعة الفرعية الصغيرة التي كان مقرها في جبل الحسين بعمان. ولم يكن مرّ على بدء عملي فيها الا أحد عشر شهراً. وكنت قبل ذلك بشهر قد رافقت الوفد النيابي في زيارته للعراق. لذلك جاءت الدعوة لزيارة بريطانيا، بعد ذلك باسبوعين فقط، مفاجأة لم أكن أحلم بها. ثم عرفت ان الحظ لعب دوراً كبيراً، بل لعب الدور كله، في ذلك.

الحــظ الحســن

جاءت الدعوة أصلاً من الحكومة البريطانية الى الحكومة الأردنية، لاستضافة وفدٍ من الصحفيين والاعلاميين الأردنيين، لمدة ثلاثة أسابيع، بقصد السياحة في تلك البلاد والتعرّف على معالمها، والالتقاء بعدد من الشخصيات المهمة فيها. في واقع الأمر كانت الدعوة نوعاً من لفتة ودية لإعادة بناء الصداقة التقليدية بين الأردن وبريطانيا، تلك الصداقة التي ترعرعت (بالتي هي أحسن، أو بالتي هي أسوأ) في خلال سنوات طوال من عام ١٩٢١ إلى أوائل عام ١٩٥٦. وكان اعفاء الفريق جلوب في ١ آذار ١٩٥٦ وما أعقب ذلك من انهاء المعاهدة بين البلدين في نيسان ١٩٥٧، قد نتج عنهما جفاء وبرودة في العلاقات. ولكن اخفاق محاولة الأردن للاستعاضة بمعونة عربية بدل المعونة البريطانية، وبروز الأزمة السياسية التي رافقت وزارة النابلسي، كل ذلك كان وراء العودة الى التقارب والتفاهم.

لا أعرف شيئاً عن التفاصيل، ولكن الدعوة وُجّهت الى ستة أشخاص، نصفهم من رؤساء تحرير الصحف: رجا العيسى عن جريدة فلسطين، وسليم الشريف عن جريدة الجهاد، وصادق الشنطي عن جريدة الدفاع. اما النصف الثاني فمن جهاز الاعلام في الحكومة، وقد ضم منيب الماضي مدير دائرة المطبوعات والنشر وعبدالقادر الجاعوني مدير الاذاعة العام، وسعيد العيسى مدير اذاعة عمان.

وتشاء المقادير أن يعتذر الجاعوني عن السفر، لانه - كما بلغني - كان يخشى السفر بالطائرة. ويشاء الحظ الحسن ان يتم اختياري لكي أحلّ في المكان الذي أصبح شاغراً.

أما أسباب اختياري لعضوية ذلك الوفد - على الرغم من حداثة عهدي بالوظيفة

ـ فلا علم لي بها. ولكن حدسي يتجه نحو المرحوم مدحت جمعة، وكيل الوزارة المسؤول آنذاك عن دائرتي الاذاعة والمطبوعات. ويبدو لي ان موقفي في قضية مصادرة كتابي عن سيرة حياة الشريف حسين، في العام السابق (١٩٥٧) ترك أثراً طيباً في نفسه. وفيما بعد عرفت مدحت جمعة أكثر وأكثر، فرأيت فيه رجلاً محترماً كبير القلب.

علــى الطــريق

غادرت بلدة المفرق (كانت أسرتي ما تزال تقيم فيها) الى عمان، ومنها مضيت انا وسعيد العيسي الى القدس، مع الملحق الصحفي في السفارة البريطانية المستر سنكلير. وعند العصر (٧ نيسان ١٩٥٨) سافرنا مع رفاق الرحلة الآخرين، بالطائرة من مطار قلندية الى بيروت، حيث أمضينا ليلة في أحد فنادقها، وفي اليوم التالي غادرناها الى لندن.

عبرت الطائرة بنا فوق البحر الأبيض المتوسط حتى مطار أثينا، عاصمة اليونان، ومن هناك استأنفت سيرها جواً فوق بحر الأدرياتيك. وفي أثناء ذلك صادفتها جيوب هوائية شديدة. فأخذت تهتز وتضطرب، مما اضطر قائدها الى القيام بدورة واسعة فوق الأجزاء الجنوبية من ايطاليا، وبعد ذلك اتجه الى مطار روما. وكان اهتزاز الطائرة قد أصاب بعض المسافرين بالذعر والدوار، الى ان حطّت بنا في روما، فهدأ روع النفوس. ولم تطل الاقامة في روما، فاستأنفت الطائرة رحلتها ومرت بنا فوق جبال الألب، فكنا نرى أنفسنا على مسافة قريبة من قممها العالية، التي ينحسر الثلج عن أطرافها كما تنحسر الغلالة الحريرية عن كتفي صبية حسناء.

بعد رحلة استغرقت تسع ساعات (من بيروت الى لندن) وصلنا الى مطار لندن. وكم كان مدهشاً لي ان أشاهد خطوط أنوار الشوارع تمتد في أثناء الليل مسافات بعيدة، وهي تتلألأ في منظر بديع رائع. وبعد نزولنا قال أحد الأشخاص الذين كانوا في استقبالنا، أن الفندق الذين سنقيم فيه قريب جداً Close by، ولكن السيارة قطعت اربعين كيلومترا حتى أوصلتنا اليه.

كان من أول المفارقات التي لفتت نظري، ان السيارات في بريطانيا تسير الى يسار الشارع، بينما يجلس السائقون على مقاعد القيادة الى اليمين. وعلمت ان هذه الطريقة تُتبع في قبرص واستراليا والسويد والسودان.

في اليوم التالي لوصولنا زرنا مكتب المعلومات، من أجل بحث برنامج الزيارة المقترح. وبعدها ذهبنا الى السفارة الأردنية، حيث التقينا بالسفير عبدالمنعم الرفاعي. اما في ساعات بعد الظهر فقد قمنا بجولة شاهدنا خلالها بعض الأماكن

المهمة، ومررنا الي جانب حديقة هايد بارك، ووقفنا في ساحة الطرف الأغر (ترافلجار) حيث تمثال قائد البحرية الشهير نلسون، وتفرجنا على كاتدرائية القديس بولس، حيث دُفن عدد من عظماء الانكليز، ثم على برج لندن. ولم نتمكن من مشاهدة جواهر التاج بسبب وجود صف من الأشخاص الذين رأيناهم يصطفون في خط طويل، وكل منهم ينتظر دوره لمشاهدتها.

تقاليـــــد الانكلـــيز

شاهدنا الى جانب أحد أبنية البرج ستة غربان. وقيل لي ان هناك أسطورة تتعلق بهذه الطيور، ومؤداها انها اذا غادرت البرج فان الامبرطورية البريطانية سوف تتمزق وتنهار. وللحيلولة دون تحقيق الأسطورة فقد وُضعت الترتيبات التي لا يُتاح معها أي مجال لطيران تلك الطيور. وسرّ ذلك أنهم يعمدون الى نزع ريش أجنحتها، وهكذا تبقى الغربان ساكنة هادئة، وتبقى الامبراطورية سليمة من الانيهار! اما اذا نفق أحد الغربان فانهم يستبدلونه بغراب آخر. وهذا مثال على تقاليد يحرص الانكليز على اتباعها، مع معرفتهم بأنها نوع من العبث الذي لا طائل وراءه.

وزرنا بعض الأحياء الراقية في الطرف الغربي من لندن West End ثم زرنا أحياء فقيرة بائسة في الطرف الشرقي East End، يسمونها Slums. وفي أثناء ذلك وقفنا عند حدود مدينـــة لندن القديمة، التي لها اعتبارات تقليدية ذات أهمية عندهم، على الرغم من صغر مساحتها. ومن تقاليدهم المهمة هنا انه عندما يتم تتويج أحد ملوكهم - أو ملكاتهم - فانه لا يسمح له بدخول المدينة القديمة الا بعد الحصول على اذن رئيس البلدية. ولذلك يتوقف موكب الملك بانتظار وصول الإذن. وهذا التقليد قديم يعود الى الأيام التي كان الانكليز يطالبون فيها بالحد من سلطة الملوك الفردية.

ومن الجدير بالملاحظة ان التقاليد ورعايتها لا تشدّهم الى الوراء. فعندهم من المرونة الذهنية ما يجعلهم يتقبلون الأفكار الجديدة اذا أحسوا بفائدتها ومعقوليتها. انهم يحترمون الماضي ويقدرونه، ولكن الماضي ذهب بحسناته وسيئاته. ومن هنا نراهم يتطلعون دائما الى يوم غد، الى التقدم والتطور والتعايش مع حقائق العالم بواقعية.

عند العشاء كان هناك أربعة مدعوين من الانكليز الذين أقاموا في الأردن فترات من الزمن. أول هؤلاء السير اليك كركبرايد، والمساتر ريتشموند وغوردون وبرانت. كلهم يتكلمون العربية ويعرفون بلادنا معرفة جيدة. كان الحديث ممتعاً. ومما رواه كركبرايد ان الملك عبدالله كان يأكل الجراد، وقد دعاه أكثر من مرة لمشاركته وجبة منه. وذات يوم وعد ان يلبي الدعوة، الا انه لم يلبث ان اعتذر. بعد

العشاء بساعة استأذن أربعة من الرفاق وذهبوا الى السفارة للعب الورق مع السفير. وعلى الأثر غادرنا كركبرايد وريتشموند، وسهر الآخران مع سعيد ومعي ساعة أخرى، دار الحديث خلالها عن لورنس وجرترود بل وبرنارد شو.

جولة أخرى في لندن

في اليوم التالي زرت المتحف البريطاني، وشاهدت نسخة من وثيقة الماجنا كارتا التي اضطر الملك جون الى توقيعها وهي تمنح الشعب البريطاني حقوقه الدستورية. كنت انا وسعيد العيسى وحدنا. وشاهدنا في المتحف عجلين ضخمين جيء بهما من خراسباد في الموصل (قبل شهر شاهدت مثلهما في العراق). وشاهدنا تماثيل مدهشة جيء بها من مصر. شعرت بالأسف لوجود هذه الآثار الثمينة في لندن بدلاً من أن تبقى في مواطنها الأصلية.

بعد ذلك انضم الينا رفاق الرحلة وذهبنا سوية الى وزارة الخارجية، حيث استقبلنا السير وليم هيتر. وبعد ذلك حضرنا المؤتمر الصحفي لوزارة الخارجية، حيث يجيب الناطق الرسمي على أسئلة الصحفيين.

ثم زرنا دار الاذاعة (القسم العربي) فالتقينا هناك بالاستاذ حسن الكرمي. وبعدها زرنا متحف مدام توسو الشهير، حيث شاهدنا تماثيل رائعة من الشمع لعدد من المشاهير، من بينهم ستالين وهتلر وشو ولورنس (بالزي العربي) وهنري الثامن مع بعض زوجاته اللائي أمر بقطع رؤوسهن لكي يشبع نهمه الجنسي. وهذه التماثيل على قدر عظيم من الدقة، ذكّرني ببيت شعر البحتري في سينيته الرائعة:

يغتلي فيهم ارتيابي حتى　　　　تتقرّاهم يدايَ بلمسِ

ثم زرنا في الطابق الأرضي حجرات تُعرض فيها مشاهد مخيفة لأساليب الاعدام والتعذيب في العصور القديمة، وهي مناظر يقشعر لها البدن، وتدل على قسوة الانسان ووحشيته.

قيل لنا ان ازدياد عدد سكان لندن دفع الحكومة الى انشاء سبع مدن حولها، لتخفيف الضغط عنها. وعلى هذا زرنا مدينة كراولي، احدى تلك المدن السبع. وقد أُعجبنا حقا بأن المسؤولين نظموا المدينة الجديدة حتى تستوفي جميع الحاجات الضرورية، ومن جملة ذلك الحدائق والمدارس والملاعب.

مما لاحظته ان الناس هنا ينظرون الى كل أمر بجدية بالغة. وتتجلى تلك الجدية في أقوالهم وأفعالهم. هنا لا تجد روح الاستهتار أو عدم الاكتراث، كما انك لا تجد الميل للسخرية من الآخرين او الاستهانة بهم.

بائع الحليب يوزع زجاجات الحليب على أبواب المنازل، فتبقى هناك حتى يأخذها أصحابها. وفي ساحة ترافلجار ترى طيور الحمام والناس يلقون لها بالحبوب، بل تراها تقف على أكتافهم وأيديهم، دون ان يمسها أحد بأذى. وقال رفيقنا لورنس: لو ان أحداً حاول ان يؤذي حمامة أو يقتلها، لهاجمه الآخرون في المكان وضربوه. ومما استلفت ذهني منظر السيدات والرجال وهم يصطحبون كلابهم الأليفة بقصد إتاحة مجال الرياضة لها. بل شاهدت سيدة تصطحب سبعة كلاب من النوع الصغير، وقد حملت اثنين منها تحت أبطيها. وكنت أرى أحياناً كلاباً من النوع الكبير Bull Dog وهي تسير الهوينا، مشية الخيزلى، لكثرة ما عليها من اللحم والشحم، كأنها الخراف المعلوفة.

واستلفت نظري أيضا أنهم يعملون هنا خمسة أيام في الاسبوع ويرتاحون يومين. ولكنهم خلال تلك الأيام يعملون بالجدية التامة ٤٠ ساعة (مقابل ٣٦ ساعة في بلادنا على مدى ستة ايام). كما ان أيام العطل السنوية (من دينية وقومية ووطنية ...الخ) أقل بكثير مما هي عندنا في الأردن.

ودعانا السفير الرفاعي لحضور مسرحية (أين شارلي؟) وهي مسرحية هزلية تقوم على المغالطات، ويتخللها رقص وغناء. وقد أطربتنا المسرحية فضحكنا كما لم نضحك من قبل. وبهذا الصدد سألت عن امكان حضور مسرحية (سيدتي الجميلة) المقتبسة من مسرحية برنارد شو (بيجماليون) والتي كان من المقرر البدء بعرضها يوم ١ أيار، فقيل لي ان تذاكرها نفدت سلفاً لمدة العامين القادمين! فتأمل يا رعاك الله.

اما حدائق لندن فلا تسل عن زهورها وورودها، وقد تفتحتْ بكامل بهائها، وخاصةً زهور التيوليب والدافودايل، متعةً لنفوس الناظرين.

مـن عـــادات الانكلـــيز

كان البرنامج يقضي بأن نذهب يوم السبت لمشاهدة مباراة كبرى لكرة القدم، سوف يحضر ما لا يقل عن مائة الف شخص لمشاهدتها. ولكن بعض رفاق الرحلة أبدوا عدم الرغبة في الذهاب اليها، فأُلغي الموضوع بالنسبة للجميع. وقد استغرب مرافقونا الانكليز ذلك، لانهم مولعون جداً بمشاهدة هذه المباريات، وأعتقد أنهم بينهم وبين أنفسهم سخطوا علينا لاننا، بعدم ذهابنا، حرمناهم من متعة حضور المباراة.

وهكذا اتصلت بصديقي كلارك (من أيام العمل في شركة بترول العراق في المفرق) فجاء الى الفندق واصطحبني معه لقضاء يوم مع اسرته. وفي ذلك اليوم تعرفت على حياة الأسرة في بريطانيا، ووجوه الاختلاف في ذلك بيننا وبين الانكليز.

من بداية البداية يصرّ الفتى والفتاة على أن يقيما حياتهما الزوجية في منزل منفرد خاص بهما. وعلمت ان كثيرين منهم ينتظرون سنوات وسنوات حتى يتمكنوا من تأسيس منزل مستقل. ثم هم يحدّدون النسل، وفي الأعم لا ينجب الزوجان أكثر من طفل أو اثنين. والقصد من ذلك اعطاء أفضل الفرص المعيشية للطفل او الطفلين من جهة، وللوالدين من جهة ثانية. مرافقنا لورنس قال انه أنجب وزوجته ولداً واحداً على الرغم من ان دخله السنوي لا يقل عن خمسة آلاف جنيه (هذا سنة ١٩٥٨) ويملك منزلاً وسيارتين. وقد برّر موقفه هذا بقوله انه اذا أنجب أكثر من ولد واحد فانه سيضطر الى التضييق على نفسه، وهو لا يحب ذلك، كما انه يريد ان ينفق عن سعة على ابنه. وصديقي كلارك وزوجته الألمانية أنجبا ولدا وبنتا. وقال ان إنجاب الأطفال بالنسبة للانكليز ليس الغاية النهائية من الحياة. ومن مبادئهم ان يعطوا ابنهم رعايةً تامة الى أن يكبر ويشقّ له طريقا في الحياة، ثم يتركونه وشأنه. فاذا نجح كان حسناً واذا لم ينجح فالذنب ذنبه وعليه ان يتدبر أمره. لقد أدى الوالدان واجبهما كاملا. وبعد ذلك ترى الوالدين ينصرفان الى حياتهما الخاصة، الى قراءة الكتب والعناية بحديقة المنزل، والقيام بالرحلات السنوية، والاستمتاع بما يتيسر من مباهج الحياة.

ومما عرفته ان الحكومة تسير في فرض الضرائب على الأسلوب التصاعدي. واذا توفي شخص ثري، فان الحكومة لا تبقي للوارثين الا قسطاً ضئيلاً من الثروة. بل قيل ان ضريبة التركات تلاحق الورثة في بعض الحالات، فتأخذ منهم بدل ان تعطيهم. والتركات تخضع للضريبة التصاعدية، ابتداء من الفي جنيه (في عام ١٩٥٨) فصاعدا. أصحاب الشركات الكبيرة في واقع الأمر ليسوا أكثر من موظفين، اذ لا يُسمح لهم بتكديس الأموال، ،اذا استطاعوا تكديس الأموال بطريقة ما، فان الحكومة ستستولي عليها عند وفاتهم. ،من هنا فان أبناء الأغنياء يضطرون الى ممارسة العمل بأنفسهم، ولا يتمكنون من مزاولة حياة لاهية بما ورثوا عن آبائهم:

إن الشبابَ والفراغَ والجِدَهْ مفسدةٌ للمرءِ أيُ مفسدهْ

وهناك الضمانات الاجتماعية. فالعمل متوفر للجميع. وأفضل المداخيل هي مداخيل أصحاب الحرف والصناعات. وأي انسان يستطيع أن يعيش حياة كفاف معقولة. فالفتاة التي تعمل خادمةً في فندق تتقاضى راتباً لا بأس به، بالاضافة الى طعامها والى الاقامة في النزل الخاص بالفندق. وهم لا يعانون من العقد الاجتماعية، حتى ان صديقي كلارك هذا الذي خدم في الجيش ضابطاً في أثناء الحرب العالمية الثانية، ثم عمل في شركة بترول العراق بضع سنوات في منصب اداري. ثم عاد والتحق بالجيش ثانيةً فبلغ رتبة رائد (ميجر) - أضطر أن يمارس بعد زواجه (وقد

تجاوز سن الأربعين) أعمالاً عادية مختلفة، حتى انه كتب لي ذات يوم انه يخدم في وظيفة تعادل وظيفة (فرّاش)، أي آذن أو مراسل. وبعد ان بلغ الستين من العمر أخذ يعمل في العناية بالحدائق المنزلية لعدد من سكان البلدة التي يقيم فيها. والمنزل الذي وجدته يقيم فيه كان في الأصل واحدا من المنازل التي أنشأتها شركات مرتبطة بالحكومة، ووزعتها على من يستحقونها مقابل أقساط سنوية يدفعونها.

الانكليز في بلادهم

يبذل الانكليز جهداً فائقاً لتجميل منازلهم وحدائقهم، كي تغدو الحياة أكثر بهجة ورونقاً. ورأيت منزل كلارك يتألف من طابقين: الأول يضم غرفة استقبال وغرفة طعام ومطبخاً ودورة مياه، والثاني يضم ثلاث غرف واحدة للزوجين وواحدة للابن وأخرى للابنة. والغرف صغيرة ولكنها كافية. ومعظم خزائن الغرف صنعها كلارك بنفسه، ففي البلدة مدرسة ليلية يستطيع المرء فيها ان يتدرب على احدى الحرف مقابل نصف جنيه في الشهر، فكان يبتاع الخشب، ويعمل في المدرسة على تقطيعه ومسحه وتركيب قطعه ليصبح خزانة، ثم ينقلها الى المنزل ويبتاع الدهان اللازم. كما انه قام بالصاق الورق المقوى على جدران المنزل، بحيث كانت كلفة الغرفة جنيهاً بدل أن تكلفه خمسة وعشرين جنيهاً لو انه جاء بعامل يلصقها، لان أجور أصحاب الحرف مرتفعة جداً عندهم.

وحدثني انه كان يتقاضى آنذاك نحو اربعين جنيهاً راتبا في الشهر، يدفع منها قسط المنزل وقسط شركة التأمين التي ستقوم في المستقبل بتعليم ابنه. أضف الى هذا أن زوجته تعمل في أحد المتاجر الكبيرة. بحيث تتمكن الأسرة من العيش حياة سعيدة، على قاعدة ''على قدر لحافك مدّ رجليك''. ولو كان كلارك وزوجته أنجبا أربعة أطفال (مثلا) لارتبكت حياتهما أي ارتباك، ولعاشا وأبناؤهما في حالة هم وعوز دائمين. كل شيء عند الانكليز بحساب وليس على طريقة: «اصرف ما في الجيب يأتيك ما في الغيب». أو في نطاق مفهوم «بيت رجال ولا بيت مال». والفكرة القبلية القائلة. «عدّ رجالك وأرِدِ الماء»، أي ان كثرة رجال الأسرة تتيح لها مجال الورود الى الماء العذب، بينما تشرب الأسرة ذات العدد القليل من الرجال «كدراً وطيناً» على حدّ قول عمرو بن كلثوم - هذه الفكرة لا وجود لها عندهم لانها ذهبت بذهاب العصر الذي قيلت أصلاً فيه.

وتختلف تقاليد الطعام وآدابه في منازل الانكليز، اختلافاً جوهرياً عما هي عليه في بلادنا. فالزوجة هي ربة البيت حقاً وحقيقة. وهي تعدّ الطعام ليكفي أفراد الأسرة في الحدود المعتدلة. وهي تسكب وجبة الطعام في الصحون، فلا يبقى منها شيء في وعاء الطبخ، أو لا يكاد. انهم لا يضعون الطعام كله في باطية او منسف، في

وسط المائدة، وليأخذ كل واحد منه ما تشاء له شهيته. ومن هنا ترى الأكثرية الكاثرة من الناس ذوي قامات معتدلة رشيقة، لا تبرز البطون عندهم الا في حالات نادرة. هم يأكلون ليعيشوا ولا يعيشون ليأكلوا. وعندهم من متع الحياة الذهنية والرياضية ما يغنيهم عن متعة الأسراف في تناول الطعام.

ونظام المعونة الحكومية دقيق. فالحكومة تمنح كل متقاعد (بعد سن الستين للنساء والخامسة والستين للرجال) نحو عشرة جنيهات في الشهر. واذا كان هناك شخص متقاعد لا يقيم مع أبنائه أو أقاربه، فالحكومة تقدم له مبلغاً اضافيا يصل به الى حد الكفاية. وهناك مؤسسات عديدة تقدم مساعدات للمتقاعدين الذين لا أقارب لهم، حتى ان بعض دور السينما تخصّص يوماً في الاسبوع يُتاح فيه المجال لهؤلاء الحصول على تذكرة زهيدة الثمن.

والضرائب لا تضمها الحكومة الى ميزانيتها خبط عشواء. كل صاحب دخل يدفع ضريبة نسبية من دخله. لورنس رفيقنا دخله السنوي خمسة آلاف جنيه، ولكن لا يبقى له فعلا منها سوى ٣٥٠٠ جنيه. وتوزع الضرائب على أبواب الانفاق بنسبٍ معينة، فجزء للتأمين الوطني، وجزء لأعالة المتقدمين في السن وجزء للتطبيب، وجزء للتعليم، وهلمجرا.

وأعود للحديث عن كلارك، لأستدل من بعض جوانب سلوكه على سلوك الانكليز في بعض الجوانب الحياتية والانسانية. فبعد ان كبر ابنه وكبرت ابنته، تزوجا، وكان مكان اقامتهما غير بعيد عن مكان اقامته. وبقي هو وزوجته في بيتهما، ومرّت سنوات وسنوات، وذات يوم توفيت زوجته بصورة مفاجئة، فكان ذلك ضربةً شديدة عليه اذ كان قد بلغ السبعين من عمره، ولكنه تمالك نفسه بسرعة، واتخذ قراراً ببيع المنزل الذي أمضى فيه سنوات سعيدة مع زوجته. وفي تلك الأثناء أقبل عيد الميلاد، فألحّ عليه ابنه وألحّت عليه ابنته، أن يقضي أيام العيد معهما، ولكنه خشي أن يعكر عليهما فرحة العيد. خشي أن يلاحظا اكتئابه فيحسّا بالكدر، فاعتذر عن عدم تلبية دعوتهما، وأصرّ على السفر الى تونس ليقضي أيام العيد فيها.

وعندما باع منزله، ألحّا عليه ان يرتّب أمر اقامته في مكان قريب منهما، كي يتمكن من زيارتهما والترويح عن نفسه بمداعبة أطفالهما، بين حين وآخر، الا انه أصرّ على ان يقيم في مكان بعيد، حتى لا يشعرا ان الواجب يقضي عليهما أن يزوراه في عطلة الاسبوع أو يدعواه الى منزل أحدهما. من هذا نلاحظ مدى الاختلاف بين اولئك الناس وبيننا، لان الآباء والامهات في بلادنا لا يملكون هذه المقدرة على كبح عواطفهم تجاه أبنائهم، ولا يملكون هذه الطاقة على العيش المنفرد بعيداً عن أقرب الناس اليهم.

الخطباء في هايد بارك

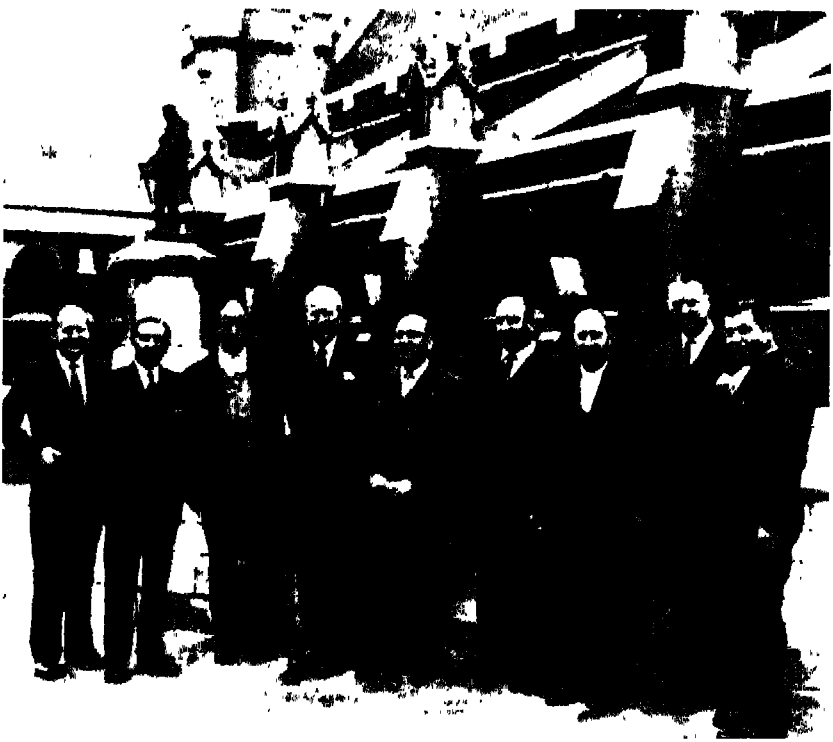
أدهشتني كثرة الشجر في هذه البلاد، قياساً على ما كنت شاهدته في الأردن وفي البلاد المجاورة التي زرتها حتى ذلك الحين (سوريا وفلسطين ولبنان والعراق).

يوم الأحد ذهبنا الى مدينة ايست بورن الساحلية، والتي تُعتبر مكان اصطياف بالنسبة لأهل لندن، يذهبون اليها طلباً للدفء والنزهة. وتناولنا الشاي في طريق الذهاب وطريق الاياب. فالشاي عند الانكليز له مواعيد تقليدية بين وجبتي الافطار والغداء، ووجبتي الغداء والعشاء. وأذكر انني كنت قرأت في أحد الكتب ان جيشاً بريطانياً خسر معركة كان يخوضها، لان الجنود تراجعوا عن مواقعهم المتقدمة من أجل شرب الشاي في موعده. ولا أدري هل كان ذلك صحيحاً ام انها نكتة اخترعها الرواة. وبعد العودة من ايست بورن، ذهبنا الى قوس المرمر Marble Aıch في حديقة هايد بارك، حيث اعتاد بعض الناس في مساء يومي السبت والأحد أن يعبروا عن آرائهم علانيةً، مهما تكن غريبة أو قاسية. ويُباح لهؤلاء ان يطرقوا أي موضوع الا التعرّض لشخص الملكة فقط. وترى البعض يأتون بسلم ذي جناحين، مما يستعمله أصحاب الحرف، فيقف الخطيب على درجات الجناح الخلفي، بينما يضع على الواجهة الامامية لوحة عليها كتابة تدل على اتجاهه الفكري. وقد شاهدت أحد الضباط المتقاعدين يخطب ضد الحرب وحوله جماعة من مؤيديه. وسمعته يصف دالس (وزير خارجية اميركا) ومكميلان (رئيس وزراء بريطانيا) بأبشع الأوصاف، لانهما لا يستجيبان لدعوة الاتحاد السوفياتي لايقاف التجارب الذرية. وشاهدت خطيباً من ايرلندا يصف مظالم الانكليز في بلاده. وشخصاً ثالثاً يتحدث عن مظالم الانكليز في افريقيا، وعن الفظائع التي يقترفها البيض تجاه الملوّنين. وشاهدت أعضاء جماعة دينية ولهم زيهم الخاص يقفون وهم يرتلون الأناشيد ويدعون الآخرين للانضمام الى صفوفهم والتعاون معهم في أعمال الخير. اما رجال الشرطة فيقفون على مقربة ، لا يتدخلون في أقوال أي خطيب، الا انهم على استعداد للقبض على من يؤدي بهم الجدل الى الشجار. ومن الطريف مشاهدة بعض المستمعين وهم يسلقون الخطيب بالكلمات اللاذعة والعبارات الساخرة، الهازئة، ويسفّهون آراءه ويوجهون اليه التهم المختلفة، فيردّ عليهم بالاسلوب نفسه ويكيل لهم الصاع صاعين، كأن يقول لأحدهم: لو انني أصغيت لآرائك لأضحيت مغفلاً مثلك، وهكذا. ولا يقتصر حضور هذه التجمعات على الرجال، لأنني رأيت أعداداً من النساء يقفن وسط المحتشدين. وهذه التجمعات بالنسبة لكثيرين توفر نوعاً من الترويح عن النفس في ساعات العطلة.

وحدثنا المستر تيلور الذي كان يرافقنا في تجوالنا عن حادث شاهده بأم عينيه في حديقة هايد بارك. كان هناك شخص أجنبي يخطب في جمهور من المستمعين

ويحضّهم على اعتناق الشيوعية ويهاجم الحكومة. ووقف أحد الناس يستمع للخطيب، الا انه ترك محرك سيارته دائراً. وبعد قليل تقدم أحد رجال الشرطة نحو تلك الجماعة، فساد الظن في نفوسهم ان الشرطي يريد القاء القبض على الخطيب أو اصدار أمر اليه بالانصراف. ولكن الشرطي لم يفعل سوى انه طلب من صاحب السيارة أن يطفيء محركها، كي يتمكن الحضور من الاستماع الى أقوال الخطيب دون ازعاج. وهكذا كان.

في اليومين التاليين زرنا مصنعاً للطائرات، ومكاتب شركة رويتر، وتناولنا طعام الغداء في مطعم شعبي فوقفنا في الصف نحو ٢٠ دقيقة حتى وصلنا الى مائدة الطعام. وجبة الأكل كانت على طريقة أخدم نفسك، ولذلك كانت رخيصة نسبيا، ثم زرنا حديقة الحيوانات. وفي المساء أقامت الجمعية العربية ـ البريطانية حفل استقبال لنا، وهناك التقينا الجنرال سبيرز، رئيس الجمعية، وعدداً من أعضاء الجمعية.



لندن (نيسان ١٩٥٨): من اليمين: سليم الشريف، سليمان موسى، صادق الشنطي، رجا العيسى، النائب ردمين، منيب الماضي، سعيد العيسى، سنكلير.

فــي اوكســفــورد

زرنا مدينة اوكسفورد التي تشتهر بجامعتها. ورافقتنا في الزيارة السيدة كيل، وهي زوجة محام، وتتطوع لأداء مثل هذه المهمة، مثل عدد آخر من السيدات والرجال. كثيرون في تلك البلاد يتطوعون للقيام بأعمال من هذا الطراز. والعبرة ليست في التطوع فقط، بل في المجالات التي تتيحها مؤسسات الحكومة للمتطوعين في مجال الخدمة العامة. جامعة اوكسفورد ليست جامعة بالمعنى المتداول، فهناك خمس وعشرون كلية، مستقلة عن بعضها البعض. وتفرجنا في مكتبة احدى الكليات على كتب عربية قديمة من جملتها مخطوطة الجغرافي العربي الشهير الأدريسي (نزهة المشتاق الى اختراق الآفاق) ونسخة من مقامات الحريري. ومن تقاليد الكليات التي يجتهدون في الحفاظ عليها، ان يقيم الطالب في غرفتين اثنتين واحدة للنوم والاخرى للدراسة. ولذلك تجد ان عدد الطلاب في الكلية يتراوح بين ٢٠٠ الى ٣٠٠ طالب وطالبة فقط.

تذكرت في اثناء زيارة احدى الكليات، رباعية لعمر الخيام (ترجمة محمد السباعي):

آه لو رضتُ القضاء المغشما   فانبرى يلغي معي ما أبرما

لتناولنا النظامَ الأشأمـا   فسحقناهُ هباءً ينتشر

وأعدناه على أشهى غرار

آه لو أن الأقدار سمحت بأن يتلقى المرء تعليمه هنا!

ريـــدر بـــولارد

في اوكسفورد التقينا بالسير ريدر بولارد، مؤلف كتاب (ولكن الأباعر يجب ان تمشي). وكان بولارد هذا معتمداً لبريطانيا في الحجاز في السنوات الثلاث الأخيرة من حكم الملك حسين بن علي (١٩٢٢ ـ ١٩٢٤). وقد ذكرت له انني ألّفت كتاباً عن سيرة حياة الحسين، فسألني: هل عرفته شخصياً؟ قلت: لا، ولكنني درست مؤلفات عديدة تتعلق به والثورة العربية التي تولى قيادتها. وكان تركيزي على المسؤولية القومية التي حملها على عاتقه. عندئذ تحدث بولارد عن الحسين وعن وجود اليهود في فلسطين. فقال:

ان سبب انهيار مملكة الحسين يعود الى شدة اعتداده بنفسه، واستصغاره لشأن ابن سعود. كان الحجاز بلداً فقيراً لا يستطيع ان يكفي نفسه بنفسه. ولذلك لم يعد بمقدور الحسين (بعد ان انقطعت المعونة البريطانية) أن ينفق على الجيش ويرضي القبائل البدوية. وحدث مرةً ان قبيلة حرب اعترضت سبيل الحجاج

الهنود بالقرب من المدينة ولم تسمح لهم بمواصلة السير الى مكة، الا بعد ان دفعوا مبلغاً من المال.

كانت تلك الحادثة فضيحةً دلّت على ضعف الحكم وعلى ان الحسين أصبح عاجزاً عن بسط الأمن في البلاد. وفي الفترة الأخيرة من سني حكمه، ضعفت سيطرته على أعصابه فلم يكن يسمح لأحد بانتقاد أساليبه. قلت لبولارد: ولكنه وقف مع مبدئه القومي. فأجاب: أجل. كان موقف الحسين موقف الحر النبيل. وقال انه معجب أشد الأعجاب باصراره على الدفاع عن حقوق العرب. ولكن الامور لم تسرْ كما كان يحب، لان دول الحلفاء بعد انتهاء الحرب العالمية، أخذت تعمل من أجل تحقيق أطماعها في البلاد التي احتلتها، ولو ان الحسين تفاهم مع ابن سعود، لكان ذلك أفضل حل وأكثر فائدة للعرب. ولكن الحسين أخطأ في انه لم يقدّر ابن سعود التقدير اللازم.

وتحول الحديث الى وجود اسرائيل فقال انه يعتقد ان وجود اسرائيل سوف يعود في النهاية بالضرر البالغ على اليهود أنفسهم، وبخاصة خارج اسرائيل، لانه سيضعهم دائماً في موقف الولاء المزدوج لبلدين اثنين (اسرائيل والولايات المتحدة ـ مثلا). ووضع كهذا لن يلبث طويلاً حتى يخلق البغضاء لهم في نفوس المواطنين الآخرين.

وعن أصل فكرة الوعد لليهود (وعد بلفور) قال بولارد: الفكرة أدخلها شخص أرمني في ذهن مارك سايكس في شتاء سنة ١٩١٦، وسايكس نقل الفكرة الى وايزمن، وهذا تحدث مع بلفور وأقنعه بقبولها. واقتناع بلفور يعود الى ان تعليمه في صغره كان مبنياً على تعاليم العهد القديم (التوراة)، تلك التعاليم القائلة بأن فلسطين هي أرض الميعاد.

اما عنوان كتاب بولارد، فمأخوذ عن عبارة قالها الميجر يونغ في العقبة. فقد كان يونغ هذا مسؤولاً عن تأمين اللوازم والمؤن للجيش العربي. وكانت الجمال الواسطة الوحيدة في تلك الأيام لنقل اللوازم والمؤن. وعلى ما جاء في مقدمة هذا الكتاب، فان يونغ طلب ذات يوم من أحد الضباط العرب ان يرافق احدى القوافل من العقبة الى القويرة، ولكن الضابط رفض قائلاً انه جاء ليحارب من أجل استقلال العرب، وانه لا يتلقى الأوامر من أي انسان. ورد يونغ عليه قائلاً: انت مستقل، والأمير فيصل مستقل، وأنا مستقل «ولكن الأباعر لازم تمشي». ويبدو أن هذه القصة ذاعت بين الضباط العراقيين في جيش الثورة، فأخذوا يستعملونها كلما حزب أمر أو عرضت مشكلة عويصة.

بعد ذلك بعشر سنوات اطلعت على تقارير بولارد التي كان يرسلها من الحجاز، فوجدت فيها من التجنّي والتشدد مقداراً غير قليل. في تلك الأيام كان بولارد

موظفاً، يعمل في حدود مهامه الوظيفية والتعليمات التي يتلقاها من حكومته. وبعد ذلك بسنوات طوال، أخذ يدرك وضع الملك حسين كزعيم وطني يسعى لتحرير بلاده وتوحيد أقطارها. وقد هالته الاتهامات التي أخذ يوجهها بعض العرب للحسين، فحثّ صديقه اليك كركبرايد على تأليف كتابه (يقظة العرب An Awakening).

منطقـــة البحـيرات

امتدت اقامتنا في لندن عشرة أيام، ثم مضينا في قطار ليلي باتجاه الشمال الى حدود اسكوتلاندا. وهناك زرنا محطة (كولدر هول) للطاقة المستمدة من الذرّة. هنا شاهدنا منشآت هائلة. وخزانات بالغة الضخامة ترتفع مائة متر وتقوم مياهها بتبريد الآلات. ثم مضينا الى بلدة كزك، ونزلنا في فندق قيل لنا ان الملك حسين كان نزل فيه قبل خمس سنوات (اي سنة ١٩٥٣). وكان من المدهش بالنسبة لي، أننا زرنا دار البلدية، فوجدنا سيدة تتولى رئاستها. وقيل لنا ان المجلس البلدي يتألف من ١٢ عضوا، ينتخب الأهلون كل سنة أربعة منهم، بحيث يبقى ثمانية أعضاء لهم خبرة بادارة قضايا البلدة. والرئيسة والأعضاء لا يتقاضون رواتب، ولكن يحق للرئيسة ان تنفق خمسين جنيها في السنة على الضيافة. وتتمتع المجالس البلدية في بريطانيا بصلاحيات واسعة، فهي تشرف على شؤون التعليم وقضايا الأمن المحلي. ويُعرض أمر الحوادث التي تقع في البلدة على قضاة محليين فيفصلون فيها أو يرفعونها الى قضاة أرفع مقاما منهم.

تقع كزك في منطقة البحيرة Lake District التي يُقال انها من أجمل مناطق بريطانيا. ويفاخر أهل المنطقة بعدد من الأدباء والشعراء الذين أنجبتهم، ومنهم الشاعر وردزورث (زرنا المنزل الذي ولد فيه والمنزل الذي عاش فيه) وراسكن وشلي والروائي الشهير دكنز. وفي المنطقة اكثر من عشر بحيرات تحيط بها الهضاب والجبال المكسوة بالأشجار الباسقة والحشائش الخضراء. وخرجنا يوم السبت نتجول بين القرى وعلى ضفاف البحيرات، فشاهدنا أفواج الأهلين يروحون ويغدون وحداناً وزرافات. وبدا لي ان المباهج الثلاثة اجتمعت هنا «الماء والخضراء والوجه الحسن». فالشبان يتأبطون سواعد الفتيات، وهم يتناجون وترنّ ضحكاتهم المرحة. وترى الناس هنا ممتلئين عافية تشرق الابتسامات على وجوههم. وهم رياضيون، تراهم من الجنسين يرتدون البنطلونات ويحملون حقائبهم على أكتافهم ويسيرون على أقدامهم بين الشعاب والهضاب، أو يركبون الدراجات ، أو يجدّفون في القوارب. كما ان النساء يرتدين الملابس الزاهية ذات الألوان المرحة.

الأمانة أمر مسلّم به. ففي الفندق وجدت غرفتي دون مفتاح. ولدى السؤال قيل انه لا توجد مفاتيح للغرف اذ لا ضرورة لذلك. وفي البلدة شاهدت صبياً وجد منديلا

نسائياً، فذهب الى الشرطي يريد أن يعطيه له. ولكن الشرطي طلب منه ان يذهب الى المتجر الذي عثر على المنديل بالقرب منه. وفي لندن واوكسفورد شاهدت الصحف على ركائز خشبية، وفوق كل ركيزة صحن صغير يضع فيه الناس ثمن الصحف التي يبتاعونها. هنا ذكرت حديث الرسول العظيم «الدين المعاملة».

فيما بعد تحدث سليم الشريف عن مشاكل الصحف في الأردن، وقال ان الدفاع وفلسطين والجهاد تتلقى كل منها مساعدة من الحكومة مقدارها ٢٠٠ دينار في الشهر.

كثير من أراضي هذه المنطقة ملك الأمة، ويحافظ المجلس البلدي عليها ويُعنى بها. وبين كل مسافة ومسافة ترى لافتة تحض الناس على ان لا يتركوا شيئاً على الأرض عندما يخرجون للنزهة. والى جانب اللافتة ترى صندوقاً من الخشب لحفظ الفضلات التي يلقيها المتنزهون.

وخرجت في الصباح الباكر (يوم الاحد) انا وسنكلير في مشوار خارج البلدة، فشاهدت كثيرين غيرنا خرجوا للنزهة، منهم من يسير على الطرق ومنهم من يتسلق الهضاب، ومنهم من يستأجر قارباً لكي يجوب البحيرة وهو يجدّف. وعند وصولنا الى قمة التلة، رأيت رجلاً كهلاً وصل اليها في نفس الوقت، فأومأ برأسه محيياً، ثم جلس الى جانب احدى الصخور وزفر بأنفاس عميقة، وأخذ يمتّع بصره بمناظر الطبيعة.

من عاداتهم أن يبدأوا الحديث في اللقاءات العابرة عن أحوال الطقس، فيقول أحدهم: طقس جميل هذا اليوم، أو يقول: يا له من صباح بديع. ويردّ عليه الآخر بعبارة ملائمة. وهم في الغالب يتوقفون عن الحديث بعد هذه العبارات، لانهم بطبيعتهم لا يميلون الى الثرثرة.

رياضـــــة الأبـــدان

وفي القرى تراهم يؤلفون تشكيلات رياضية خاصة للمشي على الدروب Hiking Association ويشترك في هذه التشكيلات فتيان وفتيات فيما بين الثانية عشرة والعشرين من أعمارهم. وهكذا تراهم ينطلقون في عطلة نهاية الاسبوع جماعات جماعات، وهم يرتدون ملابس خاصة للرحلات تتألف في معظم الحالات من جاكيت وبنطلون وحذاء خفيف وقبعة ورداء خارجي من المشمع للوقاية من المطر. هذا بالاضافة الى حقيبة يحملها كل واحد وتحتوي على طعام وأشياء ضرورية أخرى. وفائدة تلك التشكيلات أن أعضاءها ينزلون في منازل أُقيمت خصيصاً لكي يقضوا فيها بعض الوقت، بين كل مسافة وأخرى. وفي تلك المنازل تراهم يشعلون نار الفحم في المواقد ويطبخون طعامهم أو يسخنونه. وقد يقضون

ليلة في أسرّة المنزل، اذا أدركهم الليل، ومقابل ذلك يدفعون أجوراً زهيدة.

وهذا النوع من الرياضة يساعد على صقل الأبدان وترويضها على تحمل المشاق في المستقبل، ويخلق روح الاعتماد على النفس، ويهذب الطباع والغرائز، اذ يعتادون على الاختلاط منذ الصغر، وقيل ان جماعة من الفتية قد لا يجدون صاحب النزل، بل يجدون انه أودع المفتاح عند الجيران، فيأخذون المفتاح ويقضون ليلتهم وفي الصباح يرتّب كل واحد سريره ويقومون بتنظيف المكان ويتركون الأجرة المتعارف عليها في علبة صغيرة، ثم يعيدون المفتاح للجار، ويستأنفون سيرهم.

واتجهنا بعد كزك الى مدينة كارلايل، على الحد الفاصل بين انجلترا واسكتلندا. هنا شاهدنا بيتاً كانت تُعقد فيه الزيجات للشبان والفتيات الذين يأتون من انجلترا لهذه الغاية. والسبب ان قوانين الزواج في انجلترا لم تكن تسمح للفتاة ان تتزوج دون موافقة أهلها الا بعد ان تبلغ الحادية والعشرين من عمرها، بينما كان قانون اسكتلندا يسمح بذلك للفتاة التي تجاوزت سن الثامنة عشرة. ثم تدخّل رجال الدين وأوقفوا هذه العادة. اما اسم البيت فهو (حذوة الحصان Horse Shoc). فهل يا ترى أخذت مقاهي ـ الهورس شو ـ اسمها من اسم ذلك البيت؟

جلاسجـــــــو

ومضينا الى مدينة جلاسجو، وقمنا برحلة نهرية في نهر كلايد، وهناك شاهدنا أحواض السفن وما يجري فيها من عمل لبناء سفن جديدة من مختلف الأحجام، ومن جملتها أحواض الشركة التي قامت ببناء أضخم باخرة في العالم (كوين اليزابث) وحمولتها ٨٣ الف طن (لا أدري اذا كان تمّ بناء بواخر أضخم من هذه بعد سنة ١٩٥٨). وفي الزورق الذي طاف بنا، دفتر للزائرين وضعنا عليه أسماءنا. وقلّبت بعض صفحاته فرأيت اسماء الأمير فيصل آل سعود ونوري السعيد وصحافيين من الأقطار العربية.

ثم زرنا مصنعاً لقاطرات سكة الحديد. وقيل لنا ان أمثال هذا المصنع تتحول في أيام الحرب لصنع الأدوات الحربية، مثل عربات المدافع والسيارات المصفحة والمحرّكات وقطع الغيار. وفي مكتب ادارة الشركة صور بعض الشخصيات الذين قاموا بزيارتها، ومن بينها صورة للملك فيصل بن الحسين ومعه نوري السعيد ولورنس، وتعود الى سنة ١٩١٩.

وسقطت ورقة نقد من جيب منيب الماضي على مقعد السيارة، فلحقت السائقة به وهي تقول: سيدي، لقد وجدت هذه على مقعدك. وفي الصباح شاهدت بائعي الصحف يأخذون النقود التي تجمعت في الصحون على جوانب الرصيف، ثمناً للصحف التي بيعت في ساعات الليل. وقيل ان من النادر ان يكتشف أحد اولئك

الباعة نقصاً في نقوده، مع انها تبقى ظاهرة للعيان في شارع رئيسي لا تنقطع الحركة فيه طوال الليل.

وتشتهر جلاسجو بالصناعات الثقيلة، فترى دخان المصانع يتصاعد في الفضاء فوقها. وقد مررنا بالقرب من مصانع هائلة للفولاذ، يأتون لها بالمعادن الخام من افريقيا والسويد.

ومضينا في رحلتنا فزرنا محطتين لتوليد القوة الكهربائية، من سدود ضخمة على نهر تاي. وبعد ذلك اتجهنا جنوبا فشاهدنا جسراً من الفولاذ بالغ الضخامة والامتداد، وقيل ان طوله يقارب الفي متر، ويرتفع على هيئة نصف دائرة حتى تمر السفن من تحته. وهذا الجسر تعبر عليه خطوط سكة الحديد ذهابا وايابا، وهو من أعظم الانجازات الهندسية التي شاهدتها.

أدنـــــبرة

في الطريق الى أدنبرة، حدّثنا رفيقنا كريستي، بالقصة التالية:

ينبغي على المرء ان يكون حذراً في حديثه، حتى لو انه كان في بلاد أجنبية. فقد حدث أن رجلاً جاء من اسكتلندا لزيارة لندن، وهو يرتدي الألبسة الوطنية التي يستعملونها هناك (التنورة المزركشة التي تكشف عن الركبة والساقين). وجلس الرجل ذات يوم في قاعة الفندق، وكان على مقربة منه جماعة يتحدثون باللغة الروسية، فقال أحدهم. انظروا الى ساقي ذلك الرجل ما أبشعهما. وكم كانت دهشة الجماعة عندما رأوا الاسكتلندي يلتفت نحو الرجل المتحدث ويقول له بالروسية: ولكنهما يا سيدي الساقان اللتان وهبهما الله لي.

بلغنا مدينة أدنبرة (عاصمة اسكتلندا) فبدت لنا زاهية بهيجة في ذلك اليوم الربيعي الذي كانت الشمس تشرق فيه بكل بهائها. هنا في وسط المدينة نصب تذكاري عظيم للروائي الشهير والتر سكوت، لا يقل روعة وفخامة عن النصب الذي أقامته الملكة فكتوريا لزوجها البرت، في حديقة هايد بارك في لندن. وزرنا كلية هريوت ـ واط، التي تدرّس اثني عشر فرعاً من فروع العلوم الفنية. وقيل لنا ان الكلية أُطلق عليها اولاً اسم جيمس واط مخترع آلة البخار، ثم أُضيف اسم هريوت بعد ذلك. والسبب ان هريوت هذا كان يعمل مع جيمس الاول ملك اسكتلندا، وجمع ثروة كبيرة في حياته. وعند وفاته أوصى بأن تخصص ثروته لانشاء مدرسة لتعليم الأيتام في أدنبرة. وحدث ان كلية واط كانت تعاني من عجز مالي، فطلبت العون من القائمين على تركة هريوت، فوافق هؤلاء على تقديم العون مشترطين اضافة اسم صاحب التركة الى اسم واط. وهكذا كان.

وفي أثناء ذلك حدثنا المستر سميث مدير قسم الرياضيات في الكلية، بالطرفة

التالية تدليلا على اعتداد الأسكتلنديين بأنسابهم وأحسابهم، وبالنابهين الأفذاذ من بينهم:

كان أحد الأساتذة في الكلية يغتنم كل فرصة تلوح له لكي يدخل في روع تلاميذه ان الاسكتلنديين عباقرة. وكان دائما يكرّر على مسامعهم قوله: لا تنسوا ان جيمس واط اسكتلندي، ولا تنسوا أن كالفن اسكتلندي، وان فلان وفلان وفلان اسكتلنديون ايضا. وحدث ذات يوم ان ذلك الاستاذ كان يشرح للطلاب الاكتشافات العلمية التي حقّقها العالم اليوناني الشهير أرخميدس. وبعد أن أطنب في امتداح ارخميدس، نهض أحد الطلاب ووجه اليه السؤال التالي:

- ترى، ألم يكن أرخميدس اسكتلندياً، يا سيدي؟

وزرنا قصر هولي رود (الطريق المقدس) الذي تقيم فيه ملكة بريطانيا مدة من الزمن في زياراتها السنوية لاسكتلندا. وفي هذا القصر شاهدنا الدرج الخلفي الذي اختفى فيه المتآمرون بقصد القضاء على عشيق الملكة ماري ستيوارت. وشعرنا من عبارات الدليل مقدار الحب الذي يكنّه أهل اسكتلندا لآل ستيوارت واحساسهم بأنهم كانوا ملوكهم الشرعيين. انك تراهم ما يزالون حتى الان يهتزون أسى كلما ذكروا مأساة الملكة ماري وحفيدها شارل الأول الذي قطع الانكليز عنقه، ومأساة الامير شارل، الذي جاء من فرنسا عام ١٧٤٥ ونزل في اسكتلندا محاولا استعادة عرش أجداده، فالتفّ حوله سكان المناطق الجبلية وزحفوا معه باتجاه الجنوب الى ان وصلوا الى دربي على مقربة من لندن. ولكن أنصاره لم يلبثوا ان أخذوا ينفضّون من حوله، فاضطر الى الاختفاء والعودة الى فرنسا. ثم لم يلبث الانكليز ان أنزلوا بأهل الجبال انتقاماً مريعاً ما تزال ذكراه عالقة في نفوسهم حتى اليوم.

وفي القلعة القريبة من قصر هولي رود شاهدنا التاج الاسكتلندي الذي كان جيمس الثاني آخر من وضعه على رأسه من ملوك اسكتلندا. وهناك تقليد يقضي بتقديم هذا التاج الى من ينصب ملكا على انكلترا واسكتلندا، حينما يزور أدنبرة لأول مرة بعد اعتلائه العرش. ومن خلال هذا يشعر الاسكتلنديون باستقلالهم.

ومن تقاليدهم بهذا الشأن انهم يغلقون أبواب القلعة في وجه الملك عندما يأتي الى المدينة بعد تنصيبه، ثم يقوم أحد كبار رجال المدينة بتقديم مفتاح باب القلعة له، فيتناوله، ثم يعيده لصاحبه. وعندئذ يُفتح باب القلعة وتدخل منه العربة الملكية.

هنا جناح خاص أُقيمت فيه الرسومات الجدارية تخليدا لذكرى الجنود الذين قُتلوا في الحربين العالميتين الأولى والثانية، وهنا سجلاّت تضم أسماء جميع أولئك الجنود. ولكل كتيبة سجل خاص بها، وتظهر في تلك الرسومات صفوف الجنود من مختلف الأسلحة، وكل صف يحمل أفراده سلاحاً يختلف عن سلاح الصف الآخر.

ولذلك ترى بوضوح رجال المدفعية والمشاة والفرسان والطيران والبحرية والهندسة وفتيات الاسعاف. وترى أسماء المعارك التي خاضها اولئك الجنود منقوشة بحروف بارزة على الحجر: غاليبولي ويافا وكوت الامارة وغيرها ... وهناك لوحة مؤثرة لجندي جريح يحيط به رفاقه ويسندون رأسه وهو يجود بروحه.

وتقرأ العبارات المؤثرة تحت الرسومات فتحسّ بالخشوع وتمتلىء نفسك بالتقدير لما يبديه هؤلاء القوم من اجلال لذكرى أبنائهم الذين سقطوا في ميادين الشرف. وعندما شاهدت رسومات المرضات بلباس الميدان قلت في نفسي: لقد ذهب الزمن الذي كان فيه خوض المخاطر مقصورا على الرجال حينما كان بمقدور الشاعر ان يقول:

كُتبَ القتلُ والقتالُ علينا وعلى الغانيات جرُّ الذيول

ففي الامم المتقدمة لم يعدْ من شأن النساء جرّ الذيول في أيام الشدة والخطر، بل الاشتراك مع الرجال جنباً الى جنب من أجل حماية الوطن.

وعدنا بالقطار ليلاً الى لندن. وفي القطار الليلي غرف صغيرة تحتوي على أسرّة نوم، لان الرحلة تستغرق أكثر من سبع ساعات. ولكن النوم لا يأتي الا لماماً في قطار يهتز وهو يقطع المسافات مسرعاً، وهدير عجلاته يصم الآذان.

مجلس العموم ـ مجلس اللوردات

كان سفرنا بالليل في ذهابنا وايابنا من أجل كسب الوقت في النهار. ولذلك مضى بنا مرافقونا ـ بعد استراحة غير طويلة ـ الى مبنى مجلس النواب الذي تعلو ساعة بج بن جناحه الشرقي. وكان يرافقنا المستر بجز في تلك الزيارة، فحدثنا عن مرافقته للملك الحسين خلال زيارته لبريطانيا في عام ١٩٥٣. وقد أبدى اعجابه بالملك، وقال ان جلالته كان منحرف الصحة بعض الوقت فنصحه الأطباء بالذهاب الى مكان يستجمّ فيه ويستعيد كامل عافيته، الا انه أصرّ على اتمام الجولة المقرّرة في البرنامج، لانه كان يقوم آنذاك بزيارة رسمية، ولا يجوز أن يتخلى عن القيام بواجبه.

وطفنا في أبهاء المبنى وشاهدنا القاعة التي يجتمع النواب فيها، وهي قاعة مستطيلة الا انها قليلة العرض، فرأينا النواب يجلسون متقابلين فيها على مسافة قريبة. وذكر النائب الذي استقبلنا ان وضع القاعة المستطيل كان من جملة الأسباب التي أدّت الى قيام حزبين رئيسيين في بريطانيا، بخلاف الأقطار التي يجتمع نوابها في قاعات مستديرة، والتي نشأت فيها ـ تبعا لذلك ـ عدة أحزاب.

ووقفنا نتأمل قاعة وستمنستر التي لا يستعملونها الا نادرا. فعندما يموت ملك

بريطانيا ينقلون جثمانه الى منتصفها، كي يتيحوا لأفراد الشعب فرصة المرور من جانبه والقاء نظرة الوداع الأخيرة عليه. وذكر النائب (ردمين) انه عند وفاة الملك جورج السادس (والد الملكة اليزابث) بقي الجثمان في القاعة بضعة أيام، لم ينقطع خلالها مرور المشيعين لحظة واحدة، في الليل والنهار، فكانوا يقفون صفاً متراصاً من باب المبنى حتى الشارع العام والجسر الذي يحاذيه، على مسافة نصف ميل، في صف لا يقل عرضه عن عشرة أشخاص. وهذا دليل على عمق الولاء وصدقه في نفوس اولئك القوم.

وانتقلنا الى قاعة مجلس اللوردات، فلاحظنا انها ضيقة لا تكاد مقاعدها تتسع لمجموع اللوردات، وهم نحو ٨٠٠ شخص. ولكن قيل ان معدل الذين يحضرون الجلسات منهم في الأحوال العادية هو خمسون. اما في المناسبات المهمة فيحضرون جميعهم. وحاول النائب ان يأخذنا الى قاعة داخلية تجلس فيها الملكة قبيل دخولها الى قاعة اللوردات، الا ان الحارس قال انه يُحظر دخول أي شخص الى تلك القاعة والى مقاعد اللوردات أنفسهم في أوقات انعقاد المجلس. ورأينا هناك منضدة تواجه المقعد الملكي، وعليها صولجان من الذهب يدل على سلطة الملكة. ويجلس رئيس مجلس اللوردات في وسط القاعة على كيس من الصوف، اتباعاً للتقاليد عندما كان النبلاء قديماً يجلسون على حشايا صوفية، قبل ان يبتدع الانسان صنع المقاعد الحديثة. وذكر النائب ان المسؤولين أرادوا ذات يوم تجديد الصوف الذي كان تلبّد في داخل الحشايا، وكم كانت دهشتهم عندما فتحوها وشاهدوا انها محشوة بشعر الخيول.

وازاء اعتراض الحارس، لم يتردّد النائب في قبول الأمر الواقع، واعتذر لنا بأنه لا يستطيع ان يخالف ما جرت عليه التقاليد (وفي يقيني انه لو خطر له ان يخالف التقاليد، لما سمح له الحارس بذلك).

ومن الجدير بالملاحظة ان مجلس اللوردات يقابل مجلس العموم (النواب) وتفصل بينهما قاعة فسيحة، اذا وقف الانسان في وسطها استطاع ان يشاهد مقعدي رئيسي المجلسين المتقابلين.

وعندما انتقلنا الى قاعة مجلس العموم، شاهدنا جماعات أخرى من الزائرين، كل جماعة يرافقها أحد النواب ـ فهم لا يسمحون للزوار العاديين ان يدخلوا الى تلك القاعة الا اذا كان يصحبهم نائب ـ مع استثناء يوم السبت من هذا الترتيب.

عند وصولنا الى مقاعد النواب، حاول بعض الرفاق الجلوس، ولكن دليلنا النائب قال انه لا يُباح الجلوس على هذه المقاعد الا للنواب أنفسهم. وشاهدنا المقاعد متقابلة على شكل مدرّج، وفي الصدر مقعد ضخم لرئيس المجلس الذي يطلقون عليه اسم «السيد الناطق» Mr. Speaker ويجلس أعضاء الحزب الذي يؤلف الحكومة على

المقاعد الى يمين الرئيس، بينما يجلس أعضاء الحزب المعارض على المقاعد الى اليسار. وشاهدنا البساط الذي فُرشت به القاعة وفي وسطه خطان متوازيان باللون الأحمر، على امتداد المقاعد المتقابلة بين الصفين الأماميين. وأوضح النائب سبب وجود هذين الخطين، فقال انه يعود الى تقليد قديم، حينما كان النبلاء يأتون وسيوفهم الطويلة بأيديهم. وخشية ان يشتبك الطرفان بالأسلحة، اذا ما حمي وطيس النقاش، فقد تم رسم خط أحمر بين صف النبلاء وصف النواب، وتقرّر أن يُعتبر التجاوز على ذلك الخط خرقاً للأنظمة. ومضى ذلك الزمن، وانقطعت عادة حمل السيوف، ولكن التقليد بقي. وحتى يومنا هذا اذا حدث ان تجاوز أحد الأعضاء ذلك الخط، فانك تسمع الصراخ من جميع أنحاء المجلس: النظام، النظام Order, Order. وقد يذهل النائب المخالف عن حقيقة الخطأ الذي ارتكبه، عندما يشاهد زملاءه يشيرون بأصابعهم اليه، حتى ينبهه أحدهم الى ان قدمه تجاوزت الخط الذي تمّ رسمه قبل ثلاثة قرون.

ومما يدل على مدى تمسك الانكليز بالتقاليد، ان قنابل الألمان أصابت المبنى في أثناء الحرب العالمية الثانية، فأخذ النواب يجتمعون في قاعة مجلس اللوردات. وفيما بعد اقترح البعض ان يُزاد اتساع قاعة مجلس النواب (وهم أكثر من ٦٠٠ شخص) لكي تتسع لهم جميعا، ولكن من أجل خاطر التقاليد تقرر اعادة البناء ضمن مساحته القديمة فقط. وما العمل بالنواب الذين لا مقاعد في القاعة لهم؟ انهم يجلسون في شرفات المجلس ـ الشرفات الموازية للمقاعد في القاعة. اما الجوانب الأخرى من الشرفات فتخصص للزائرين والصحفيين.

وفي البهو الخارجي شاهدنا تماثيل لبعض مشاهير البرلمانيين عندهم من أمثال بيت وجلادستون. ومن تقاليدهم في هذا الصدد أن لا يُنصب تمثال لأحد الا بعد مرور عشر سنوات على وفاته على الأقل.

بعد انتهاء الجولة تناولنا طعام الغداء مع أربعة من أعضاء مجلس العموم، اثنين من المحافظين واثنين من حزب العمال. وفي نهاية المأدبة ألقى النائب ردمين كلمة قصيرة قال فيها ان صداقة الشعبين العربي والبريطاني قديمة، وانه يأمل ان تستمر هذه الصداقة وان يجري التغلّب على الخلافات بالطرق الودية. وردّ منيب الماضي مؤكداً على الصداقة التقليدية، ومبدياً اعجابه بتقاليد مجلس العموم، ثم قال: ان العرب ينتظرون ان تقف بريطانيا الى جانبهم في قضية فلسطين التي تشغل بالهم دائما.

في الساعة الثانية والنصف وقفنا نشاهد مجيء رئيس المجلس الى قاعة الاجتماع. وقد مرّ يتقدمه اثنان ويتبعه ثلاثة من رجال الحرس ذوي الألبسة التقليدية المزركشة، وهم يسيرون بخطوات صارمة جادة، والناس يحنون

رؤوسهم ويرفعون قبعاتهم احتراما. ثم جلسنا في شرفة الزائرين فشاهدنا النواب من حزب العمال يناقشون الوزراء، وشاهدنا ونستون تشرشل يجلس في الصف الامامي وقد بدت عليه علائم الشيخوخة، ولكن وجهه كان صارما مهيبا. وشاهدنا رئيس الوزراء مكميلان يرد على بعض الأسئلة.

في المساء كان هناك حفل استقبال أقامه أحد كبار المسؤولين في وزارة الخارجية. وفي هذا الحفل التقيت لأول مرة بالامير زيد بن الحسين، سفير العراق في لندن (كان ذلك اللقاء قبل الانقلاب العسكري في العراق بثلاثة أشهر). والتقينا بزوجة المستر فيج Fig، التي سينقل زوجها الى السفارة البريطانية في عمان بعد شهرين، فقالت انها بدأت منذ الان تتعلم اللغة العربية. وقلت في نفسي: هذا مثال على حيوية أي شعب من الشعوب.

في اليوم التالي زرنا مكاتب التلفزيون، وقيل لنا ان ميزانية هذه المؤسسة تقارب عشرين مليون جنيه، ويتم تحصيلها من الضرائب على ثمانية ملايين جهاز تلفزيون في بريطانيا. وتقوم الحكومة بجمع هذه الضرائب ولكنها تأخذ جزءاً منها لقاء عملية التحصيل.

جلـــوب باشـــا

حظينا في هذه الرحلة بعناية وتكريم فائقين. ومن جملة ذلك ان جلوب باشا دُعي لزيارتنا وتناول طعام الغداء معنا في الفندق الذي كنا ننزل فيه. انها المرة الاولى التي ألتقي فيها بذلك الرجل الذي كان ملء السمع والبصر في الأردن ردحاً طويلاً من الزمن. لاحظت انه يتكلم العربية جيداً، ولمست من حديثه حنينا للأردن الذي أمضى ستة وعشرين عاما فيه. تناول الحديث بعض الأمور العامة، وسأل عن الجيش العربي وعن الاسرائيليين. وقال انه مدعو في الشتاء القادم لالقاء سلسلة محاضرات في الولايات المتحدة الاميركية. وخاطبه منيب الماضي قائلا: انه مهما يمكن قوله من الناحية السياسية، فان الجيش العربي مدين له، ولا أحد يختلف على ان الجيش في عهده أصبح قوة محاربة ذات بأس. وبادر أحد الزملاء فشتم سوريا والبعثيين وشتم اثنين من العسكريين الأردنيين الذين قاموا بحركة السنة الفائتة. اما جلوب فلم يشتم أحداً، ولكنه قال ان علي ابونوار لم يكن يعرف الكثير من فنون العسكرية. وسأله سليم الشريف عن مدى الكفاءة العسكرية لبعض الضباط فقال: ان مظهر الضابط وحده لا يكفي، فقد تراه ذا قامة منتصبة، ولباس لا غبار عليه، وترى حزامه وحذاءه في أحسن حالات اللمعان، ولكنه في ساحة الحرب لا يملك السيطرة المطلوبة على الوضع. وضرب مثلاً بضابط من هذا الطراز أُوكلت اليه قيادة أحد المواقع القريبة من القدس في حرب ١٩٤٨، فأمضى الليلة الأولى وهو لا يني يتصل مع القيادة مستغيثا. وعمدت القيادة الى استبداله

في اليوم التالي بضابط لا يتمتع بقيافة مثلي، ولكنه تمكن من السيطرة على الوضع الذي وجد نفسه فيه.

ودُعينا لتناول الشاي في دار الاذاعة، وهناك طلب الينا السيد ابراهيم ابوناب ان نشترك معه في لقاء اذاعي نتحدث من خلاله عن انطباعاتنا عن هذه الزيارة، واعتذر اثنان من الزملاء عن الاشتراك في اللقاء، ولكنهما أسرعا للوقوف في الوسط عندما جاء وقت أخذ الصور التذكارية.

وذهبت انا وأحد الزملاء الى احدى محاكم الصلح، فرأينا عدداً من النساء اللاتي ألقى رجال الشرطة القبض عليهن في اثناء الليل. كانت التهمة انهن كن يتجولن بقصد اغواء الرجال. أخذ القاضي يسأل الواحدة منهن: هل انت مذنبة؟ فكانت الاجابة في جميع الحالات: نعم. من هنا كان القاضي يحكم على كل واحدة بغرامة جنيهين. وقيل لنا: إن الاقرار بالذنب أهون من الانكار بكثير، لان القضاة يولون ثقة كبيرة لرجال الشرطة. ومثل رجل أمام القاضي بتهمة اساءة الأدب في مكان عام. كان الادعاء عليه من قبل اثنين من رجال الشرطة. ودافع الرجل عن نفسه قائلا انه غير مذنب. ودافع عنه محاميه بحرارة، لكن ذلك لم يشفع له كما لم يشفع له انه موظف حكومة وانه كان ضابطا في أيام الحرب. وأصدر القاضي قرارا بتغريمه خمسة جنيهات. وقال مرافقنا لورنس: ان خشية الرجل لم تكن من غرامة الجنيهات الخمس بل من العقاب الأدبي الذي سيلقاه من زملائه الذين سيبتعدون عن معاشرته بعد أن يعلموا بادانته.

وفي زيارة لمصانع فورد للسيارات شاهدنا مراحل التصنيع ابتداءً من القاء الحديد الخام في الموقدة الهائلة، الى خروج السيارة مصقولة تلمع جاهزة للاستعمال. كان ذلك مشهدا مثيرا يدل على تكامل عملية الصناعة من ألفها الى يائها.

واشتملت زياراتنا على مستشفى وستمنستر، وهو بناء ضخم قيل لنا انه يضم ١٢٤ طبيباً و٥١٥ ممرضة وممرضا و٣٠٧ من الطباخين والخدم والسائقين وأمثالهم (أذكر هذه الأرقام للفت النظر الى نسبة الأطباء مع نسبة المرضات). وتجولنا في بعض جوانب المستشفى فراعتنا النظافة الفائقة، حتى خُيّل الينا اننا في أحد الفنادق. ومما لفت انتباهنا وجود تسع سيدات في المستشفى The Almoner يعملن في دراسة أحوال المرضى وحل مشاكلهم. فالطبيب يعالج البدن وهؤلاء يعالجن الناحية الانسانية.

لا حاجة بي للقول إن الذي يزور بلاداً أجنبية يستوقف نظره وذهنه فيها كل ما لم يألفه في بلاده. ولما كانت بريطانيا أول بلد أزوره خارج بلاد العرب، فقد لفتت نظري وذهني أمور كثيرة قمت بكتابتها في حينها. ومما ترك أثراً في ذاكرتي عبارة

سائقة ركبنا معها في سيارتها بضعة أيام، فقد جرها الحديث الى القول انها ما تزال عزباء. وعندما سألتها عن السبب ردّت قائلة: عندنا قول مأثور ومتداول «تزوج على عجل من أمرك ثم اندم على مهلك» Marry in haste and repent at leisure ومن جملة ما استلفت نظري أن أساليب الشحاذة هناك ترتفع كثيراً عن المستوى الذي أعرفه. ذلك ان المرء في أثناء تجواله في المدن يمرّ هنا او هناك بجماعة من الناس (ثلاثة أو اربعة أو خمسة) أحدهم يعزف على آلة موسيقية ورفاقه يترنمون باحدى الاغنيات الشائعة، بينما يقف واحد منهم وبيده علبة صغيرة، فيلقي من يشاء من السابلة قطعة نقدٍ فيها. وحامل العلبة لا يزيد عن التلفظ بكلمتين اثنتين: شكراً لك.

وبعد مرور أعوام طوال على تلك الرحلة، أراني لا أتردد في القول انها كانت من أجمل الرحلات التي أتيحت لي، ان لم تكن أجملها وأروعها. فبالاضافة الى التكريم والعناية والحفاوة، وبالاضافة الى المشاهدات الممتعة والمفيدة، فقد تعلمت في أثنائها الكثير، مما لم أكن أعرف.

انطباعات أخرى

كان من حسن الحظ أن الطقس أخذ يتحسّن بعد وصولنا، فبدأت الأشجار تورق والأزهار تتفتح براعمها، حتى بدت حدائق لندن في الأيام الأخيرة أشبه بجنّة غناء.

يعجب المرء بالنظام الذي يتقيد به الانكليز ويحترمونه. وقيل ان الانكليز في هذه الأمور يأتون وسطاً بين الألمان والفرنسيين. فالألمان يطبّقون النظام تطبيق الجنود له في أيام الحرب، بينما يتحلل الفرنسيون من قيود النظام ويعطون لأنفسهم قدراً من الحرية يصل أحيانا الى حافة الفوضى والفلتان. وفي مجالات العلاقات الشخصية يختلفون عنا كثيرا، فمهما بلغت الصداقة بين شخصين، فانها لا تصل الى حدّ «وحدة الحال»، و«رفع التكليف». وهم لا يدسّون أنوفهم في قضايا الآخرين الشخصية. وقال أحد العرب الذين التقيناهم انه زامل انكليزيا عدة سنوات في مكتب واحد، فلم يحدث قط ان سأله عن أحواله الشخصية، أهو متزوج أم اعزب. هل عنده أطفال؟ هل يسهر طويلاً أم ينام باكرا؟ هل يحب أكل البطاطا؟ هل آراؤه في السياسة يمينية أم شمالية؟ الى آخر هذا الطراز من الاسئلة. وقد تسافر انت والانكليزي في قطار فتقضي معه ساعات وهو لاهٍ عنك بجريدته أو كتابه أو بمشاهدة المناظر من النافذة. وهنا لا تلاحظ تلك النظرات النهمة يوجهها الرجال نحو النساء، ففي الحدائق ترى الفتيات يجلسن على المقاعد او يستلقين على العشب الاخضر، وبعضهن لا يكسو أجسادهن الا ملابس قليلة، ومع ذلك لا ترى من يبحلق فيهن، بل لا ترى من يسترق النظر اليهن.

وتذكرت وانا أجيل في ذهني أحوال بعض الأشخاص الذين أعرفهم - تذكرت عبارةً قالها ابوحيان التوحيدي في وصف أهل زمانه.

«والحكمة على ألسنتهم أظهر منها على أفعالهم. ومطالبتهم بالواجب لهم أكثر من بذلهم الواجب عليهم».

البحث عن وثائق العرب في لندن

مرّت عشر سنوات ونصف السنة قبل أن أعود مرة ثانية الى لندن. دائما أذكر قول الشاعر ابن الوردي (في قصيدته التي حفظتها في المدرسة الابتدائية): «كل من سار على الدرب وصل». كانت هناك عدة خطوات، كل واحدة منها أدّت الى الأخرى. كتاباتي عن تاريخ الاردن وتاريخ الثورة العربية أدت في عام ١٩٦٦ الى ان أذهب الى بيروت مرتين. من أجل اعداد مادة كتاب عن الثورة (بمناسبة مرور ٥٠ سنة على قيامها)، ومن أجل الاشراف على طبع ذلك الكتاب. اغتنمت الفرصة والتقيت بعدد من الأساتذة الأفاضل، أذكر منهم بصورة خاصة الدكتور زين نورالدين والدكتور نقولا زيادة. كلاهما حدثني عن دار الوثائق البريطانية في لندن وعما فيها من وثائق تاريخية. من أهم ما عرفت ان تلك الدار بدأت منذ ذلك العام تتيح للباحثين مجال الاطلاع على الوثائق بعد مرور ٣٠ سنة فقط على نشوئها (كانت قبل ذلك ٥٠ سنة). كان معنى هذا أنني أستطيع الاطلاع على وثائق الفترة التي تشغل بالي - فترة الثورة العربية وما أعقبها حتى خروج الشريف حسين من الحجاز في عام ١٩٢٤. لم يكن ذلك حسن تدبير مني، بل مجرد حسن حظ.

وسعيت طوال عام ١٩٦٧ لتدبيرأمر السفر الى لندن. ولكن حرب حزيران وسقوط الضفة الغربية في يد العدو كانت ضربة شديدة على الأردن. ذات يوم نصحني أحد المسؤولين أن أعرض الأمر على مدير المجلس الثقافي البريطاني. ذهبت اليه وحدثته عن طموحاتي. من الأمور التي عززت مسعاي أن كتابي عن دور لورنس كان نُشر في بريطانيا قبل ذلك بعام. وقدمت طلبا خطياً كما طُلب الي، وشهد لي اثنان من أساتذة الجامعة (الدكتور البرت بطرس - مترجم كتابي، والدكتور كامل أبوجابر) بأنني باحث جاد ومن المأمول أن أفيد من الدراسة في دار الوثائق. في تموز ١٩٦٨ أبلغني مدير المجلس ان مؤسسته وافقت على تقديم المعاضدة لمدة ثلاثة أشهر، وسيتضمن ذلك تقديم مبلغ ٦٢ جنيهاً في الشهر للانفاق منها، بالاضافة الى أجور التنقلات بين دار الوثائق والمكان الذي سأقيم فيه. اما بالنسبة لسفري ذهاباً واياباً فلا بد لي من تدبير ذلك بنفسي. وعرضت الأمر على الوزير صلاح ابوزيد فحصل لي علي تذكرة سفر بطائرة مؤسسة (عالية) ذهابا وايابا. في الحقيقة كنت أتمنى أن أجد تعضيداً من الحكومة أو من أحدى المؤسسات الوطنية، على تغطية نفقات الرحلة (التي لم تتجاوز ٥٠٠ دينار في الإشهر الأربعة التي

أمضيتها هناك)، ولكنني حاولت وأخفقت.

امتدت اقامتي أربعة أشهر، فعلى الرغم من كل الجد والاجتهاد، فان ثلاثة أشهر لم تكف للاطلاع على وثائق تغطي موضوع الثورة وما سبقها وما أعقبها من أحداث. والذي زاد الطين بلّة ان دار الوثائق تغلق أبوابها يوماً ونصف يوم في الاسبوع (يوم الاحد وبعد ظهر يوم السبت). وزاد الطين بلّة أكثر وأكثر ان تلك الدار أغلقت أبوابها لمدة اسبوعين من أجل جرد محتوياتها (هذا ترتيب سنوي عندهم ولم يكن لي به أي علم)، وطلبت من مكتب المجلس الثقافي في لندن تمديد المنحة المقررة شهراً آخر ، فجاء الجواب بالموافقة، وكان ذلك أمراً مهماً بالنسبة لي.

في هذا الصدد لا بدّ أن أذكر أمرين آخرين قدم لي فيهما المجلس الثقافي مساعدته: (١) تعريف المسؤولين في دار الوثائق بي لتأمين الموافقة على قبولي دارساً وباحثاً. (٢) تأمين أمر استقبالي في لندن وأمر اقامتي في تلك المدينة الكبيرة التي لم أكن أعرف فيها أحداً يستطيع ان يقدم لي هذا النوع من المساعدة.

في دار الوثائق

عقلت وتوكلت وسافرت الى لندن في أول شهر آب ١٩٦٨، وبعد وصولي بيومين تم تدبير أمر اقامتي في منزل عائلة (تبين فيما بعد انها اميركية) في غرفة خاصة بي. ومن سوء الحظ ان المنزل كان بعيدا عن دار الوثائق، وكان عليّ أن أركب في قطارين، واحداً بعد آخر، وأن أقضي ما بين ساعة أو ساعة ونصف في سفري ذهابا وعند عودتي إياباً، ولم يكن في وسعي الا الرضى بما قُسم، وهكذا بدأت العمل.

تبين ان دار الوثائق تقع في شارع فرعي قريب من شارع الصحافة الشهير(فليت ستريت Fleet Street) وهذه الدار تفتح أبوابها الساعة التاسعة والنصف صباحاً وينتهي دوامها في الساعة الخامسة مساء. كنت متحمساً، ولم ألبث ان اكتشفت ان معظم الباحثين لا يقلون حماسة عني. وكم كان منظرنا مثيراً ونحن نحث الخطى مهرولين من أقرب محطات القطار الأرضي Under Ground الى الدار، أو عندما كنا نتسابق في الاصطفاف أمام بابها الخارجي، ريثما يتم فتحه في وجوهنا في التاسعة والنصف تماما، دون تسبيق دقيقة او تأخير دقيقة.

اعترف أنني تعثرت في بداية الأمر، لم أجد من يرشدني الى الملفات التي تضم ما أبتغي. ألفيت نفسي في وضع صعب، كنت غشيماً في هذا المجال بكل ما في الكلمة من معنى. أخذت أطلب أرقام ملفات بعيدة عن موضوعي. كنت جئت معي من عمان بقائمة أرقام ملفات ولكنني لم أنتفع منها. على ان الصبر والمثابرة لم يلبثا أن أثمرا. ووجدت عوناً من أشخاص غرباء لا أعرفهم ولا يعرفونني. وبدا لي ان

الرفقة في مجال البحث تؤدي الى نوع من رفقة «السلاح» بالنسبة لجنود الجيش. ومن هنا ترى الواحد منهم يأخذ بيد الآخر، ولكن ليس في كل الحالات.

عبداللطيـــف الطيبـــاوي

ولكنني لم أجد العون الذي كنت أتوقعه من الدكتور عبداللطيف الطيباوي، الذي كان يدرّس في احدى الجامعات في لندن. وكنت في عام ١٩٦٦ سمعت عنه وعن نشاطه، كما حدثني عنه يعقوب العودات ومحمود العابدي. وكتبت له فأرسل لي نسخة من مقالتين كان نشرهما في احدى المجلات البريطانية. ووعد أن يساعدني بقدر الامكان. وبعيد وصولي اتصلت به، فأعطاني موعداً واستقبلني بلطف ودعاني لتناول طعام الغداء معه. وذكرت له أنني قرأت مقالتيه، فقال انهما فصلان من كتاب عن تاريخ سوريا أوشك على الانتهاء من تأليفه. ومما رواه ان وايزمن نشر في عام ١٩٣٦ قصة الاتفاقية التي عقدها مع فيصل، فأرسل هو مقالة الى جريدة البالستين بوست، يناقش أقوال وايزمن «ولكن لم أجرؤ على نشرها باسمي الصريح، لان الانكليز كانوا سيلاحقونني وربما يطردونني من العمل، فنشرت المناقشة باسم مستعار»، وفي النهاية طلبت منه ان يتكرّم ويعطيني أرقام الملفات التي سبق أن اطلع عليها، لانني ما أزال أتعثر، فقال انه سيحاول ولكن أوراقه غير مرتبة، وانه لا بدّ لنا ان نلتقي ثانية. ودعاني لزيارته في الجامعة، الا انني اعتذرت بعدم وجود الوقت الكافي لي في أوقات الدوام، وبأنني أرحب بأية فرصة للالتقاء به يوم السبت أو يوم الأحد. ومرّت أيام لم يزودني فيها بأرقام أية ملفات، ثم عثرت على وثيقة قال (في احدى مقالتيه) انه لا وجود لها في دار الوثائق، فرأيت أن شرف العلم يدعوني لاحاطته علماً بذلك، وهكذا كتبت له رسالةً قلت فيها ان الوثيقة التي قال انه لا أثر لها في دار الوثائق موجودة فعلاً في الملف رقم كذا. وانتظرت أن أتلقى منه كلمة شكر، ولكن كم كانت دهشتي عندما تلقيت منه رسالة حانقة، اقترح عليّ فيها أن استوعب جيدا كتاب (مصطلح التاريخ) من تأليف الدكتور أسد رستم. وكان من شدة اغتياظي أنني مزقت الرسالة وألقيت بقطعها جانباً. ومهما يكن من أمر فان تلك الواقعة لم تؤد الى قطيعة بيني وبين الطيباوي، فقد التقيت به ثانية في عام ١٩٧٤، وقدمتُ له نسخة من كتابي (الحركة العربية). وكان الطيباوي في تلك الاثناء قد نشر كتابين قيّمين باللغة الانكليزية، أعطيا الدليل - علاوة على مؤلفاته الأخرى - على مقدرته الفائقة وعلمه الواسع.

ومضيت في طريقي أحاول استغلال الفرصة المتاحة الى أقصى حد. وفي أثناء اسبوعي العطلة التي فاجأتني دار الوثائق بها، ذهبت الى اوكسفورد، وأمضيت فيها أياماً أدرس وأبحث في الأوراق التاريخية المحفوظة في مركز الشرق الأوسط، التابع لكلية سانت انتوني (أوراق سايكس واللنبي وهوجارث). وفي اوكسفورد التقيت بالاستاذ ألبرت حوراني والاستاذة اليزابث مونرو. والتقيت هناك ايضا -

وللمرة الثانية ـ بشاب عصامي هو مصطفى محمد صالح (من قرية جحفية في محافظة اربد)، الذي أوصله جدّه واجتهاده الى العمل في متحف الآثار في اكسفورد.

على ان الدراسة في دار الوثائق، والسعادة التي كانت تتجدّد في داخلي يوماً بعد يوم، لم تحل دون التقائي بعدد من الرجال التاريخيين: الامير زيد بن الحسين، الاستاذ توينبي، جلوب باشا، كركبرايد، وعقد أحاديث معهم. بل ان تلك الدراسة لم تحل دون المشاركة في كتاب (حياة لورنس السرية) في سلسلة مفارقات طريفة وغريبة الى حد ما، مثل كثير من الحكايات المتعلقة بلورنس.

الامـــير زيـــد

كان الالتقاء بالأمير زيد طموحاً من طموحاتي، كنت في السابق حاولت أكثر من مرة (عن طريق نجله الامير رعد) ان استوضح منه عن بعض المسائل التاريخية التي تتعلق بالثورة العربية. وفي مرة واحدة فقط حصلت على جواب غير مباشر يتعلق بمعركة الطفيلة. كانت أوراق الامير زيد التي سمح لي الامير رعد بالاطلاع عليها والافادة منها في عام ١٩٦٦ كنزاً ثميناً بالنسبة لي ككاتب تاريخ، ولكن كان في نفسي طمع بالحصول على المزيد. ترى من هو القائل (ربما كتاب كليلة ودمنة لابن المقفع):

«منهومان لا يشبعان: طالب علم وطالب مال».

أحمد الله انني كنت طالب علم ولم أكن طالب مال.

الأمير زيد، رابع أنجال الشريف حسين، الذي غادر مكة بعيد اعلان الثورة ـ وهو ما يزال في الثامنة عشرة من العمر ـ الى براري الحجاز الجرداء وقفارها الملتهبة في الصيف والقارسة البرد في الشتاء. ثلاثة أعوام أمضاها في ميادين القتال من مكة جنوبا الى الطفيلة ومعان شمالا. طالما تذكرت جدي لأمي وهو ينشد لأحفاده ابياتا من قصيدة قديمة:

هيّو بنا، هيّـــــو بنــا	يا بو ربيع الجابنـــا
ومن الطفيلة الصافـية	جتنا جموع ضافيـــة
يا شيخ ما من عافـــية	نطعن بروس حرابنــا
ومن الطفيلة للكـــرك	جتنا جموع المشـــترك

(هيا بنا أيها الرفاق. هيا مع ابي ربيع الذي جاء بنا. لقد جاءتنا جموع غفيرة من الطفيلة ذات الصفاء، ولم يبق لنا الا ان نخوض المعركة برؤوس حرابنا. وفي أثناء وجودنا بين الطفيلة والكرك، جاءتنا جموع أخرى من جهات مختلفة....).

الأمير الذي قاد فيالق الثائرين في شعاب شرقي الاردن الوعرة، ثم كان نائبا عن أخيه فيصل في دمشق، والذي لم يعدْ الى مكة الا بعد خمسة أعوام ... ثم خدمته في الموصل، ودراسته في اوكسفورد، واقامته في قبرص، في المنفى مع ابيه الحسين، حيث كان يسهر الليل ينسخ أوراق ابيه بخطه الدقيق على ضوء السراج، من أجل ان يكتب مذكراته ... يا له من طموح عظيم أن يفكر شاب في الثلاثين من عمره بكتابة مذكراته. شعور مثالي بأهمية كتابة التاريخ ومضت أيام وسنوات. وهاهو يقيم في بلاد الغربة، بعيداً عن أرض الوطن الذي واجه الموت في الحرب من أجله. كان انقلاب العراق ذروة المآسي في حياته (بعد ضياع الملك في الحجاز. بعد قبرص. بعد وفاة فيصل. بعد مصرع غازي. بعد اغتيال الملك عبدالله...).

وتساءلت طويلا: ماذا أفعل؟



في عام ١٩٨٧ جاء كلارك يستعيد ذكرياته في الأردن. في الصورة من اليمين:

عادل حجرات، فاروق شرايحة، كلارك، سليمان موسى

الدكتورة عصمت السعيـــــــد

وخطر لي ان أتصل بالدكتورة عصمت. زوجة صباح السعيد. كانت تعيش في لندن بعد مصرع زوجها وحميها (نوري السعيد). وكنت تعرّفت اليها من خلال الرسائل الثقافية التي كانت تبعث بها الى مجلة (أفكار) ومن لقائي بها في زيارة قامت بها لعمّان. واتصلتُ طالباً أن تسهّل أمر زيارتي للامير زيد، فاتصلت به، ووافق بعد تردد.

وذهبت الى المنزل الذي تقيم فيه، كانت تعيش مع ابنها الثاني. حدثتني باختصار. انها تشكر الله كل ساعة لانها واصلت التعلم حتى أحرزت درجة الدكتوراه. أتاح لها ذلك مجال العمل في الصحافة بعد الانقلاب. لولا ذلك لم تكن تدري كيف تعيش مع ولديها وحماتها. لم يترك نوري شيئاً بعده. كان أبوها أحد باشاوات مصر الأثرياء، ولكن نفسها لا تطاوعها على العودة الى مصر. من ناحية مبدأ، تنظر الى ذلك كأمر مستحيل. كيف تعود الى بلدٍ هي على يقين أن الحكم فيه كان وراء الانقلاب في العراق. ومصرع زوجها وحميها؟ تحمّل أعباء الحياة أخف عليها من العيش في ظل نظام أسهم في قتل زوجها:

واحتمالُ الأذى ورؤية جانيه　　　غذاءٌ تُضوى به الأجسامُ

السيدة المثقفة المستنيرة، تدفع الباطل وترد على اتهامات الأراذل ... هناك كاتب صهيوني (ايرل بيرجر) زعم في كتابه (العهد والسيف The Covenant & the Sword) ان ايدن ونوري السعيد تباحثا من أجل تقسيم الأردن بين العراق واسرائيل. هذه التهمة الشريرة الكاذبة دفعت الدكتورة عصمت للكتابة الى ايدن. الذين لا ضمائر لهم يكذبون في الأحوال العادية على الأموات، فهل بلغت الوقاحة حدّ الكذب على الأحياء ايضا؟ وتلقت جوابا من ايدن يقول انه لا صحة مطلقاً لأقوال ذلك المؤلف. قرأت رسالة ايدن هذه، وانا أقول في نفسي: ليس من المستبعد ان يأتي كاتب عربي وينقل كلام بيرجر على انه حقيقة واقعة. كثيرون من كتابنا يأخذون ما ينشره الأعداء على انه حقائق صحيحة، لانهم مستعجلون ولا وقت لديهم للتمحيص وغربلة القمح من الزؤان.

أحـــــاديث الأمـــــير

أوصلتني عصمت بسيارة أجرة الى الشقة التي يقيم الأمير فيها. لم تشأ هي ان تدخل. اما انا فقد استقبلني الامير مرحباً، رأيت رجلاً متوسط القامة يبدو في صحة جيدة. يتحدث باللهجة العراقية. قال انه في الثانية والسبعين. بعد مرور خمسين عاما وعامين على نشوب الثورة، لم تعد التفاصيل حية واضحة في ذهنه. زيارتي هذه كانت يوم ٢٦ ايلول ١٩٦٨ ثم عدت لزيارته بعد ذلك مرتين في ٣٠ أيلول

وفي ٦ تشرين الأول. وجهت اليه أسئلة عديدة في تلك اللقاءات الثلاثة. لم يكن من الرجال الذين يسهبون ويتبسطون. ربما يعود السبب الى ضعف الذاكرة. أجوبته كانت مهمة بالنسبة لي، على الرغم من الايجاز. وأهميتها تكمن في دلالاتها. «ما لا يدرك كله، لا يُترك جلّه»، قول مأثور ورثناه عن أجدادنا. تلك الأجوبة ظلت كما هي منذ أن دوّنتها في حينها.

ليس هنا مجال الحديث عن أجوبة الامير زيد، الا انني أروي هنا القصة التالية التي حدثني بها:

في عام ١٩٣٨ كنت قنصلاً للعراق في المانيا، وكان حسن نشأت باشا سفيراً لمصر. ذات يوم جاء مصطفى النحاس يزور برلين ويرافقه مكرم عبيد. كان مكرم أذكى وأرجح عقلاً من النحاس. وأقام حسن نشأت مأدبة غداء لضيوفه. على المأدبة كانت زوجة النحاس قريبة مني. وعندما سمعتني أتحدث صاحت في زوجها: مصطفى، مصطفى. الوزير العراقي بيتكلم عربي! وتطلع النحاس اليها بعينه الحولاء وقال: يا عبيطة. هُمّ اللي في العراق أيه؟ ما همّو عرب!!

في زيارتي الثالثة جلست معنا الأميرة فخر النساء زوجة الامير. أخذت تتحدث بالانكليزية لانها لا تحسن العربية، قالت ان أباها هو شاكر باشا، وكان أحد أجدادها المشير جواد باشا صدراً أعظم. أصل أهلها تركمان. رجال سيف وقلم. هي فنانة معروفة ومشهورة ولها مرسم في باريس. وكان هناك ايضا الابن الثاني للدكتورة عصمت، وهو فنان يرسم مع الاميرة. أشارت الى الأمير وقالت: انه يعاني من ضعف في القلب. آه لو تعرف ما حدث في يوم الانقلاب. كان يوماً فظيعاً.

في تلك الزيارة حققت نجاحاً غير متوقع، كنت دائما أتهم نفسي بأنني لا أملك موهبة اقناع الآخرين. ولكنني خالفت القاعدة هذه المرة. اقتنع الامير زيد أنني جدير بالثقة، فجاء بدفترين صغيرين وأعطاهما لي قائلا: سجلت على هذين الدفترين يوميات ورسائل في اثناء الحرب. من البداية اعتقدت ان الثورة حدث تاريخي عظيم وانه من الضروري تسجيل رؤوس أقلام تمهيداً لكتابة مذكرات فيما بعد. ولكن مرّت أحداث مؤلمة كثيرة فلم أكتب شيئا. والان لا أعتقد أنني سأكتب شيئا. ربما تجد فيهما ما يفيد.

كان واضحا انه يعطيني شيئاً عزيزاً قريباً الى قلبه.

قلت له: كن على ثقة يا سيدي أنني سأكون عند حسن ظنك (فيما بعد نشرت كتابا بعنوان: مذكرات الأمير زيد، كانت محتويات الدفترين العمود الفقري فيه).

حديث جلوب باشا

كنت كتبت رسالة للفريق جلوب في عام ١٩٦٥ أرجو منه ان يتصل مع ناشر

كتبه لعله يوافق على نشر ترجمة كتابي (لورنس والعرب). ولم ألبث أن تلقيت رسالة منه يقول فيها انه تحدث مع الناشر، وهو لا يرى أن ينشر كتابي لاعتقاده انه لن يجد الرواج الكافي.

وبعد ان استقرّت اقامتي في لندن كتبتُ له رسالة أخرى أقول فيها انني أحبّ أن ألتقي به، عندما يأتي الى لندن (كان يقيم في قرية بعيدة نوعاً ما)، فأجاب يعيّن موعداً في نادٍ يتردد عليه.

في الموعد المعين استقبلني في مدخل النادي ثم رافقني الى قاعة الجلوس في الطابق الثاني. صعد الدرج بخفة ونشاط. أشرت الى ما يتمتع به من حيوية فقال: ولكنني صرت شائباً كما ترى. أخذ يتحدث بالعربية طوال مدة اللقاء، من لكنته لا يخطئ العربي في معرفة أنه أجنبي رغم انه أقام في بلاد العرب من ١٩٢١ الى ١٩٥٦. قلت له: ان الكتب التي ألفتها حتى الان تدل على انك تتمتع بنشاط عظيم، كان جوابه: لقد فقدتُ عملي كما تعلم. ولم يبق لي الا الانصراف للكتابة والتأليف.

في بداية حديثنا قال انه متألم لما حدث في بلادنا. وهو يشعر بالتشاؤم. كان يعني حرب ١٩٦٧ وما أسفرت عنه. ثم قدمتُ له نسخة من نشرة باللغة الانكليزية أصدرتها منظمة فتح، وكان ابنه فارس أعطاها لي لكي أسلمها له. ابتسم ابتسامة خفيفة واستغربت انه لم يسألني عن فارس وأحواله. سألني: هل تعتقد ان هؤلاء يمكن ان يفعلوا شيئاً مؤثراً؟ قلت: انهم يحاولون جاهدين ويبذلون تضحيات كبيرة، ولكنهم حتى الان لم يتمكنوا من انشاء قاعدة ثابتة لهم في الأراضي المحتلة. والسبب ان الأرض مفتوحة ولا أدغال فيها مثل فيتنام. قال: حقا ان أرض فيتنام تختلف اختلافاً كبيراً، ولا مجال للمقارنة بينها وبين أراضي فلسطين.

والتقيت بالفريق جلوب مرة أخرى في أثناء زيارة تالية الى بريطانيا في ايلول ١٩٨٣. فقد كتبت اليه قائلا انني أود ان أزوره مع اثنين من الأصدقاء. رحّب بنا وأعطانا موعدا. حملنا الصديق الدكتور فؤاد حداد بسيارته. ورافقنا سعيد العيسى وحسن اسماعيل (الأخير صديق فؤاد وهو شاعر وصحفي من مصر). استغرقت الرحلة الى بلدة (مايفيلد) خمس ساعات ذهابا وايابا. عندما وصلنا قال فؤاد: قلنا للباشا اننا ثلاثة وهانحن صرنا اربعة. ما رأيكم أن أبقى في السيارة ريثما تقومون بزيارته؟

قلت: لا عليك. الرجل عاش مع العرب ستة وثلاثين عاما. لا أعتقد انه سيقول شيئا. ولكن اذا أبدى ملاحظة فسأقول له: يا باشا. انت تعرف البدو. نحن مثل دو تماما. قلنا اننا ثلاثة ولكن رفيقنا الرابع أحبّ ان يحظى بلقياك. وهانحن ربعة قد جئنا.

واستقبلنا جلوب في منزله المحاط بالأشجار العالية. كانت هناك زوجته. وبدا عليهما التقدم في السن. رحّب بنا، وأخذ حسن اسماعيل عدة صور لنا معه ومع زوجته. أكثر من مرة كرّر قوله: الأردن وطني الثاني. قال ان الملك حسين زاره قبل ثلاث سنوات. ولفظ كلمة «سيدنا» بصورة طبيعية. وذكر ان الأمير حسن زاره ايضا.

آخر كتاب صدر له كان عن سيرة حياته.

في هذه الرحلة أمضيتُ شهرا في دار الوثائق التي كانت انتقلت في تلك الأثناء من وسط مدينة لندن الى حي (كيو) في أطرافها، غير بعيد عن حدائق (كيو) الشهيرة.

وحدث أنني في احدى الليالي شاهدت برنامجاً في التلفزيون عن الحرب بين العراق وايران. وسمعت مذيع البرنامج يقول ان الكثير من أسلحة ايران المهمة كادت تتوقف، لولا انها حصلت على قطع الغيار اللازمة لها من سوريا وليبيا ومن كوريا واسرائيل. شعرت كأن طعنة اخترقت صدري. هل كُتب علينا ان نذبح بعضنا بعضا؟

وظلم ذوي القربى أشدُّ مضاضةً   على النفس من وقعِ الحسام المهنّدِ

فما بالك ونحن ''أشقاء'' ولسنا ذوي قربى فحسب؟!

حـــديث كركبرايـــــد

والتقيت بالسير اليك كركبرايد بناء على موعد سابق (١٩٦٨). وكان كركبرايد أحد الضباط الانكليز الذين اشتركوا في حروب الثورة العربية في ميدان شرقي الاردن عام ١٩١٨. وبعد ذلك أمضى سنوات طوالاً في الاردن معتمداً لبريطانيا ثم سفيرا. وهو مؤلف كتاب (خشخشة الأشواك) وكتابين آخرين عن ذكرياته في الثورة العربية وفي عمان.

حـــديث تـــوينبي

كنت أعرف ان المؤرخ الكبير الاستاذ ارنولد توينبي، يتعاطف مع العرب من منطلق فهمه لعدالة قضيتهم. وكنت لمست هذا التعاطف في مذكرات كتبها في عام ١٩١٨ عندما كان موظفاً في وزارة الخارجية البريطانية. وعند صدور كتابه (أشخاص عرفتهم) ابتعت نسخة منه وقرأتها وكتبت له بشأنها. لذلك كان من جملة أمنياتي ان ألتقي به وأتحدث اليه. وما ان استقرّ بي المقام في لندن حتى كتبت اليه أطلب موعداً أزوره فيه. وضرب الرجل لي موعداً في مقر عمله في شاتام هاوس. عند وصولي جاء لمقابلتي وهو يحمل في يده رسالتيّ القديمة والجديدة. أجلسني الى جانبه على مقعد مستطيل. وبدا لي في صحة جيدة، ولكنه كان يضع جهاز سمعٍ على

أذنه اليسرى.

قلت له: أنا من الاردن وأحببت ان أتشرّف بزيارتك لكي أعرب لك عن مدى تقدير العرب لمواقفك النبيلة في تأييد وجهة نظرهم.

قال: انني أفعل ذلك لمعرفتي بالظلم الفادح الذي لحق بالعرب ... الناس في اميركا لا يعرفون أي ظلم حاق بالعرب ـ المسيحيون واليهود منهم، على حدٍّ سواء.

بعد حديث طويل مستفيض قدمتُ له نسخة كتابه التي كنت أحملها معي وطلبت منه ان يوقّع عليها، فكتب عبارة تدل على ما في ذهنه:

''لسوف استمر في العمل من أجل انصاف العرب، ما بقيتُ على قيد الحياة''.

وودعني وهو في غاية التأثر.

أحـــاديث أخـــــرى

زرت الدكتور فاتكيوتس، الاستاذ في جامعة لندن، وهو من أصل يوناني ومن مواليد القدس ويجيد اللغة العربية. كنت قرأت كتابه (السياسة والعسكر في الأردن) فأحببت ان ألتقي به. تحدثنا فكان من جمله أقواله:

ـ في بيروت وحدها ١١٤ مليونيرا. أين أثرياء العرب الذين يمكن ان يتبرعوا مثلما يتبرع أثرياء اليهود؟! أكاد أكون يائسا من العرب. في حرب ١٩٦٧ ترك الجامعة يهوديان للالتحاق بجيش اسرائيل، على الرغم من انهما كانا على وشك تقديم الامتحان النهائي. لا أدري اذا كان أحد من العرب فعل مثل هذا. كيف يعلو الوطن ويرتقي؟! (فلان) لا مبادئ له. كان قومياً سورياً ثم انقلب قومياً عربياً، ثم اشتغل مع المصريين، وهاهو الان يشتغل مع امراء الكويت. أخوه (فلان) مرتزق.

وذهبت ذات يوم الى المتحف الحربي البريطاني، وسألت عن اكليل البرونز الذي قال أحد الكتّاب الأميركيين ان امبراطور المانيا كان أهداه لضريح صلاح الدين في دمشق، وان لورنس نزعه من مكانه وأهداه لذلك المتحف. وكان الجواب: ان الاكليل غير موجود في المتحف، ولا يعرفون عنه شيئا.

وذات ليلة ذهبت للاستماع لمحاضرة يلقيها جبرا ابراهيم جبرا، حول الاتصال الفكري بين العرب والغرب. كانت المحاضرة جيدة ولكن لم يزد عدد الحضور عن ٢٥ شخصاً (بعضهم من الفتيان الانكليز). قيل ان جبرا جاء على نفقة سيدات عربيات من بيروت، من اجل التعريف بالعرب. تساءلت: ما هي الفائدة التي أحرزتها القضية العربية من هذه المحاضرة، ما دام ان الحاضرين بهذا العدد القليل، وأكثرهم عرب مثلي لا يحتاجون الى تعريف بالعرب؟ وتساءلت ايضا: لو انْ المحاضر كان يهودياً، أفلا يكون عدد مستمعيه اكثر من الذين استمعوا للمحاضر

العربي؟

هناك قصة ذات دلالة شاهدتها بنفسي. ففي ذات يوم ذهبت الى دار الاذاعة (القسم العربي)، ودعاني سعيد العيسى لتناول طعام الغداء في مطعم الاذاعة على طريقة: اخدم نفسك بنفسك. ووقفنا في الصف. قال سعيد: انظر الى ذلك الشخص. انه مدير الاذاعة الجديد. أمس فقط صدر القرار بتعيينه. لا تستغرب اذا قلت لك ان ميزانية الجهاز الذي يتولى ادارته أكبر من ميزانية بعض الدول. راتبه في السنة ١٤ الف جنيه. واليوم ظهرت صورته في جريدة التايمس. هاهو يقف في الصف بين الموظفين لكي يضع في صحنه بعض الطعام، وهاهو يقف في الصف لكي يدفع ثمن ما أخذ، وهاهو يبحث بين الموائد، بكل تواضع وعفوية، عن مقعد يجلس عليه. لا أحد يقف ويقول له: تفضل يا صاحب السعادة، تفضل يا صاحب العطوفة؟ ولا أحد يشعره بأهميته.

حيـــاة لـــورنس السريـــة

طالما سمعت الساهرين في مضافة القرية يقولون: هذه القصة مثل قصص الحيات، لا نهاية لها، أو أنها لا تكاد تنتهي.

وقصصي مع لورنس (لورنس العرب) كثيرة وتكاد لا تنتهي، مثل قصص القرويين الذين تصادفهم الحيّات والثعابين في الشعاب والأدغال.

ذهبت الى لندن وفي اعتقادي أنني انتهيت من لورنس وحكايات لورنس، بعد ان نشر كتابي عنه باللغة الانكليزية قبل عامين. ولكن كم كانت مفاجأتي عندما لاحقتني الاسطورة الى هناك.

مساء ذات يوم عدت الى المنزل الذي كنت أقيم فيه، واذا البرقية التالية في انتظاري. من فيليب نايتلي - جريدة الصنداي تايمس.

بحثت عنك في عمان فقيل لي انك في لندن. هل نستطيع ان نلتقي؟ أرجو أن تهاتفني على رقم ... أو في منزلي على رقم...

استغربت البرقية وما جاء فيها. من هو نايتلي هذا؟ وبادرت للاتصال بواسط الهاتف، فردّ علي نايتلي. قلت له: أرجوك عرّفني بنفسك، قال هل نسيت الرسائل الطويلة التي بعثت بها الى الصنداي تايمس حول الحلقتين اللتين نُشرتا فيها عن لورنس قبل بضعة أشهر؟ عندئذ تذكرت الحكاية بطبيعة الحال، ولكنني كنت نسيت ان كاتب الحلقتين اسمه فيليب نايتلي. قلت له: وكيف عرفت عنواني؟ قال: هل نسيت أنك أعطيت عنوانك الى مس بننغ في السفارة الأردنية في لندن؟ لقد أخذت عنوانك منها. قلت: ولماذا لم تنشروا رسالتي؟ قال: الحكاية طويلة وسوف أرويها لك عندما نلتقي. وخلاصة الخلاصة: انني بعد الصدى القوي الذي أحدثته

الحلقتان، تلقيت عرضاً بالتوسع في الموضوع حتى يصبح كتابا. لقد تبين من رسالتك أنني أخطأت في معرفة الجانب العربي، ولذلك أريد منك ان تعاونني في ايضاح النقاط المتعلقة بالعرب.

وتواعدنا على لقاء قريب. وجاء يلاقيني عند باب دار الوثائق بعد انتهاء الدوام. واصطحبني الى مكاتب جريدة الصنداي تايمس القريبة منها. وكرّر القول ان رسالتي كشفت النقاب عن عدم احاطته الكاملة بالجوانب العربية من الموضوع. ولولا انه عقد عزمه على تأليف كتاب لعمد الى نشر رسالتي في الجريدة. وأضاف قوله انه يعتقد انني أستطيع أن أوضح قضايا عديدة، «انك تستطيع ان تخدم الحقيقة ووجهة النظر العربية بذلك». ثم مضينا معاً الى المطعم الهندي (ممتاز) وفيما بعد عرفت ان نايتلي متزوج من سيدة هندية. ثم تبين ان نايتلي (وزميله سمبسون) يعملان منذ بضعة أشهر على جمع المواد الخام للموضوع حتى يستعينا بها على تأليف الكتاب.

وبالنتيجة عقد نايتلي معي اتفاقاً شفويا، من نوع اتفاق «الجنتلمان»، خلاصته ان أكتب له نبذاً توضيحية عن اية نقطة تتعلق بالعرب، ولا تكون واضحة في ذهنه (جمعية العربية الفتاة - مثلا. سعيد الجزائري، عبدالقادر الجزائري ...الخ) وان أراجع الفصول التي كتبها والتي سيكتبها، وان أقدم له نسخة عن التقارير والرسائل التي أعثر عليها في دار الوثائق، مما له علاقة بموضوع لورنس. مقابل ذلك قال انه سيقدم لي كل الوثائق التي بحوزته والتي حصل عليها من أماكن أخرى، وان الجريدة (الصنداي تايمس) ستقدم لي مكافأة في حدود أهمية المواد التي سأقدمها.

وهكذا كان.

ربما كنت متساهلاً أكثر مما ينبغي في هذا الاتفاق. فقد بقي أمر تقدير قيمة المادة التي سأقدمها، رهناً برأي نايتلي. ولكنني في ذلك الحين رأيت انه لا يوجد بديل آخر. وفي الحقيقة بدا لي ان نايتلي أهل للثقة. ثم رأيت (١) انني أستطيع تصويب ما سيجيء به المؤلفان عن دور العرب، وقضايا العرب، ووجهة نظر العرب، وانني (٢) فرغت من موضوع لورنس فيما يتعلق بي شخصياً، من حيث ان كتابي نشر بالانكليزية، ولا مجال أمامي للافادة المباشرة من الوثائق التي سأعثر عليها، وانني (٣) يمكن أن أجد مادة مفيدة في الأوراق التي جمعها نايتلي سيضعها تحت تصرفي.

وهكذا قدمتُ لنايتلي كل ما كان في وسعي تقديمه. وبلغ من استعانته بي واعتماده على مشورتي، انه أرسل لي صفحات الكتاب في هيئتها الأخيرة قبل دفعها الى المطبعة - أرسل تلك الصفحات لي الى عمان لكي أقرأها وأعيدها اليه مع اية

ملاحظات أجد من الضروري وضعها. وقرأت النص وأعدته اليه مع ملاحظاتي. ثم ظهر الكتاب ونال نجاحاً جيداً وتُرجم الى عدد من اللغات (من جملتها اللغة العربية).

تبين فيما بعد ان المكافأة التي قدمتها الصنداي تايمس لي، كانت أقل مما يستحقه الجهد الذي بذلته. بل ان تنويه الكتاب بذلك الجهد كان أقل مما ينبغي. يدل على هذا ان مقالة مجلة (الايكونوميست ـ ٤ / ١٠ / ١٩٦٩) في عرض الكتاب ومراجعته، أشارت الى ان المؤلفين لم يعطيا التنويه العادل بالمعلومةالمهمة التي أخذاها من كتابي عن لورنس، وتتعلق بالضابط التركي الذي زعم لورنس انه أُعتدي عليه جنسياً في درعا. ذلك ان لورنس في كتابه (أعمدة الحكمة السبعة) أعطى اسماً مستعاراً (ناحي) لذلك الضابط. وبقي الاسم الصحيح مجهولا الى أن صدر كتابي بالعربية (١٩٦٢) وبالانكليزية (١٩٦٦) وفيه كشفت النقاب عن الاسم الحقيقي للرجل، وهو هاجم محيي الدين.ليس ذلك فقط، بل انني أوردت في كتابي ان هاجم محيي الدين صار فيما بعد عضواً في الجمعية الوطنية التي تألفت في عهد أتاتورك، لتسدّ مسدّ «مجلس المبعوثان»، وهذا كله أتاح لنايتلي وشريكه ان يكلفا مراسل الصنداي تايمس في تركيا بالبحث عن الرجل. ونتيجةً للبحث تبين أن هاجم توفي قبل سنتين فقط، وان أبناءه يحتفظون بأوراق سمحوا للمراسل بالاطلاع عليها. وأفاد نايتلي من هذا كله في التدليل على ألمعيته ولوذعيته في البحث ومتابعة المصادر، كما أفاد منه في تلوين الكتاب بعبارات مثيرة من جملتها أن هاجم كان مولعاً بمعاشرة الفتيات وليس الفتيان!!

بالنسبة لي كان الأمر المهم ان الكتاب تبنى وجهة النظر العربية من الناحيتين التاريخية والسياسية، في تلك الحقبة. هذا على الرغم من انه تضمن آراء أخرى لا دخل لي فيها، ولا أعتقد بوجاهتها.

على ان نايتلي ـ الذي لم يكن منصفاً بما فيه الكفاية في التنويه بالوثائق والمعلومات التي زودته بها، والتي زادت من قيمة الكتاب، عمل على سدّ النقص في عبارة الاهداء التي كتبها بخط يده على نسخة الكتاب التي بعث بها لي:

الى سليمان موسى

الذي ما كان لهذا الكتاب ان يُكتب لولا مساعدته. (٢٥ ايلول ١٩٦٩)

To Suleiman Mousa,

Without whose help this book would never have been written.

Phillip Knightly, London, 25 Sept. 1969.

ولكن التقدير الذي يبدو واضحاً في هذه العبارة، بقي بيني وبينه فقط، وفي

حدود النسخة التي في مكتبتي.

قصتان عن الملك عبدالله

عدت الى بريطانيا بعد ذلك اربع مرات. ففي عام ١٩٧٤ أمضيت شهراً في دار الوثائق، كانت فترةً غير طويلة، ولكنني أنجزت فيها مقداراً لا بأس به من العمل. وفي أثناء ذلك التقيت باليزابث مونرو (التي كانت جاءت الى الاردن وسبق انها كانت تدرّس الامير حسن في اوكسفورد) فروت لي القصتين التاليتين عن الملك عبدالله:

١ ـ أقام حفلة وداعية في مخيّمه بوادي الاردن للمندوب السامي واكهوب، وكان الموعد المتفق عليه الساعة الثانية عشرة ظهرا. ووصل المدعوون في الوقت المعين، ولكن واكهوب لم يصل. في الساعة الواحدة والنصف جاءت مكالمة هاتفية من القدس بأن واكهوب تحرك في تلك اللحظة باتجاه الشونة. وعندئذ تطلع الأمير في وجوه المحيطين به وقال: ايها السادة، دعونا نرجع عقارب الساعات ساعة ونصف الى الوراء...

٢ ـ كان الأمير عبدالله عندما يزور مصر يذهب لمشاهدة سباق الخيل. وفي بعض الأحيان كان يشترك في الرهانات، لانه بخبرته كان يحسن الحكم على جياد الخيل. ذات يوم كسب مبلغاً طيباً من المال (ربما خمسة آلاف جنيه)، وبعد عودته الى الأردن، أرسل هذا المبلغ الى قبيلة الرولة من أجل اثارة المتاعب في وجه الفرنسيين. كان ذلك نحو سنة ١٩٤٤. وبلغ الأمر الفرنسيين فاحتج الجنرال كاترو لدى الجنرال مكمايكل المندوب السامي في فلسطين، قائلاً ما خلاصته. انتم تعطون المال للأمير عبدالله وهو ينفقه في خلق المشاكل ضدنا. وكانت خلاصة جواب مكمايكل: لو كانت النقود التي أنفقها الأمير من أموال بريطانيا لأوقفنا تقديم المزيد منها اليه. ولكن كيف لي أن أحول بينه وبين انفاق نقود كسبها في رهان الخيل؟!

وكانت اليزابث مونرو قد عملت في حكومة الانتداب في فلسطين مدة من الزمن وتعلمت اللغة العربية. والتقت بالملك عبدالله مرات عديدة. وقد وصفته بقولها:

كان حلو الصوت، عذب الحديث، لطيف المعشر، عالي الجناب. كان البعض يتهمونه بأنه لا يميل كثيرا للعمل (المقصود هنا لورنس) ربما كان ذلك صحيحاً في سنوات الشباب، ولكن عندما عرفته كان كثير الجد، كثير الأعمال والاهتمامات.

وأعربت عن اعتقادها أن جرترود بلّ أقدمت على الانتحار، بأن تناولت كمية كبيرة من الحبوب المنومة. والسبب أنها كانت مستاءة ومتألمة من معاملة حكومتها لها. ذلك انها بعد ان كانت شخصية مهمة في حياة العراق السياسية، وكان كبار القوم من عرب وانكليز يرجعون اليها ويستشيرونها ـ أُحيلت فجأة للعمل في

متحف الآثار. حتى الملك فيصل أهملها في المدة الأخيرة، بعد ان ثبّت أقدامه في العراق.

العاصفة ـ مسرحية شكسبير

ذهبتُ ذات ليلة الى مسرح (اولد فيك) في لندن لمشاهدة مسرحية شكسبير (العاصفة). في مثل هذه المناسبة تظهر الآداب العامة عند الشعوب. في أثناء العرض الذي استغرق ساعتين، لم أسمع أية أصوات غريبة أو مزعجة. ولم يكن أحد من النظارة يتكلم او يسعل أو يدخن، هذا على الرغم من ان القاعة كانت غاصة بالحضور.

في بعض المشاهد الهزلية كان البعض يضحكون، ولكنها ضحكات خفيفة مكتومة. كان الصمت دليلا على احترام الفن وفهمه. عندما انتهت المسرحية ثارت عاصفة من التصفيق استمرت الى ان عاد الممثلون من وراء الستار للظهور على واجهة المسرح. الصغارأولاً ثم الكبار، بروسبيرو امير نابولي ثم كاليبان وايريل، وبعدهما ميراندا وفرديناند، ثم خادم الامير والمهرج الآخر اللذان أضحكا الجمهور. وعلى الرغم من ذلك استمر التصفيق حتى عاد الممثلون مرة ثانية ثم مرة ثالثة، الى أن شبع الممثلون من التصفيق، وساد الظلام في الواجهة، فاضطر الجمهور الى التوقف. طوال ذلك لم يفكر أحد بالخروج.



في طريق العودة من لندن، التقيت بالدكتور منيف الرزاز والدكتور عقيل التوتنجي.

(مطار روما . ١/ ١٢/ ١٩٦٨)

كنيســـة تصبـــح مسرحـــــا

في عام ١٩٧٦ أوفدتني وزارة الثقافة والاعلام، انا والزميل مجيد غنما، في دورة تدريبية، بقصد الاطلاع على سير العمل في دار الوثائق في لندن. اكتشفنا في أثناء الأسبوعين اللذين أمضيناهما في الدورة، مدى الجدّية التي يمارس فيها الانكليز أعمالهم. لم نلاحظ أحداً يهاتف زوجته أو اخته أو ابنة اخيه في ساعات العمل، لم نسمع أحداً يتذمر. لم نشاهد موظفاً يجلس مسترخياً الى جانب موظف آخر. لم يحاول أحد ان يعرض علينا فنجان قهوة أو كأس شاي. الشاي والقهوة لهما مكان خاص ومواعيد معينة. كل شخص يعرف مسؤوليته، لم نلاحظ أحداً يراقب أحداً، المدير يؤدي عمله والموظف المبتديء يؤدي عمله. لمسنا أن الشعور بالانضباط قوي جدا.

كان ايفادنا بقصد العمل على انشاء دائرة للوثائق في عمان، ولكن بعد عودتنا فوجئنا بشخص يحمل شهادة دكتوراه، يُعّين ويُعهد اليه بمهمة انشاء الدائرة، وأمضى الدكتور أكثر من عشر سنوات دون ان ينجز عملاً ملموساً، وهكذا طرحت الخبرة والمعرفة أرضاً أمام سحر الشهادة البراق.

بعد انتهاء الدورة، أمضيتُ نحو أربعة أسابيع في دار الوثائق والمحفوظات. وفي أثناء تلك الأسابيع ذهبت ذات ليلة لمشاهدة مسرحية شكسبير (الليلة الثانية عشرة). بناء المسرح كان كنيسة قديمة، ولكن المشرفين على الكنيسة لم يعودوا يجدون موارد كافية للانفاق عليها وصيانتها كي تبقى في حالة جيدة. وهكذا تُركت مهملةً بضع سنوات. ثم جاء عدد من المهتمين بالمسرح وحصلوا على إذن بتحويل الكنيسة الى مسرح. أصبح البناء في وضعه الجديد يُعرف باسم (مسرح القديس جورج) بعد ان كان (كنيسة القديس جورج). وتحوّل الذين يريدون أن يصلّوا الى بناء صغير وجديد وتكاليف صيانته قليلة ... وتذكرت عندئذ أنني قبل بضع سنوات شاهدت في احدى مدن بريطانيا كنيسة حديثة البناء، يؤدي الناس الصلاة فيها، وبعد ذلك يستعملون المكان للمناسبات الاجتماعية والأهلية.

ووقفت ذات يوم أمام محكمة (اولد بيلي) الشهيرة، وهي المحكمة المركزية للنظر في قضايا الاجرام. شاهدتُ في أعلى البناء تمثالاً عظيما فوق قبة شامخة، والتمثال يحمل باليد اليمنى سيفاً وباليد اليسرى ميزان العدالة. وفوق الباب الرئيسي للمحكمة قرأت عبارة نُقشت حروفها في الحجر:

دافعوا عن أطفال الفقراء، وعاقبوا صانعي الشر.

من جملة ما اكتشفت مجدداً ان هناك في بريطانيا قانوناً ضد التمييز العنصري. وبموجب هذا القانون حكمت احدى المحاكم بسجن أحد الأشخاص ثلاثة أشهر،

لانه رفع على واجهة منزله لافتة تقول ان المنزل معروض للبيع الى شخص انكليزي فقط.

وتحدثت الصحف كثيراً عن (اينوك باول) عضو مجلس النواب، الذي رفع صوته ضد القادمين من آسيا وافريقيا بحكم حصولهم على الجنسية البريطانية. ومما تداولته ألسنة الانكليز ان الملونين في بريطانيا لا يميلون للعمل ويكتفون بالمساعدة المجانية التي يحصل عليها العاطلون عن العمل. المفارقة هي ان الحكومة البريطانية عمدت في سني الحرب العالمية الثانية الى تجنيد كثيرين من آسيا وافريقيا وتعهدت بمنحهم الجنسية البريطانية لقاء اشتراكهم في الحرب. وهكذا عمد الذين طردهم عيدي أمين للهجرة الى بريطانيا، وكذلك الذين طردهم (بندا) من ملاوي. كانت هناك مظاهرة أمام السجن بين أنصار التمييز وبين الملونين. وحدث صدام واشتباك أُصيب فيهما من رجال الأمن أكثر ممن أصيبوا من المتظاهرين. هنا لا تبدأ المظاهرات الا بعد الحصول على ترخيص من وزارة الداخلية. ويخشى الانكليز الأقحاح أن يتغلّب عليهم العنصر الأسود في المستقبل، لكثرة عدد المواليد فيه.

والتقيت ذات يوم في دار الوثائق بأميركي يكتب دراسة عن هيلاسلاسي امبراطور الحبشة. كان مما قاله انه أخذ يدرس اللغة الحبشية (الاثيوبية) ليقرأ بها حتى يفهم كيف كان الأحباش يفكرون آنذاك. ان على الكاتب ان يضع نفسه مكان الشخص الذي يكتب عنه، التقارير التي يكتبها موظفو السفارات كثيراً ما تكون خادعة. هم يؤكدون على طموحات الشخص الذاتية وينسون طموحاته الوطنية. قبل أيام زرت كاتدرائية ونشستر، فرأيت لوحة تذكارية تقول «الميجر فلان الفلاني الذي طعنه شخص متعصب Fanatic في معركة أم درمان». لو ان ذلك «المتعصب» كان انكليزياً لقالوا انه البطل الصنديد الذي واجه بحربته البدائية بنادق المعتدين، والذي أبدى شجاعة فائقة في القضاء على عدوه ... على الكاتب أن يكون حذرا في اطلاق الأحكام.

حديث سليمان النابلسي

بلغني ان سليمان باشا النابلسي جاء من عمان في طريقه الى اميركا بقصد اجراء فحوصات طبية، وانه يقيم في فندق تشرشل. كان السفير معن ابونوار دعاه الى حفل غداء في منزله، ولكن الباشا اعتذر عن عدم تلبية الدعوة لانه كان متعباً. في المساء ذهبت لزيارته، فرأيت أحد أطباء الجيش يرافقه.

حدثني النابلسي انه قبيل سفرته هذه ذهب لزيارة الملك حسين في الديوان الملكي، وان الملك احتفى به، وبلغ من اهتمامه ان النابلسي عندما أراد الخروج من مكتب جلالته، أخذ يتلفت حواليه باحثاً عن جرس من أجل استدعاء شخص

يساعده في أثناء خروجه (لم يكن يستطيع المشي منفرداً على قدميه). لاحظ الملك وسأله عما يريد. فقال النابلسي انه يريد استدعاء شخص يساعده. قال الملك: وما بي أنا؟انني أستطيع ان أساعد. وتقدم اليه وأمسك بكلتا يديه حتى نهض واقفاً، ثم سار معه الى الباب. عندئذ هرع رئيس الديوان (مضر بدران) وآخرون، فرافقوه الى أن بلغ السيارة.

بدت عليه السعادة لما لقي من تكريم. ولم يلبث أن أخذ يتحدث على سجيته. وروى عدداً من الحكايات الصغيرة والتعليقات الساخرة التي اشتهر بها، والتي يصعب على الكاتب ان يرويها. ولكن كانت هناك قصص أخرى : (يجدها القارئ في آخر الكتاب).

تاريخ الأردن في اوكسفورد

أسعفني الحظ الطيب بالاشتراك في المؤتمر الاول لدراسة تاريخ الأردن وآثاره، والذي عُقد في كلية (كرايست تشرش) في اوكسفورد خلال الأسبوع الأخير من آذار ١٩٨٠. ولا عجب في ان تكون هذه الكلية موئلاً لهذا المؤتمر، على أساس انها الكلية التي تلقى فيها الامير الحسن دراسته الجامعية وتخرج منها. وكان الامير الحسن هو راعي ذلك المؤتمر وصاحب الفكرة في عقده.

جاءت الدعوة من الدكتور عدنان الحديدي مدير دائرة الآثار، اذ كلفني بالمساهمة في المؤتمر ببحث عن الأردن في أواخر العهد العثماني. في واقع الأمر، كان المؤتمر يهدف الى كتابة أبحاث يبرز من خلالها تاريخ التطور البشري والعمراني في الديار الأردنية، ابتداء من أقدم العصور وحتى نهاية القرن التاسع عشر. لهذا كان من الطبيعي ان تكون معظم الأبحاث من أقلام أساتذة من علماء الآثار الذين قاموا بحفريات في مناطق مختلفة من البلاد، واستنطقوا تلك الحفريات عن تطور حضارة الانسان مع تعاقب القرون والأجيال.

كان الوفد الأردني الى المؤتمر كبير العدد نسبيا: البعض لالقاء أبحاث (مختصر الأبحاث) والبعض الآخر للمشاركة والمناقشة والاستماع. وأدركت الحكمة في ذلك من خطاب الامير في مطلع الجلسة الاولى، عندما قال ان المؤتمر يهدف الى خلق اهتمام علمي وايجابي بتاريخ الأردن أكثر من مجرد تقديم أبحاث أكاديمية.

في ساعات النهار التي سبقت حفل الافتتاح، قمت بزيارة كلية سانت انتوني، عدها متحف أشمولين حيث التقيت بالصديق محمد صالح وجددنا ذكريات لقائنا سابق قبل اثني عشر عاما. سرّني انه أصبح من كبار المسؤولين في المتحف. ثم ذهبت الى مكتبة بلاكويل الشهيرة، فأدهشتني كثرة الكتب القيّمة التي تصدر تباعاً في مختلف أبواب العلم والمعرفة. يستدل المرء من هذا على ما بلغه النشاط الذهني

في هذه البلاد من مستوى رفيع، سواء بالنسبة للمؤلفين الذين وضعوا هذه الكتب، او اولئك الذين يبادرون الي اقتناء الكتب. ولاحظت ان الكتب ارتفعت أثمانها. قبل أربعة أعوام ابتعتُ كتاباً بخمسة جنيهات، وتبيّن لي الان ان ثمنه ارتفع الى الضعف. بل لاحظت ان المكتبة تضم بضعة رفوف تعرض فيها كتب عربية.

الأمـــير الحســـــن

حفل الافتتاح في المساء كان على مسرح شلدونين الفخم. كان هناك جمع من علية الانكليز وعدد من السفراء العرب، والمدعوين للاشتراك في المؤتمر. بدأ الحفل بعزف على الأرغن. وبعد ذلك كلمات غير طويلة، بدأها نائب رئيس مجلس الادارة لجامعة اوكسفورد، وتلاه الدكتور الحديدي، ثم الوزير دوجلاس هيرد، ثم الامير الحسن ولي عهد الأردن واخيراً أمير ويلز ولي عهد بريطانيا.

خطاب الأمير الحسن كان استثناء لكل ما قيل. فقد ألقاه ارتجالاً، وبرهن انه سيد من سادات المنابر. ذلك ان العبارات كانت متصلة المعاني، وكان حضور ذهنه واضحاً. أشار الأمير في خطابه الى أشخاص خدموا علم الآثار في الأردن، وخصّ بالذكر كاثلين كينيون وجيرالد هاردنغ، وتمنى لو أنهما كانا حاضرين (توفي كلاهما قبل عامين). شعرت بكثير من الاعتداد والزهو وانا أستمع اليه. أمير عربي يثير الاعجاب بعلمه وذكائه واطلاعه. التصفيق الذي حظي به من المحتفلين لم يحظ بمثله أحد آخر.

اما كلمة ولي عهد بريطانيا فقد حفلت بالعبارات ذات الطابع المرح، مما أثار قليلا من الضحكات الخافتة وكثيراً من الابتسامات العريضة. لاحظت الابتهاج يطفح في وجوه الجميع، باستثناء وجه شقيق امبراطور اليابان الذي بقي طوال الوقت جامدا لا تتحرك عضلة واحدة فيه. استدللت من ذلك على جدية اليابانيين وما نشأوا عليه من انضباط.

أتيح لنا في اثناء انعقاد المؤتمر أن نزور قصر بلنهايم، قصر دوق مارلبورو الذي انتصر على الفرنسيين في حرب ١٧٠٤، وهو جد ونستون تشرشل. قصر باذخ عظيم.

في محاضرة الاستاذ فيتا فنزي قال ان وادي الأردن كان في الزمن القديم بحيرة تمتد من أطراف مصب نهر اليرموك الي جنوبي البحر الميت، وان البحر الميت كان جفّ تماما ثم عاد وامتلأ بالماء. وكانت هناك بحيرة في الأزرق وبحيرة في الجفر البراكين تركت آثارها على طبيعة الارض، وتربة وجه الارض أزيحت عن المرتفعات وهبطت في البحيرات. هذا المحاضر أثار اهتمام الحضور بكثرة اشاراته الذكية واجاباته الممتزجة بروح الفكاهة. هذا سر من أسرار الموهبة الشخصية، والفرق

عظيم بين الرتابة المملة والحيوية المتدفقة. كان من حسن حظه - وحظنا على الأرجح - أن تغيب الاستاذ الذي كان سيحاضر قبله. ومن هنا استطاع ان يتبسط في سعة من الوقت.

في حفل الافتتاح جلس نائب رئيس الجامعة على الكرسي الأوسط المرتفع قليلا والأكثر فخامة من الكرسي الذي على اليمين والكرسي الذي على اليسار، واللذين جلس عليهما الامير الحسن وولي عهد بريطانيا. احترام الانكليز لولي عهد بلادهم موجود وماثل، ولكن ممثلي المؤسسات لا يتنازلون عن مقاعدهم وامتيازاتهم المجتمعية والتقليدية، حتى لولي العهد. كل شيء في مكانه عندهم، المكان الذي ترسّخت مكانته عبر السنين.

في اليوم التالي عقد المؤتمر جلسته الأولى. كلمة افتتاح عميقة من الامير الحسن، وفيها الدعوة للمختصين كي يفكروا بما يمكن عمله. كانت هناك أسئلة واقتراحات (١) تأليف مركز لدراسة علوم الاثار. (٢) مركز لدراسة النقود الاسلامية. (٣) التركيز على الافادة من نتائج الحفريات لمعرفة تاريخ البلاد وتطورها الحضاري. (على الاثر تبرع الاستاذ سمير شمّا - وكان احد المشاركين في المؤتمر - بمبلغ من المال للانفاق على كرسي للدراسات الاسلامية في جامعة اليرموك، ومن الجملة دراسة المسكوكات الاسلامية).

التـاريخ مــــن الآثـــــار

بدأ تقديم الأبحاث. معظمها من رجال وسيدات قاموا بحفريات هنا وهناك: في باب الذراع، في تليلات الغسول، في البيضا وفي جاوه (قرب الصفاوي)، البحاثة الكندي اللامع الذي حدثنا عن جاوه قال ان أهلها أنشأوا سداً واسعاً لحجز الماء، ولكن اقامتهم لم تكن طويلة. يبدو ا قبائل البدو هاجمتهم ونهبت مياه السد، فاضطروا الى الرحيل.

اشتركت في نشاطات المؤتمر شابةٌ يقارب عمرها الثمانين سنة (اولجا تبنل) تكلمت باسلوب منطقي. ظهر في حضورها سرّ الحياة المتدفق الذي لا ينهزم أمام السنين الطويلة.

لقي البحث الذي قدمته اهتماماً من كثيرين. تحدثتُ عن أهل الأردن في أوائل القرن العشرين. عن عاداتهم وتقاليدهم واسلوب حياتهم. صورت المجتمع في تلك الفترة. ذكرت (الخاوة)، وقلت ان القبائل الكبيرة كانت تفرض الخاوة في مناطقها بسبب عدم وجود حكومة. الخاوة كانت ضريبة، تستوفيها القبيلة القوية، لكي تقدم الأمن للناس العاديين في منطقة تلك القبيلة. فيما بعد تلقيت مجلةً ايطالية تناقش التفسير الذي تضمنه بحثي وتنوه به على أساس أنه تفسير جديد للخاوة،

بينما كان الاعتقاد السائد سابقاً ان الخاوة عملية شريرة يمارسها القوي عنوة واقتداراً على الضعيف على طريقة عصابات المافيا (الدكتور روبرت نورث في مجلة Oreintalia لعام ١٩٨١).

مساء ذات ليلة دعاني بلفور بول (السفير البريطاني السابق في الأردن) لتناول كأس شراب في شقته. كان في اليوم السابق اقترض مني شلناً كي يتكلم في الهاتف، ثم حاول أن يردّه لي فلم أقبل. كان بلفور بول يقيم في شقة مع زوجته الشابة الحسناء (جيني) التي تقل سنوات عمرها عن نصف سنوات عمره (كانت سكرتيرة له في السفارة، وتوفيت زوجته، فبنى بها). وجدت هناك بضعة مدعوين بينهم دين براون، سفير اميركا سابقاً في الأردن.

قال دين براون انه ذهب ذات يوم الى وزارة الخارجية الأردنية، عندما كان (....) وزيراً للخارجية. شاهد هناك ثلاث صور للبتراء. فسأله الوزير عن رأيه في تلك الصور، ثم أردف قائلا: انه لم يذهب قط للبتراء. استغرب بلفور بول هذا القول، خاصة وان الوزير أمضى سنين عديدة في خدمة الحكومة، وكانت زيارة البتراء أمراً في غاية السهولة عليه. قال انه عندما كان في الجزائر قبل سنتين ذهب وزوجته الى جبال الأطلس، الى منطقة تعتبر أكثر المناطق برودة في العالم: للرياضة والتفرج. قلتُ في نفسي: عند هؤلاء الناس طاقة عظيمة يطلقونها من عقالها: يتعلمون ويظلون كل عمرهم يتعلمون. وفوق ذلك تراهم يقومون برحلات. يعيشون حياة عريضة حافلة.

قال بلفور : أتعرف الفرنسية؟

قلت: أعرف أعظم لغتين في العالم: العربية وهي لغة الملائكة، والانكليزية أوسع لغات العالم انتشاراً.

قال مازحاً: اذا كانت العربية لغة الملائكة، فالانكليزية لغة رؤساء الملائكة. والفضل في انتشارها ليس للامبراطورية البريطانية فحسب، بل لاننا استعمرنا بلاد دين براون فترة من فترات التاريخ.

قال دين براون: أتعلم انه في بداية عهد الولايات المتحدة بالاستقلال، جرى تصويت في الكونغرس حول اختيار الانكليزية او الالمانية، لغة رسمية، وان الانكليزية فازت على الالمانية بصوت واحد فقط.

قال بلفور بول: لم أكن أعلم ذلك.

ومرت سنوات. وفي صيف ١٩٩٤ جاء بلفور بول وزوجته الى عمان، لاستعادة الذكريات الحميمة. ودُعيت للالتقاء بهما في حفل ضم نخبة من أصدقائهما. كانت السيدة جيني قدحصلت على شهادة الدكتوراه. وكان بلفور بول قد ألف كتاباً عن

خروج بريطانيا من السودان وعدن وأقطار الخليج العربي، وهو من منشورات جامعة كامبردج. وللتدليل على أن تعب الكاتب باللغة الانكليزية، لا يذهب سدى فان هذا الكتاب نُشر عام ١٩٩١ وظهر في طبعة ثانية في العام التالي، ثم في طبعة شعبية بعد عامين. The End of Empire in the Middle East.

وبعد خمسة عشر عاما شاركت في المؤتمر السادس للآثار الذي عقد في مدينة تورينو (ايطاليا) خلال أيام ٥-١١ حزيران ١٩٩٥. كانت تلك فرصة عظيمة أتاحها لي الدكتور غازي بيشه تقديراً منه لمساهمتي في كتابة تاريخ الأردن. معظم الأبحاث التي أُلقيت كانت موغلة في تقنيتها العلمية، ولكن المؤتمر كان مدار استنارة وثقافة ومعرفة. هاهو الشرق والغرب يلتقيان في هذه المدينة الرائعة. وفي حزيران شاهدنا هطول المطر الغزير وسمعنا قصف الرعد المدوي. كان من الملفت للنظر أن الدكتور رؤوف ابوجابر قدم بحثاً طريفاً عن الزراعة في الأردن. ومما أثار اعجابي ان الرجل اشترك في هذا المؤتمر (وفي مؤتمرات سابقة) على نفقته الخاصة. تمنيت لو أن كثيرين من رجال المال والأعمال في بلادنا، يخصصون جزءاً من نشاطاتهم - مثل ابوجابر - للعلم والثقافة والمتع الذهنية.



مؤتمر تاريخ الأردن (تورينو ١٩٩٥) الدكتور رؤوف ابو جابر والمؤلف.

المـانيـا الغـربيـة
(نيـسـان ١٩٦٤)

بالنسبة لشرقي مثلي، فان الرحلة الى أحد الأقطار الأوروبية تعطي أبعاداً ثقافية واجتماعية جديدة. هناك اختلاف في العادات والمفاهيم وأنماط السلوك، وهناك معالم عمرانية قلما يجد المرء مثيلاً لها في بلادنا. كانت الرحلة بدعوة من دائرة الصحافة في المانيا. ورافقني فيها شخص آخر (ابوسعيد) لم تكن لي معرفة سابقة به.

حللنا أولاً في مدينة بون (عاصمة المانيا الغربية)، وكان من جملة من قابلناهم الدكتور شريمر، رئيس قسم الشرق الأدنى والأوسط في وزارة الخارجية. تحدث الرجل حديث معرفة وخبرة. كان من جملة الآراء التي طرحها انه يعتقد ان دعاية العرب يجب ان تركز - فيما يتعلق بقضية فلسطين - على نقطتين (١) حق تقرير المصير. (٢) الحق الطبيعي للانسان في الاقامة في منزله وأرضه وبلده. وكان شريمر يبني رأيه هذا من منطلق الاعتقاد بأن الرأي العام في أوروبا لا بدّ أن يتعاطف مع هاتين النقطتين ويحسّ بما فيهما من مشروعية.

كان من سوء الحظ في ذلك اللقاء - وفي لقاءات أخرى - ان زميلي استعمل لسانه أكثر بكثير مما استعمل أذنيه، متدخلاً ومعترضاً ومصحّحاً، مع الادعاء بأنه شاعر وكاتب وصحافي وعالم نفس ومؤلف وخبير بقضايا اللاجئين، بل بالنهضة النسائية!!

وفي مدينة كولون التقيت بالكاتب الالماني وارنر كوخ، الذي كان زار الاردن قبل شهرين، رئيساً لفريق تلفزيوني ينتج فيلماً عن لورنس. وكانت ترجمة أحد كتبه (تأملات بيلاطس) الى الانكليزية قد صدرت في بريطانيا قبل فترة قصيرة. وقد اتاح لي كوخ مشاهدة مسودة الفيلم الذي تقرر ان يُعرض في ألمانيا يوم ١٣ تموز، فرأيت لقطات من المقابلة التي كان أجراها معي في عمان. وفي كولون تفرجت على بناية الكاتدرائية ذات الأبراج الشاهقة، والتي قيل ان بناءها استغرق ٨٠٠ سنة.

وانتقلنا الى برلين، وهناك طلبت اذناً خاصاً لزيارة متحف البرجامون في برلين الشرقية. حيث شاهدت واجهة قصر المشتّى التي كان السلطان عبدالحميد أهداها لقيصر المانيا، والتي قام الالمان بنقل حجارتها (أو قطع آجّرها) عام ١٩٠٣، ثم أعادوا بناءها في هذا المتحف.

في المانيا شاهدت وعرفت ما لم أشاهد وأعرف من قبل. المتعة الذهنية في مشاهدة

المسرحيات وقصص الأوبرا، في صالات بالغة الفخامة في هامبورغ وميونيخ وبرلين (سيدتي الجميلة، زواج الفيجارو، عُطيل، اوجين اونيجين). والتفرج على قصور ملوك بافاريا المدهشة وعلى المتاحف الحافلة بآيات الفن. زيارة بيت غوته شاعر المانيا الأكبر. الليلة التي لا تنسى في (الريزي) في برلين، حيث يرقص ماء النوافير على أنغام الموسيقى، والسهرة الاخرى عند كريستين في ميونيخ. تجربة غنية ونادرة لأبن قرية مثلي لم يعرف في بلاده مثل هذا. ومرت ساعات المتع الذهنية كأنها حلم من الأحلام. ولم تبق الا أصداء الذكريات البعيدة.

غادرت برلين وأصداء أغنية «نسيت حقيبة في برلين» تتردّد في مسامعي. وودعت ميونيخ وانا أقول في نفسي: هل يمكن ان يتكرّر هذا؟ وبعد ٢٨ عاما عدت الى برلين فرأيت انها أصبحت دون جدار يفصل بين القسم الغربي والقسم الشرقي منها. اما ميونيخ فلم يقدّر لي أن أعود اليها حتى الان.

في دار الأوبرا وفي المسرح يبلغ اعجابك مداه، بما تلاحظ من شدة اهتمام الالمان بهذه الفنون الراقية، فتراهم يرتدون الملابس الرسمية، ويتأنقون الى أقصى حد، وفي أثناء التمثيل تراهم خاشعين والهين مستغرقين، لا ينبس الواحد منهم ببنت شفة، كأن على رؤوسهم الطير. هنا نوع من تجليات الصوفيين ومن عبادة النسّاك. تسقط الأبرة فتسمع صوتها. وترى عيون النظّارة مشدودةً الى المسرح ومن فيه من ممثلين وممثلات، تتابع بشغف كل سكنة وحركة، تتفاعل معهم بالروح والوجدان، في حالة من حالات الوحدانية الصوفية ... ولكن هذا كله لا يلبث ان يبلغ ذروته التي لا ذروة بعدها، عندما ينتهي المشهد الأخير. عندئذ فقط تدب الحياة في عروق المشاهدين ويبدأ التصفيق، ويمتد ويتصاعد، ويذهب الممثلون وراءالستار، ولكن تصفيق النظارة المتواصل يضطرهم الى العودة، مرة ومرتين وثلاث مرات. وتلمس التواصل الروحي بين الطرفين، هذا الذي أعطى وهذا الذي تلقّى. كم يسعد الفنان الذي أعطى من ذوب قلبه على خشبة المسرح، عندما يجد كل هذا التمجيد وكل هذا التقدير ... تقاليد حضارية تثير الدهشة والاعجاب...

كولون ـ ١٩٧٨

ذهبت الى المانيا بعد ذلك مرتين، احداهما الى كولون، بدعوة من التلفزيون (وارنر كوخ)، والثانية الى هامبورغ بدعوة من الدكتور هلموت مايشر.

كان كوخ قد جاء في ربيع ١٩٧٨ الى الأردن على رأس فريق من التلفزيون، لتصوير فيلم عن البدو في وادي رم. بعد ذلك ببضعة أشهر وجه دعوة لي لمشاهدة الفيلم واعطاء رأيي فيه. كان هناك اهتمام بأن ينال الفيلم اعجاب المسؤولين في التلفزيون الأردني. والتقيت بكوخ وتحدثنا طويلا. هو صديق للعرب، وللأردن مكانة خاصة في نفسه. شكا من ان أصدقاء العرب لا يجدون تجاوباً كافياً من قبل

العرب. في عام ١٩٦٦ كتب مقالة عن مأساة عرب فلسطين، كادت مؤسسة التلفزيون تطرده من العمل بسببها. ذات يوم دعته حكومة الامارات في الخليج العربي لزيارة ابوظبي، وعندما اعتزم ان يسافر، واجهته الجهة الداعية بأذن من طين وأخرى من عجين. وأنتج فيلماً بعنوان (العرب في اوروبا)، فطلبت منه السفارة العراقية في بون نسخة منه، ودفع ثمن النسخة من جيبه وقدمها للسفارة. وعندما سأل، بعد مرور مدة من الزمن، عن النسخة وماذا حدث بشأنها، قيل له انها ضاعت ولا علم لأحد بموضوعها.

كولون استمدّت اسمها من الرومان الذين افتتحوها وجعلوا منها مستعمرة Colony لهم. والعطر الذي نسميه في بلادنا (كولونيا) استمد اسمه من اسم هذه المدينة، اذ ان صناعته بدأت أول ما بدأت، فيها. والكاتدرائية الشهيرة بدأ البناء فيها في القرن الثاني عشر وانتهى في القرن التاسع عشر. والسبب ان البناء توقف ثلاثة قرون (من السادس عشر الى الثامن عشر) بسبب قلة المال. واشتركت كولون في الحروب الدينية التي استمرت ثلاثين عاما في اوروبا، فكانت الغلبة فيها للكاثوليك، وكان من تعصب هؤلاء انهم منعوا البروتستانت من بناء كنيسة لهم في المدينة، الى ان جاء نابليون فسمح لهم بذلك.

في الأصل كان للمدينة سور دفاعي قديم من أيام الرومان. ثم توسعت وأُقيم لها سور آخر في القرن الثاني عشر. وفي القرن التاسع عشر ضاقت المدينة بأسوارها، فكتبت السلطة المحلية الى العاصمة برلين تطلب الاذن بهدم السورين. وجاءت الموافقة بالهدم شريطة ابقاء جزء من السور الأول وجزء من السور الثاني، كشاهدين تاريخيين. وما يزال الجزءان ماثلين حتى يومنا هذا، ذكرى حضارية على ان الانسان المعاصر لا يقضي قضاء مبرماً على آثار من سبق من أسلافه الأقدمين. أكتب هذا وانا أشعر بالالم لما حدث في بلادنا من تدمير للمعالم التاريخية. وقد حدث انني ذهبت بالسيارة في عام ١٩٦٠ من عمان الى البتراء، مرافقاً لأحد أعضاء مجلس النواب البريطاني. وقد شاهدنا بعد مرورنا بالطفيلة أجزاء من الطريق السلطاني القديم التي كان الرومان رصفوها بالحجارة الملساء، لكي تمر عليها العربات. كانت تلك الأجزاء في حالة سليمة وتمثل أثراً تاريخياً وحضارياً ذا أهمية. بعد سنوات قررت الحكومة بناء طريق معبدة تمرّ عبر الطريق التي رسمها المهندسون الرومان. كان بمقدور المهندس الأردني المسؤول أن ينشيء الطريق الجديدة في محاذاة الطريق القديمة، ولكنه لم يدرك أهميتها، فأصدر أوامره بجرفها. فيما بعد سمعت ذلك المهندس (...) يعلن ندمه في حديث عبر الاذاعة، على ما فعل. ،لكن ما فائدة الندم بعد فوات الأوان؟

الجزء الذي بقي من سور كولون الثاني يضم برجاً من أبراج الدفاع، ويطل

منه رأسا حصان. وراء ذلك قصة طريفة، قصة أمرأة غنية توفيت وعمل زوجها على دفنها ومعها جميع حليها وجواهرها. عرف أحد اللصوص بما حدث، فذهب في الليل وفتح الضريح وسلب الحلي والجواهر، وترك كل شيء على حاله. لم يكن اللص يعلم انه أعاد الحياة الى المرأة، ذلك ان تحريكه لجسدها المسجى كان كافياً لايقاظها من الغيبوبة. ولم تلبث المرأة ان نهضت واستجمعت قوتها وعـــادت أدراجها الى منزلها الذي كان يواجه البرج. وقرعت الباب ففتحت الخادمة لها. وذهلت الخادمة فعادت تركض الى حيث كان الزوج المفجوع وأخبرته بأن زوجته عادت. قال الزوج: لا أصدق ما تقولين، الا اذا كان بالامكان ان أصدق ان حصانين يمكن ان يصعدا الى هذا البرج ويطلا برأسيهما منه. وتقول الحكاية ان الزوج رفع بصره الى البرج فشاهد حصانين يطلان برأسيهما عليه.

في حديث مع هوسارت (مخرج الفيلم) قال ان عدد السكان يتناقص في المانيا، لان الشبان لا يريدون ان يتحملوا هموم الأبناء ومسؤولياتهم. يقولون لك: لماذا؟ نحن نريد ان نعيش لأنفسنا. عدد النساء في المانيا يزيد ثلاثة ملايين على عدد الرجال. دار الحديث حول المشاكل التي يمكن ان تنشأ عن ذلك.

في المانيا عندهم أكثر من مليون عامل دون عمل (١٩٧٨). قلت لكوخ: قيل أن عندكم أكثر من مليوني عامل من خارج المانيا، فكيف يحدث ذلك؟ قال: هؤلاء جاءوا للعمل هنا يوم كنا بحاجة ماسّة لهم قبل عشر سنوات وأكثر. عندنا الان قانون بأنه لا يحق للدولة أن تخرج أي شخص أجنبي بعد ان تمر خمس سنوات على اقامته. الأسباب أخلاقية.

قال هوسارت: الغريب انكم ايها العرب لا تتفقون مع بعضكم البعض. كان معنا في وادي رم ثلاثة أشخاص، وكان لكل واحد منهم رأي يختلف عن رأي الآخر في كل مسألة تعرض لنا. قلت. مع الأسف، في قولك بعض الصحة. قبل ثلاث سنوات سأل أحد الصحافيين فناناً معروفاً في بلادنا (دريد لحام) عن مدى تشجيع المائة مليون عربي للفن والفنانين. كان جواب (غوار): هذا الرقم غير دقيق، الأصح ان تقول. المائتي مليون عربي. السبب؟ لكل عربي على الأقل رأيان، أحدهما بينه وبين نفسه، والثاني للاستهلاك الخارجي! (نشرت المقابلة في جريدة الرأي).

هـــــامبـــــورغ

اما الرحلة الى هامبورغ (نيسان ١٩٨٢) فكانت للاشتراك في مؤتمر عقدته جامعة تلك المدينة عن النفط وتأثيره. قبل حضوري كتبت بحثا عن تأثير النفط على الأردن، البلد الذي لا ينتج النفط، ولكن تعرّض لتأثيرات قوية من قبل الدول النفطية المحيطة به.

كان هناك الاستاذ الاميركي (فاف) الذي زار الأردن سابقاً واستعمل كتابي عن تاريخ الأردن مصدرا. في البحث الذي تقدم به أدخل موضوع الدين الاسلامي دون مبرر، وجهت له الملاحظات التالية:

١ ـ ما هي العلاقة بين النفط والشرعية التي ركز عليها؟

٢ ـ ما دخل الاسلام في انتاج النفط؟

٣ ـ جميع مداخيل الدول العربية من النفط لا تساوي اكثر من ٥٪ من الدخل القومي للولايات المتحدة.

٤ ـ لماذا لا يعطينا أحد الباحثين أرقام المبالغ المالية التي نهبتها شركات النفط من بلاد العرب؟

٥ ـ بدأ انتاج النفط في العراق في سنة ١٩٢٧، وعلى الرغم من ذلك ذهب فاضل الجمالي سنة ١٩٤٨ الى مصر ليقترض لبلاده مليون جنيه (لم يحصل على شيء).

أجاب فاف أجوبة غير مقنعة. قارن بين اليابان والسعودية. أبدى رأيه بأن العرب يهتمون ببناء العمارات واقتناء السيارات. الأردن أنفق سنة ١٩٨١ خمسة ملايين دولار على البحث العلمي، بينما أنفقت اسرائيل ٦٩١ مليوناً، مع ان عدد سكانها يقارب عدد سكان الاردن. لخّص رأيه بأن أصل البلاء يعود الى عدم المساواة بين الرجل والمرأة.

بعض الحضور أثنوا على البحث الذي قدمته. في نهاية الندوة قال الدكتور هلموت مايشر (الداعي لعقد الندوة) انه يشكرني بصورة خاصة على البحث الذي قدمته، لان أحداً لم يكن يعرف مدى تأثير النفط على بلد لا ينتج النفط.

الذين اشتركوا في الندوة اختصاصيون في موضوعاتهم. سمعت عن الاقتصاد كلاما يملأ النفس بالاعجاب. هنا يشعر المرء كيف استطاع ابناء هذه الشعوب ان يتقدموا: بالعمل والفهم والدراسة والاجتهاد. يفيدون من الوقت الى أقصى حد. يعرفون عن بلادنا وقضاياها ومشاكلها أكثر مما نعرف بكثير (بينما أحد الزملاء العرب قدم حديثاً انشائياً).

يجدر بي هنا ان أشير الى ان الشركة التي تصنع سيارات (الفوكس واجن) هي التي خصصت مبلغاً من المال لتغطية نفقات المؤتمر.

في حديث لي مع هلموت مايشر والدكـــتور محمد بن مدني (يصدر مجلة The Maghreb Review في لندن) سمعت القصتين التاليتين:

١ ـ برنارد لويس، الاستاذ والمؤلف الشهير، ضبطه الأتراك ذات يوم وهو يقص

أوراقاً من كتب ووثائق في دار المحفوظات في استانبول. فتشوا غرفته في الفندق فوجدوا أوراقا مسروقة أخرى. حجزوه وأحالوه للمحاكمة، ولكن أحد الوزراء تدخل لمصلحته، فاكتفوا بطرده ومنعوه من العودة الى تركيا. نتيجة لهذه الفضيحة فصلته جامعة لندن للاقتصاد من عضوية التدريس فيها، فذهب الى اميركا واتخذ منها دار اقامة له.

٢ - الدكتور صفاء خلوصي كان يحاضر في مدرسة لندن للاقتصاد، أحد التلاميذ أعطاه ذات يوم بحثاً ليطلع عليه ويعطي رأيه فيه. بعد مدة ألقى صفاء ذلك البحث في قاعة التدريس .بعد أن فرغ من تقديم البحث نهض الطالب اياه وقال: ولكن هذا هو بحثي يا دكتور؟ وكانت فضيحة انتهت بفصله من عضوية التدريس.

قال مايشر ان موظفاً في أحد معاهد البحث في هامبورغ واسمه عزيز القزاز، أوفده المعهد الى الخليج العربي، وهناك أخذ يزعم انه استاذ في جامعة هامبورغ، ونشرت بعض الصحف تلك المزاعم.

كان من محاسن الصدف ان الصديق الاستاذ نجدة فتحي صفوت اشترك في هذه الندوة. سعدت كثيراً بصحبته والحديث معه.



مهرجان المربد - مدرج بابل - ١٩٨٨ - المؤلف مع عبد الرحيم بدر
في الصف الثاني: نوال عباسي وجميل علوش ورناد الخطيب



مع وارنر كوخ - كولون ١٩٧٨

أيـــام فــــي رومــــا

في مدينة روما، وقفت الى جانب نبع (تريفي)، حيث تتدفق المياه بين الصخور والتماثيل، ثم أدرت ظهري الى الوراء وألقيت في الماء قطعة من النقود المعدنية، وانا أقول في نفسي: الا ليتني أعود اليك يا روما. كان ذلك على سبيل الانسياق مع اسطورة قديمة تقول ان من يفعل ذلك يعود مرة أخرى الى روما. كثيرون يفعلون ذلك، ولكن - على الأرجح - فان أكثر الذين يديرون ظهورهم ويلقون قطعة النقد في الماء، لا يعتقدون كثيراً بصحة تلك الاسطورة، الا انهم يفعلون مثلما فعلت، بين الجد والمزاح. ومن يدري؟ لعل الأسطورة صحيحة، ولعل الخيال يتحول الى حقيقة. ولعل القدر يستجيب لتلك الأمنية البريئة!

هناك قول مأثور في عالم السياحة: اذا أردت ان تتفرج جيداً فاستعمل قدميك. وهكذا قضيت الكثير من ساعات الأيام العشرة التي أمضيتها في روما (تموز ١٩٧٢) وأنا أسير على قدمي - مع زميل الرحلة أنور الرفاعي - لكي نملّي أنظارنا من روعة المشاهد العظيمة التي تحفل بها هذه المدينة العريقة. رأيت عشرات الآلاف مثلي يتجولون في روما، وكل واحد منهم يحاول ان يشاهد معالمها بطريقة ما. هناك أفواج السياح - وأكثرهم من بلاد العم سام - الذين يحاولون مشاهدة المعالم الرئيسية في مدى يومين، فينتظمون في مجموعات ويشتركون في جولات مع احدى الشركات السياحية التي تؤمن دليلاً وحافلة لكل مجموعة، فتنقلهم الحافلة من موقع الى آخر، ويقف بهم الدليل - أو الدليلة - ويشرح بعبارات قد تطول وقد تقصر شيئاً عن تاريخ ذلك الموقع. ويتحرك الدليل بعد دقائق فيتحركون وراءه. وهكذا الى نهاية الجولة التي تستغرق في العادة نصف نهار أو نصف ليلة. وقد بدا لي ان تلك الجولات لا تشفي الغليل، لان المرء لا يكاد يستمتع بالنظرعلى مهل الى صورة أو تمثال. ربما كانت هذه الوسيلة هي الأفضل بالنسبة لمجموعة من السياح، يقضي برنامج رحلتها أن تقضي يومين في روما، ولكنها حتماً لا تشبع أشواق النفس ولا تروي لهفة العين. ثم ان المرء يكاد يشعر أن المجموعة تسير وراء الدليل كما يسير القطيع وراء الراعي. وعلى أية حال فان هذا أسلوب من أساليب القرن العشرين، ومظهر من مظاهر السرعة التي يتميز بها عصرنا والتي يقضي الواحد منا أيام عمره، في غمرتها، لاهثاً وراء أمنياته، بل وراء السراب والمستحيل.

بطبيعة الحال هناك السياح الذين يجيئون الى روما لقضاء وقت أطول من يومين .بين هؤلاء كثيرون من الشبان والشابات، ومعظمهم من أقطار القارة الأوروبية ومن طلاب الجامعات. هؤلاء يسافرون بأرخص وسائل النقل وهم يحملون خياماً صغيرة وكميةً قليلة من الأمتعة الضرورية، وبهذا لا تكلفهم الاقامة

في المدن الا القليل من النفقات، اذ يبيتون في خيامهم في العراء او في دور الشباب والطلاب، فلا يبقى عليهم سوى مسألة الطعام، وهذه يعالجها كل واحد في نطاق ما يملك من نقود. ويتراوح هذا بين الأكل في المطاعم الشعبية وبين شراء بعض المأكولات من البقالات، وتناول الطعام على جنبات الطرق، او حيثما اتفق. وقد شاهدت من وسائل السفر الحديثة سيارات نصفها الأمامي للركوب ونصفها الخلفي للنوم، وبذلك يتوافر للعائلة التي تستعمل سيارة كهذه، وسيلة السفر والتنقل ووسيلة النوم مجاناً وابتياع الطعام من الأسواق، بالاضافة الى حرية الحركة والاقامة.

أفراد هذا الطراز من السياح يستطيعون مشاهدة الأماكن الأثرية والتاريخية والدينية ومتاحف الفن، عن كثب وعلى مهل. فتراهم في أكثر الأحيان يسيرون اثنين اثنين ـ الصديق والصديقة ـ وهم يحملون الكتب التي تتحدث عن تلك الأماكن وعن تفاصيل ما تضمه من تماثيل ورسوم. فيقفون هنا دقيقة وهناك عشر دقائق وأحياناً يجلسون على المقاعد يتأملون لوحة من اللوحات أو تمثالاً من التماثيل.

اما في الليل فتتخذ الحياة في روما طابع اللهو والمرح. فترى الفتيان والفتيات يحتشدون في الساحات العديدة التي تتوسطها التماثيل ونوافير الماء. فبعضهم يجلسون على المقاعد المحيطة بالنوافير للاستمتاع بنسمات الليل المنعشة (الحرارة في روما في الصيف تماثل الحرارة في عمان، مع زيادة في الرطوبة)، وبعضهم يتحلقون حول موسيقار يعزف على قيثارة، والبعض الآخر يحيطون بفنان شاب يرسم فتى أو فتاة على ضوء مصابيح الكهرباء، وآخرون «يتمشكحون» جيئة وذهابا وشعورهم الطويلة منسدلة على أكتافهم. فما أشبه هؤلاء بالهمشريين والهمشريات الذين نادراً ما نصادفهم في بلادنا: هؤلاء الذين ألقوا غوارب همومهم على حبال اللامبالاة، ونسوا ما حدث بالأمس لهم وللعالم من حولهم، وتركوا أمر الغد والمستقبل لما سيأتي به الغد والمستقبل. هم يعيشون حاضرهم ساعة بساعة، ويرمقون المسؤوليات والهموم بنظرة ازدراء وتجاهل. يعتبرون أنفسهم جيل الرفض، جيل التحدي، الجيل الذي يرفع شعار العودة الى الحياة البدائية، الى طراز الحياة التي عاشها الأسلاف في العصور الغابرة، الى حياة البساطة واللامبالاة والمرح والانطلاق.

معظم هؤلاء الشباب ينطبق عليهم قول الشاعر الجاهلي أمرئ القيس «اليوم خمر وغداً أمر». ففي أشهر الصيف يتفرق الآلاف من طلاب الجامعات لقضاء العطلة السنوية في بلاد أخرى. وكثيرون منهم يطلقون لأنفسهم عنان الحرية ويلقون عن كواهلهم هموم المسؤولية. ولكن ذلك في حساباتهم ليس سوى وسيلة لحشد الطاقات وتجديد القوى، كي يعودوا الى جامعاتهم أشدّ ما يكون المرء

انضباطاً وأفضل ما يكون عزماً وقوة ارادة لمتابعة الدراسة.

وفي روما من عجائب الفن ما يدهش الألباب. وأهم المعالم الأثرية (الكولوسيوم) الروماني الذي أنشأه الأباطرة في القرن الخامس قبل الميلاد. وهو بناء بالغ الضخامة والاتساع والارتفاع. وقد أُنشيء لتسلية أهل روما عن طريق ألعاب الفروسية والمصارعة والمبارزة (بين بني آدم والوحوش الكاسرة تارة، وبين أبطال القوى تارة اخرى). والفرق بين ألعاب عصرنا الراهن وألعاب الرومان القديمة، ان الأسلاف الأقدمين كانوا يبتهجون لسفك الدماء، فيصفقون اذا استطاع أسد جائع أن يمزق الرجل الذي خرج لمبارزته بأنيابه الحادة. ويصرخون سروراً اذا تبارز اثنان من الرجال الأشداء فصرع أحدهما الآخر بضربة سيف أو بطعنة رمح. ويقال ان الانسان في عصرنا هذا أصبح أرفع ذوقاً وأرق احساساً وأكثر انسانية. ولكن بعض المتعمقين من أهل الفكر يصرون على ان الانسان ما يزال على طبيعته الاولى، وانه اذا كان الناس في أيامنا هذه لا يعملون على تنظيم مبارزات يقتتل فيها الرجال اثنين اثنين، فانهم يعملون على تنظيم الحروب الصغيرة والكبيرة، كي تقتتل الجيوش الجرارة ويسقط أبناء آدم قتلى بالآلاف وعشرات الآلاف وحتى الملايين. ولكن لا بدّ من العودة الى موضوع (الكولوسيوم) الذي يكفي للتدليل على ضخامته أن أحد الأباطرة عمل ذات يوم على ملء ساحته بالماء، ثم جاء بسفن صغيرة وحشد البحارة على ظهورها، وعمل على نشوب معركة بحرية سالت فيها الدماء وتحطمت السفن. كل ذلك لكي يشاهد أهل روما من طبقة النبلاء وطبقة العامة على السواء، معركة بحرية حقيقية.

اما كنائس روما فمتاحف للفن الرفيع المترف في أبهى مستويات الفن، سواء في روعة هندستها، أو بما تزدان به جدرانها من التماثيل الدقيقة الصنع، كتمثال النبي موسى الذي يقال أن مايكل انجلو عندما فرغ من نحته، وقف يتأمل روعته وكماله، ثم خبطه بالمطرقة قائلا: لم لا تنطق؟ أو في اللوحات التي بلغ من قدرة فناني عصر النهضة على رسم شخوصها وملامحها، أن العربي لا بد ان يستذكر عند مشاهدة احداها، بيت البحتري الشهير في وصف شخوص اللوحات في ايوان كسري:

يغتلي فيهم ارتيابي حتى تتقرّاهمُ يداي بلمسِ

ووقفت مع رفيق الرحلة، في فيلا بورجيزة ذاهلين مشدوهين أمام تمثال الصبي، وهو يثني ساقه ويمسك قدمه بيد، ويحاول ان يقلع شوكة من باطن قدمه باليد الآخرى. ولكن وقفتنا الطويلة كانت في كنيسة (سستين) الى جانب متحف الفاتيكان، أمام تلك اللوحة الخالدة التي تمثل العلي الأعلى في يوم الدينونة، يوم الحساب الأعظم، وقد وقف الأبرار الصالحون الى يمينه تعلو وجوههم امارات

البشر والانجذاب الالهي، بينما وقف الى يساره الأشرار الطالحون مكتئبين مبتئسين، وأبصارهم زائغة من هول المصير الذي صاروا اليه. والذي يصعد الى أعلى قبة كنيسة القديس بطرس الهائلة، يرى روما كلها تنبسط أمام ناظريه. ذلك ان ارتفاع الكنيسة وقبتها يبلغ ١٣٢ مترا. وترى في ساحة تلك الكنيسة المحاطة بصفوف الأعمدة البالغة الضخامة، جماهير الناس من مختلف الأقطار يخرجون منها أو يدخلون اليها زرافات ووحدانا. وترى بعض الرهبان يقفون في مداخل الكنيسة يمنعون الفتيات ممن لا يرتدين ملابس محتشمة من الدخول. ولكثرة احتشاد الناس وحركتهم الدائبة في الكنيسة، فان المرء يحسّ أنها أقرب الى متحف من متاحف الفن، منها الى مكان للعبادة والتأمل والخشوع.

لقد حضّ شاعرنا القديم على السفر وذكر خمساً من فوائده. ولكن ذلك الشاعر نسي ان يقول ان السفر يجعل الحياة كلها أكثر عرضاً وأعظم غنى. وما أشبه السفر بدراسة أسفار التاريخ، في انه يضيف الى حياة الانسان، الكثير الكثير من جوانب حياة معاصريه، وحياة من سبقوه الى دنيانا منذ أقدم الأزمان.



نبع تريفي ـ روما ـ ١٩٧٢
بهيج سنو، امل منيمنة، سليمان موسى، عواطف سنو.

ســويســـــرة
بـــلاد الطبيعـــة الساحـــرة

كانت الرحلة الى سويسرة أمنية ظلت تراودني الى أن تحقّقت في صيف ١٩٨١. كثير من رحلاتي، بل أغلبها، تحقق بفضل عملي في الحكومة. وهنا أقول انني لو لم أنتفع من خدمتي في الحكومة الا بهذه الرحلات، لكان في ذلك ما يزيد على الكفاية. صحيح ان كثيرين غيري من موظفي الحكومة طافوا بأقطار الأرض شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً. صحيح ان كثيرين من هؤلاء كان همّهم من السفر الحصول على المياومات والاستمتاع بالسهر والاكل والشراب ـ ولكن ذلك لا يحجب عني لحظة واحدة فضل تلك الخدمة ومقدار ما انا مدين به لها.

الرحلة الى سويسرة تمّت بترتيب شخصي. فقد حدث أن نايل ابن شقيقتي مريم، اتخذ من تلك البلاد موطناً ثانياً له (بسبب زواجه من روز ماري الفتاة السويسرية وحصوله علي عمل ملائم). كان نايل يوجه لي الدعوات للقدوم الى زيورخ ضيفاً عليه. وأخيراً قررت أن أغتنم الفرصة، فحزمت أمري، واعتزمت أن يكون ذلك بعد اختتام الاجتماع التالي الذي سأشترك فيه في تونس.

من تونس الى سويسرة، عبرت بي الطائرة فوق البحر الأبيض المتوسط، وحطت نصف ساعة في جنيف وبعدها الى زيورخ. مناظر مدهشة لا أجمل ولا أروع، الماء والخضراء والوجوه الحلوة. والطقس الرائع. ثمانية أيام أمضيتها كانت حافلة بالمتعة والنشاط. قمت برحلات داخلية عديدة وصعدت الى جبل ريجي الذي يرتفع ١٨٠٠ متر فوق سطح البحر. هناك جلسنا في مقهى وأخذنا نملّي أبصارنا من جبال الألب المغطاة بالثلوج، هنا الأنهار والجداول والأودية والبحيرات، والأشجار الكثيرة الكثيرة يانعة باسقة خضراء. وعلى مبعدة شاهدت جبل بيلاطس الذي يرتفع اربعة آلاف متر. كان مدهشا منظر النساء المتقدمات في السن وهن بملابس الميدان وسيقانهن العجاف مكشوفة، يقطعن المسافات ويتسلقن الجبال وعلى ظهورهن الحقائب.

من جبل ريجي أخذنا القطار الى شاطيء بحيرة لوسرن والبحيرات المتصلة بها. هنا ركبنا سفينة أخذت تطوف بنا من ميناء الى ميناء، حتى بلغنا مدينة لوسرن. كانت السياحة في البحيرات من أروع ما يكون، فالجبال العالية المكسوة بغابات الشجر تحيط بالبحيرات، تدهشك النظافة هنا والجمال في كل شيء: في الطبيعة وفي أبناء آدم وبناته.

في يوم آخر تجولنا في بحيرة زيورخ، ثم في قارب سار مع مجرى النهر. مناظر خلابة ومياه كثيرة.

هاتفت تحسين قدري ثم ذهبت لزيارته. الرحلة بالقطار تستغرق ٢٨٠ كيلومترا. نزهة ممتعة: أشجار لا حصر لها وبحيرات وأنهار. كل شيء تقع عليه العين أخضر وزاه وجميل. ومن محطة القطارات الى دارة تحسين قدري. عرف هذا الرجل كيف ينتقي المنزل الذي يعيش فيه. الدارة تطل على بحيرة لوزان وقبالتها جبال الألب على امتداد النظر والخيال.

حديث طويل عن الأيام القديمة، المؤرخون يبحثون أكثر ما يبحثون عما حدث في الأيام القديمة. قال ان زوجته أم لؤي ما تزال في البصرة، وان ابنيه يعمل أحدهما في روما والثاني في جنيف.

في مدينة زيورخ شاهدت تمثالاً من الحجر لشارلمان الشهير، في كنيسة كبيرة ذات برجين. من رأس أحد البرجين شاهدت المدينة كلها، تحيط بها الجبال الخضراء وتطل على البحيرة والزوارق ذات الأشرعة البيضاء التي تسبح فيها. هل يمكن ان يمل المرء من تملّي روعة هذه المشاهد. الغريب مثلي يستطيع أن يدرك كم حابت الطبيعة هؤلاء الناس. هل من المعقول أن تسخو الطبيعة بكل هذا على هذه البقعة من الارض، وأن تحرمنا كل ذلك الحرمان؟ وركبنا الترام فسار بنا بين المنازل والأبنية ذات السقوف القرميدية الحمراء. الا ما أجمل سقوف القرميد الأحمر وهي تبرز هنا وهناك بين غابات الشجر الأخضر. وسرنا في الغابة مسافة طويلة، أكثر من ساعة. أدهشني ارتفاع الشجر الى ٣٠ وربما الى ٤٠ مترا. ترتفع الأشجار سامقة بسيقانها المستقيمة. وترفع رأسك الى الأعلى حتى تشاهد رؤوسها.

والتقيت بهيلين كايزر، الكاتبة السويسرية التي كنتُ تعرّفت اليها في عمان قبل نحو عشرين سنة. لها كتاب عن الأردن وكتاب آخر عن البتراء. من رأيها انه لا يمكن لدولة الأعداء ان تعيش طويلاً في المحيط العربي - مهما طال الزمن.

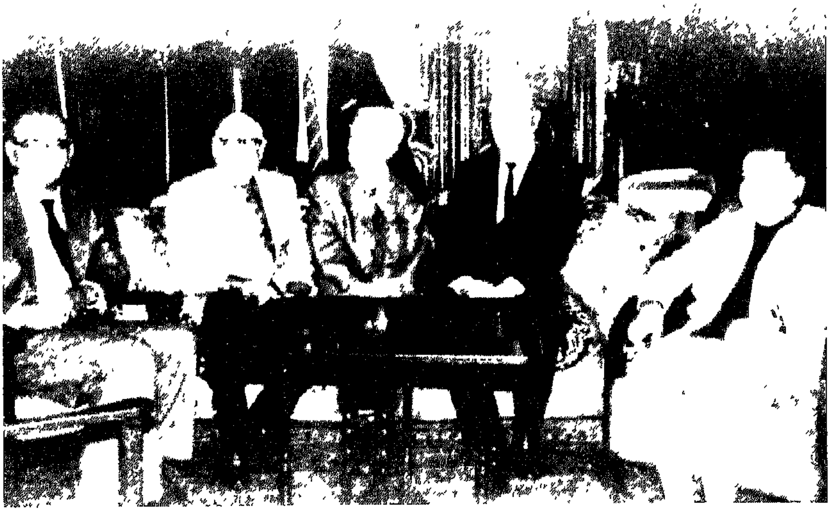
ورحلة أخرى الى جبال الألب المحاذية لحدود ايطاليا. رحلة طويلة استغرقت ١٦ ساعة، ثماني ساعات منها في القطار ذهابا وايابا. مناظر لا مثيل لها في العالم، بين الجبال الشاهقة وفي بطون الأودية السحيقة: عبر الانفاق المديدة وفوق الجسور العالية (١٥٠ مترا). قد يصاب بالرعب أصحاب القلوب الضعيفة، اذا ما وقف أحدهم فوق احدى القمم وأطلّ على الوهاد السحيقة تحت. وبدت منازل القرى المسقوفة بالقرميد الاحمر أشبه بأزهار الدحنون في بساط نبات اخضر، تظهر أحياناً وتختفي أحياناً أخرى بين رؤوس الأشجار. وترى الأنهار تنحدر من بين الثلوج على قمم الجبال، والشلالات ذات الزبد الابيض. بعض هذه الأنهار

يصب في نهر الراين ثم الى بحر الشمال، وبعضها يصب في نهر الدانوب ثم الى البحر الأسود. وذهبنا الى جبال برنينا، وقطعنا جزءاً من الرحلة بالتلفريك معلقين بين الأرض والسماء، ثم سرنا على الثلج. كثيرون مثلنا جاءوا يشاهدون ويتريضون. بعضهم كانوا يتزجلون. الطقس دافيء ومشمس. ثم مضينا الى جبل الجليد حيث يتدفق نهر ماء من تحته. نهر من الماء الأبيض، كتله صلبة قاسية كأنها حجارة نارية. وسرنا مسافة طويلة. وأمضينا ساعة من الزمن في بلدة سان موريتز. وجلسنا تحت الشجر قبالة البحيرة التي تتحول في فصل الشتاء الى كتلة جليد. الى هنا كان محمد رضا بهلوي وثريا يأتيان في أيام عزهما لقضاء أيام. ونتفرج على كل ما يحيط بنا من جنّات، والشباب والصبايا يسيرون على مهل، يتناجون ويتناغمون في عوالم خاصة بهم، عوالم حب وسعادة لا يعرفها الا الشباب. ترى من هو ذلك الشاعر المبدع الذي قال «روائح الجنة في الشباب؟».

كان يوماً طويلاً مرهقاً لرجل تجاوز الستين. ولكن التعب سيذهب قراريط، وتبقى الذكريات الجميلة الى نهاية العمر.

في أثناء سيرنا الطويل، جلسنا في أحد الأماكن وتناولنا شطائر وعصير برتقال، حرص نايل على ان يضع العلب الفارغة وورق الشطائر في كيس، حمله بيده طوال المسافة التي قطعناها بعد ذلك، ثم في القطار الى أن وصلنا الى منزله، وهناك وضعه في صندوق النفايات. هاهو قد تخلق بأخلاق القوم، مصداقا للمثل الشعبي القائل «من رافق القوم اربعين يوم، صار منهم». فما بالك بمن رافقهم عشرين عاماً أو تزيد؟

وان نسيت فلا أنسى ما كان من ذلك الرجل المتقدم في السن (نسيب نايل)، والذي كان على الأقل يكبرني بعشر سنوات. فقد جلست واياه في مقهى ذات يوم. ثم دعاني لزيارة شقته. ومضينا مسافة طويلة مشيا على الأقدام. وعندما أقبلنا على البناية الكبيرة التي تقع الشقة فيها، كان الارهاق قد نال منه ومني. وبدا المصعد أمامنا، فظننت انه سيبادر للصعود بواسطته الى الشقة في الدور الثالث، ولكن كم أدهشني انه لم يلتفت قط الى المصعد، بل اتجه الى الدرج، فألفيت نفسي مضطرا للحاق به.



زيارتنا لمنزل كلوب - ايلول ١٩٨٣
الليدي كلوب، المؤلف، كلوب، سعيد العيسى، فؤاد حداد.
والى الخلف حسن اسماعيل



رحلة في بحيرة زيورخ - مع روز ماري ونايل

المكسيك
بلاد الثقافات الثلاث

أعترف أنني كنت محظوظاً الى حدٍّ ما، بل الى حد كبير، في الفرص العديدة التي حظيت بها لزيارة أقطار متعددة في العالم، بعضها قريب وبعضها بعيد. وأعلن هنا أنني مدين في ذلك لوزيرين خدمت معهما في وزارة الثقافة الشريف فواز شرف والدكتور معن ابونوار. هناك كثيرون من موظفي الحكومة أُتيحت لهم فرص السفر الى أقطار في العالم، أكثر مني بكثير، ولكنني أستطيع أن أزعم انني من القلائل الذين كانوا يحرصون على تسجيل مشاهداتهم وانطباعاتهم عن البلاد التي يزورونها.

وشاء الحظ السعيد أن تحملني خطى الترحال الى المكسيك، بلاد الثقافات الثلاث: ثقافة المكسيكيين القدماء ـ الهنود الحمر، وثقافة الأسبان، وثقافة المكسيك المعاصرة. واكتمل الحظ في أن زيارتي، التي تجاوزت عشرة أيام، انما كانت لتمثيل بلدي في مؤتمر عالمي عظيم، عالمي بكل معنى الكلمة، هو المؤتمر الثاني للسياسات الثقافية. كان ذلك حدثاً بالغ الأهمية. وللتدليل على ذلك أكتفي بالقول إن ١٥٤ دولة اشتركت في أعماله، وإن ٩٨ وزير ثقافة كانوا على رأس وفود بلادهم وإن عدد أعضاء الوفود الى المؤتمر تراوح ما بين ٩٠٠ و١٠٠٠ شخص. ومن هنا كان وزير ثقافة المكسيك فرناندو سالونا، على حق عندما أطلق على المؤتمر اسم (القمة الثقافية)، اذ لم يسبق في تاريخ الجنس البشري أن التأم مؤتمر ثقافي بمثل هذه الضخامة وهذا الشمول ـ (تموز ـ آب ١٩٨٢).

استغرقت الرحلة يومين بالطائرة (مع مبيت ليلة في نيويورك). ولما كانت الطائرة تسبح في الفضاء باتجاه الغرب، مع اتجاه الشمس، فقد طال نهار اليوم الاول الى تسع عشرة ساعة (فكان أطول نهار في حياتي). وفي تلك الرحلة الطويلة كان رفيقي كتاب ضخم (أسفار في فلسطين) من تأليف الرحالة تريسترام. انسياقاً مع قول المتنبي: وخير رفيق في الأنام كتاب.

ومدينة المكسيك، كما قيل، أكبر مدينة في العالم من حيث عدد السكان، اذ تضم ١٧ مليون نسمة من أبناء آدم وحواء. والفندق الذي نزلت فيه لم يكن يضم أياً من أعضاء الوفود العربية. كان ذلك نوعاً من الصدمة لي. ولكن لم يكن هناك ما أستطيع فعله، فرضيت بما قسم القاسمون.

افتتح رئيس الجمهورية المؤتمر في قصر الفنون الجميلة، وهو دار أوبرا في غاية

الفخامة والبهاء. اما الجلسات فقد كان انعقادها في مبنى وزارة الخارجية في ثلاث قاعات.

بدأت أعمال المؤتمر بالقاء خطابات. كان ذلك أمراً ضرورياً، لان رئيس كل وفد كان مدعواً لاعلان سياسة بلاده تجاه الثقافة. ولم تقتصر الخطابات على رؤساء الوفود، بل كان هناك ضيوف شرف: ليوبولد سنغور، الافريقي الذي أحرز شهرة عالمية. محمد مزالي رئيس وزراء تونس آنذاك كان أحد ضيوف الشرف، ولكنه ألقى خطابه باللغة الفرنسية (مع انه عربي ومع ان العربية كانت احدى اللغات الست المعترف بها رسمياً في المؤتمر ـ وفي هيئة الامم). استغرق خطاب مزالي أكثر من ساعة، فأدخل الملل الى القلوب، وأضاع المعاني الجيدة التي أراد ايصالها الى الأذهان. وقُرئت رسالة من الرئيس بريجنيف (رئيس الاتحاد السوفياتي) مؤداها ان الثقافة تحتاج الى سلام، وانه لا بدّ من منع الكارثة النووية.

تلقيت عدة دعوات لحضور حفلات استقبال، ولم يكن بينها حفلة طبيخ واحدة.

أضفى على المؤتمر نوعاً من البهجة وجود عدد من وزيرات الثقافة، كانت أبرزهن وزيرة اليونان ميلينا ميركوري، ووزيرة سوريا نجاح العطار، ووزيرة اسبانيا. وترأست وفد امريكا ذات القوام الأهيف السفيرة جين جيرارد.

في مساء اليوم التالي عقد أعضاء الوفود العربية اجتماعا لتنسيق مواقفهم. طالت الجلسة وعندما خرجنا وجدنا الأمطار تهطل بغزارة. وكانت الحافلات التي خصصها المؤتمر (أو الدولة المضيفة) للوفود، قد انتهى عملها. وقفنا وقفةً بائسة الى ان تم، بعد لأي، العثور على حافلة قامت بنقلنا الى فنادقنا هنا وهناك. الحافلات كانت مخصصة لرؤساء الوفود وأعضائها سواء بسواء. تذكرت عندئذ بلاد العرب حيث تخصص السيارات الفارهة للوزراء وغير الوزراء. هنا لا بدّ لي أن أذكر مفارقة أثارت عجبي. فالسيد محيي الدين صابر. مدير عام منظمة اليكسو (يونسكو العرب) جاء لحضور المؤتمر (بصفة مراقب)، ومع انه موظف عند الدول العربية (التي تدفع راتبه والمخصصات اللازمة للمنظمة كلها)، الا انه أعطى نفسه في ذلك المؤتمر امتيازات لم يكن الوزراء العرب يتمتعون بها. فهو يتنقل بسيارة فخمة خاصة مع سائقها، ويقيم في فندق فخم. ماذا عمل هو ومعاونه التونسي طاهر قيقه؟ وزعا منشورات باللغة العربية، ووزعا كتاباً لا أهمية له كانا وزعاه قبل بضع سنوات. وصلت الي من ذلك الكتاب ثلاث نسخ وراء بعضها البعض، فألقيت بها جانباً، كما فعل غيري (كما أعتقد). محيي الدين صابر سوداني من أهل السودان الطيبين، ولكنه ـ كما قيل ـ حفظ دروس البيروقراطية على أيدي اساتذتها من المصريين، وأُتيح له ان يمارسها سنوات وسنوات.

معظم المترجمين مصريون وهم يلفظون الثاء سيناً والجيم قافاً مخففة والذال

زاياً.

من الجدير بالاشارة أن وفود بعض الأقطار ضمت في عضويتها أشخاصاً أحرزوا شهرة عالمية. وعرفت من هؤلاء لويس أراجون وسيمون دي بوفوار.

تحدثت مع وزير الثقافة الفرنسي جاك لانج، وعرّفته بنفسي، فقال: ألا تذكر اننا التقينا في الحمامات بتونس سنة ١٩٧٠؟ دهشت لذلك وألقيت الملامة على ضعف ذاكرتي. قلت له: نريد معاضدتكم، فالقدس في خطر. قال. ماذا نستطيع ان نفعل؟ قلت: أن يصدر المؤتمر بياناً يشجب فيه أعمال الاسرائيليين ويطلب اليهم ان يتوقفوا عن اجراءاتهم لتدمير المعالم العربية. قال: أعدك بأن نفعل كل ما يمكن فعله. بدا لي انه يؤيد قضيتنا.

تحدثت مع اثنين من أعضاء الوفد الاميركي بهذا المعنى (أحدهما أسود اللون). كان الجواب: نحن نعرف أن القدس في خطر، ولكن بسبب الوضع السياسي في بلادنا فاننا نستطيع أن نؤيد قراراً خفيفاً فقط، مؤداه ان المؤتمر يدعو الى المحافظة على الأماكن المقدسة في القدس لأهميتها الثقافية والدينية لجميع شعوب العالم. قلت: هذا لا يكفي، كان واضحاً أنهم لا يستطيعون الخروج عن سياسة حكومتهم.

خطب رئيس الوفد العراقي، عبدالجبار محسن سلمان، وكيل وزارة الثقافة والاعلام. فأشاد بالرئيس القائد صدام حسين. وزيرة الثقافة السورية نجاح العطار، أشادت ايضا بالرئيس القائد حافظ الأسد. محمد مزالي والبشير بن سلامة (وزير الثقافة التونسي) فعلا نفس الشيء ورفعا الحبيب بورقيبة الى عنان السماء. لم ألاحظ ان رؤساء الوفود الأخرى أشادوا برؤساء دولهم مثلما فعل العرب. رئيس الوفد العراقي لمّح لايران دون ان يسميها، فيما بعد قال لي السيد الدّراجي عضو الوفد الجزائري ان وفده توسط مع وفدي العراق وايران بقصد ان لا يتعرض أحدهما للآخر في هذا المؤتمر. وها انت ترى ما وقع. في اليوم التالي جاء دور المندوب الايراني. ألقى خطابه باللغة الايرانية اعلاناً عن الاعتداد القومي، كان رتّب سلفاً أن يضع الترجمة الانكليزية للخطاب بين أيدي المترجمين. حتى يعتمدوا عليه، ولكي لا يترك أي مجال لاجتهادات المترجم. لم يفعل أي وفد مثل هذا. في خطابه شجب أولاً ممارسات اسرائيل في القدس وضد الفلسطينيين، ثم أخذ يهاجم العراق. قال: ان البعض يعيروننا بأننا لا نسمح بالرسم والتصوير، ولكننا نقول هنا ان الوعي الروحي أهم عندنا من التقدم التكنولوجي. تحدث مطولاً عن الثورة الاسلامية ثم قال: نحن لا نصدّر الثورة ولكنها تنتشر من ذات نفسها. الشعب يريدها والحكام يقاومونها لأنهم ليسوا حكاماً شرعيين، بل جاءوا الى الحكم نتيجة انقلابات عسكرية. هنا أخذ رئيس الوفد العراقي يصرخ طالبا ايقافه

عن الكلام. رئيس الجلسة لفت نظر الايراني أربع مرات الى انه تجاوز الوقت المحدد (بعد اطالة المزالي حدّدت رئاسة المؤتمر الوقت لكل رئيس وفد بـ ١٥-٢٠ رقيقة). ولكن الايراني مضى يهضب بصوت أجش وهو متحمس ومنفعل. قالت لي احدى السكرتيرات فيما بعد: لم يبق الا ان يستعمل أحد معه القوة البدنية لايقافه عن الكلام، ولم يكن ذلك ممكنا. استغرق خطابه ٤٥ دقيقة. صاح عبدالجبار وطلب ان يتكلم لمدة دقيقتين فقط. قال انه لم يتعرّض في خطابه لايران، بل أعرب عن رغبة العراق في السلام، وان هناك خطراً يواجه العراق ودول الخليج. يبدو انه تجاوز الدقيقتين، فعمد أحدهم الى قطع تيار الكهرباء الموصول بالسماعة التي كان يتكلم منها.

كل ذلك كان نوعاً من الفضيحة. ولاحظت مندوبي اسرائيل وهم يضحكون شامتين.

جريدة اكسلسيور التي تصدر بالفرنسية، وجريدة السال دي مكسيكان التي تصدر بالاسبانية، تحدثتا في عدديهما الصادرين في ١ آب عن الكلمة التي القيتها في المؤتمر. أشارت الاولى الى قولي ان اسرائيل عملت على انقاص عدد سكان القدس العرب بنسبة ٦٠٪ عن طريق أعمال الارهاب «واتهم موسى الصهيونية بأنها تنوي تغيير الحدود في الشرق الأوسط، عن طريق اخراج العرب والاستيلاء على المناطق وتدمير الهوية الثقافية ... ودعا الدول الـ ١١٩ المشتركة في المؤتمر الى شجب غزو لبنان وعدوان اسرائيل عموماً في الشرق الأوسط». اما الجريدة الثانية فقالت ان ممثل الاردن أعلن ان اسرائيل التي تقود شريعة الغاب خطاها، تريد مواجهة العالم بالأمر الواقع وتعمل على تغيير الوضع الجغرافي للقدس. وركزت الجريدة على العبارات التالية: «ان الثقافة لا يمكن ان تزدهر دون سلام ... ان عقيدة الشعب المختار تبيح الاستيلاء على ممتلكات الغير وتدميرها ... القدس منبع ثقافة منحت الالهام لآلاف الناس ... علينا ارغام المعتدي على احترام مبادئ السلم والعدالة ... انهم يطلبون ان نقتصر في الحديث على الثقافة، ولكن الذين يقولون هذا الكلام هم الذين لا يتهدّدهم العدوان وقوى الشر».

ممثل فلسطين عمر مصالحة ألقى خطاباً مؤثراً ... تجاوز الوقت المحدد فاحتج رئيس الوفد الاسرائيلي وأرسل رسالة الى رئيس الجلسة يطلب ايقافه. مصالحه وصف الاسرائيليين بأنهم فاشيون ونازيون ويريدون تصفية الشعب الفلسطيني، ثم أعلن أن الشعب الفلسطيني لن يتخلى عن هويته القومية مهما كانت التضحيات حظي بتصفيق شديد دل على تعاطف وفود عديدة مع القضية التي يمثلها.

يوم الاحد - يوم العطلة الأسبوعية - ذهبت في رحلة جماعية الى الأهرام التي كا الهنود الأقدمون أنشأوها قبل احتلال الأسبان لبلادهم. في أثناء طريقنا اليها زر

كنيسة جواديلوب التي تتسع لعشرة آلاف مصل، وتتسع ساحتها لعشرين الفاً. تقام الصلوات هنا طوال النهار، مرة بعد أخرى. انه لمنظر رائع ان ترى مدى خشوع هؤلاء الناس. وترى مئات من سلال الورود تقدم لتزيين الكنيسة، وترى الناس يتبرعون بسخاء لصندوق الصدقات. كان مؤثراً منظر نسوة يزحفن على ركبهن في الساحة، وبخاصة منظر امرأة تزحف باتجاه الكنيسة وهي تنقل قطعة قماش تحت ركبتها كلما تحركت خطوة الى الامام، والعرق يتصبّب من جبينها. وابنها الصبي يسير الى جانبها ليقدم لها العون ويشدّد من عزيمتها. كل ذلك وفاء لنذور يأخذونها على أنفسهم. ومضينا في رحلتنا الى منطقة الاهرام، فشاهدنا هرم الشمس وهرم القمر في منطقة واسعة كانت تجري فيها مراسيم العبادة وطقوسها في الزمن القديم.

عندما اقترب المؤتمر من نهايته، عقدت الوفود العربية اجتماعاً لبحث مشروع اعلان المبادئ الذي سيصدره المؤتمر. الروائي حنا مينه عضو الوفد السوري، اقترح ان تُضاف الى احدى الفقرات عبارة تؤكد على ضرورة منح الشعوب مزيداً من حرية الفكر والتعبير. صمت الجميع. تطوعت للقول. ايها السادة، أين حرية الفكر في بلاد العرب حتى نتقدم باقتراح كهذا؟ ان فاقد الشيء لا يعطيه. أخشى ان يضحك الآخرون لاننا نمثل حكومات لا تمنح لشعوبها الا القليل من حرية الفكر والتعبير. بعض الحضور وافقوا بحرارة على قولي، ولكن الدكتور الرحّال (جزائري) قال: ومع ذلك فالعبارة مناسبة وسنقترح اضافتها.

ذات يوم دار حديث بيني وبين الدكتور سكلر، عضو الوفد الاميركي. كان الحديث عاماً ولكن مبطناً بالمعاني. قال: انه لا حاجة للناس ان يكرهوا بعضهم البعض. ولو تفاهموا لما كانت هناك دواع للبغضاء. وقال انه تحدث مرة مع موشي دايان وسأله: من هو أعظم الرجال الذين عرفهم؟ فأجابه دايان: انه انور السادات. والسبب (في رأي دايان) أن السادات حصل على شيء كثير (سيناء وقناة السويس) مقابل لا شيء!! قلت له: إن البغضاء تنشأ عن طبيعة الشر في الانسان، الطبيعة التي تدفعه الى أخذ ما ليس له. قال: إن منظمة التحرير الفلسطينية تمثل خطرا على الأردن والسعودية اكثر من الخطر الذي تمثله على اسرائيل. قلت: هذا كلام لا يقبله العرب. المنظمة تمثل الشعب الفلسطيني. قال: لماذا أخرجتم الفدائيين من الاردن؟ قلت: ان اخراج الفدائيين شيء وحق الفلسطينيين في بلادهم شيء آخر ... افترقت عنه وانا أتساءل عن مدى تأثير التوراة (العهد القديم) في القناعات التي يتوصل أمثاله اليها. وذكرت ابو العلاء المعري في قوله:

هذا كلامٌ له خبيءٌ   معناهُ ليستْ لنا عقولُ

قيل ان المكسيك ثاني بلاد العالم (بعد السعودية) من ناحية كميات احتياطي

النفط فيها. وعندما خرجت من وسط المدينة وظهر لي الفقر والبؤس في أطرافها، وشاهدت الفقراء والمساكين، أخذت أتساءل عن قدرة الأنظمة - أو رغبتها - على توزيع الثروة بشيء من التساوي بين ابناء الوطن.

وعندما أوشك المؤتمر على الانتهاء، أخذت الوفود العربية تختفي من القاعات الثلاث بالتدريج. ذهبت الى القاعة الاولى حيث سيجري التصويت على حقوق الشعب الفلسطيني الساعة العاشرة والنصف ليلاً، فلاحظت ان بعض الوفود لم يكن لها وجود. الوفد السوري (أربعة اشخاص) كان غائباً. وفد الامارات (ستة أشخاص) سافر الوزير فغاب الخمسة الآخرون، وكذلك وفود مصر والسودان ولبنان. وفد قطر يكاد يكون غير موجود. الوفدان التونسي والجزائري كانا أكثر الوفود العربية نشاطا. مندوبو اسرائيل الخمسة كان حضورهم ماثلاً للعيان باستمرار: يقظين متحفزين ويراقبون ويسمعون كل كلمة. اتصالاتهم بالوفود الاخرى مستمرة. الذي يقارن بين الوفود العربية الكثيرة، مع قلة فاعليتها وغنائها، ووفد اسرائيل المنتقى بصورة جيدة، يستطيع ان يدرك كيف تغلبت اسرائيل على العرب. وبدا لي أن معظم أعضاء الوفود العربية اعتبروا مجيئهم للمكسيك فرصة لشمة الهواء وتذوق الأطعمة الشهية أو التسوق. يذهبون للنوم ، والعدو يقظ ساهر. الوفد العراقي كان نشيطاً. ولكن على العموم ثقافة العربي محدودة وبالنتيجة تكون فعاليته ضعيفة. كانت الوزيرة السورية تتصدر الجلسات وباروكتها على أحسن ما يرام، ولكن فاعلية الأعضاء كانت ضعيفة. لاحظت ان الوفود الأخرى أكثر نشاطاً من الوفود العربية وأكثر مواظبة على الحضور والتزاما بالواجب. كنت أتنقل من قاعة الى أخرى بحسب مقتضيات الظروف. قرأت في الصحف أن الحكومة الأردنية أرسلت وفداً من ثلاثة أعضاء الى فيّنا عاصمة النمسا لحضور مؤتمر يبحث في مشكلات المتقدمين في السن. بالنسبة للاردن - كما أعتقد - مشاكل المتقدمين في السن يكون بحثها ذا طابع اكاديمي. قلت في نفسي: حبذا لو ان حكومتنا الرشيدة قارنت بين ذلك المؤتمر العجائزي وهذا اللقاء الأممي العالمي الذي تلتقي فيه مواهب الأذكياء في طرح قضايا شعوبهم.

عُرضت على لجنة التوصيات قضايا عديدة. تقدم وفد الامارات العربية بتوصية تدعو الى تسجيل أعمال الكتّاب العرب. اقترح مندوب امريكا اضافة عبارة «وكتّاب الأقطار الأخرى»، على التوصية، فوافق مندوب الامارات بسرعة على التعديل (وهو ليس من ابناء الامارات). التعديل أخرج التوصية عن هدفها. نظر المندوب الاميركي اليه بدهشة واستغراب. كان واضحا انه لم يستوعب معنى التعديل.

عُرضت توصية قدمها وفد العراق عن دور الفن في التنمية الثقافية. اعترض

المندوب الأميركي. كان مقعد العراقيين خالياً عند عرض التوصية على التصويت (فيما بعد عرفت انهم كانوا سافروا). ممثلا سوريا والامارات كانا موجودين ولكن ليس باستمرار، لا يكاد أحدهما يجلس نصف ساعة في القاعة، حتى يخرج نصف ساعة أخرى الى الردهة الخارجية للتدخين والترويح عن النفس!

الدول المتقدمة كان مندوبوها مثالاً بارزاً على تقدمها. معظم المندوبين العرب ملولون لا يطيقون البقاء طويلاً في مقاعدهم. ولكن اعضاء الوفد التونسي كانوا الاستثناء الذي يثير الاعجاب. قلت للطاهر قيقه: كلما اشتركت في لقاء مع ابناء شعوب مختلفة ازداد يقيني أن بلاءنا نحن العرب من أنفسنا. قال: بالطبع، بلاؤنا ينبع منا وليس من غيرنا.

كان هناك اختلاف في النظر الى القضايا المطروحة. الفرنسيون أصروا على موقفهم المتعاطف مع اليسار. قال أحدهم: علينا ان نثير قضايا للبحث، ونحن لم نأت الى هنا لننام. صدرت اتهامات بأن بعض الوفود تستغل المؤتمر لغايات سياسية وليس ثقافية. قال وزير ثقافة المانيا الغربية «ان اليونسكو يمكن ان تحفر قبرها بيدها، اذا أصبحت منبراً سياسياً للخوض في القضايا المختلف عليها والتي ينبغي بحثها في هيئة الامم وليس هنا».

لا أستبعد ان يكون ما حدث في المؤتمر وراء ازاحة المدير العام أحمد مختار امبو، من منصبه، بعد المؤتمر ببضع سنوات. ربما وجهت دول الغرب اللوم اليه على ما بدا من تساهله.

بعض الموضوعات الشائكة تم تأجيلها الى اليوم الأخير من أيام المؤتمر. حدثت مواجهة حقيقية عندما أقر المؤتمر توصية يونانية باعادة الممتلكات الثقافية الى أصحابها. أقطار العالم الثالث صوتت مع القرار. هناك توصية تتعلق بادراج القدس بين المواقع المهددة بالخطر. قدم عضو اميركي مشروع توصية بشأن «صون التراث الثقافي في زمن النزاع المسلح». التوصية في ظاهرها لا تثير الريبة، ولكن مندوبي كوبا والجزائر قالوا إنها توصية خبيثة. سوريا طالبت بسحب مشروع التوصية. اشتد المعارضون ووقفوا وراء كوبا. المندوب الأميركي قال إن وفده قدم الاقتراح بروح انسانية ودون أن تكون هناك مقاصد مستورة، وما دام ان كثيرين لم يفهموه على هذا الأساس فهو يعلن سحبه. قال أحد المندوبين العرب متباهيا: أرأيت كيف خُذلت اميركا وحلّت الهزيمة ببريطانيا؟ آثرت أن لا أرد.

وطرح مشروع التوصية الخاصة بالقدس. اعترض مندوب اميركا قائلا: كيف نقرر ان المدينة مهددة؟ هل لدينا اثباتات أو تقارير؟ مندوب المانيا أيد المندوب الاميركي. تحدثت مندوبة اسرائيل عن الاصلاحات التي قامت حكومتها بها وكيف تم تعمير الدمار والخراب. تكلم بعض المندوبين العرب. وتحدثت انا. لم تلبث

مندوبة اسرائيل ان أخذت تصرخ: نقطة نظام. نقطة نظام! سألها رئيس الجلسة (مندوب سيرالانكا): لماذا؟ قالت: ان مندوب الأردن يتحدث عن القدس خارج الأسوار بينما مشروع التوصية يقصد القدس داخل الأسوار فقط. استأنفت حديثي عن القرى التي هدمها الاسرائيليون وأشجار الزيتون التي اقتلعوها. نتيجة للعسف الاسرائيلي هبط عدد المسيحيين في القدس من ٣٠ الفا الى ١٢ الفا. هل ستبقى الأماكن المسيحية متاحف تاريخية لاجتذاب السياح؟ المندوب الاميركي يقترح ايفاد لجنة تحقيق - الا يعلم ان اسرائيل منعت البعثة التي أوفدها مدير اليونسكو للتحقيق في خطورة الحفريات في القدس؟ تدخلت الحيزبون مرة ثانية. بعد ان انتهيت كان هناك تصفيق. قرر رئيس الجلسة اجراء التصويت. أيد القرار بالموافقة ٤٩ صوتاً وعارضت التوصية اميركا واسرائيل، اما دول اوروبا الغربية فقد امتنعت عن التصويت (باستثناء اسبانيا التي صوتت مع العرب). بعد اعلان النتيجة طلب مندوب اميركا اعطاء احصاء بالدول الغائبة (بقصد ان يظهر ان ٤٩ دولة لا تشكل أكثرية). بدأ الرئيس بالتشاور مع ممثل المدير العام. هنا طلبت الكلمة وقلت: يا سيدي، ولماذا تعد الغائبين؟ الا نشكل نحن مجموعة كاملة النصاب؟ هل هذا الطلب قانوني؟ رد الرئيس: معك حق يا ممثل الاردن المحترم. اننا نشكل نصاباً قانونياً والتصويت يعتبر نافذاً. قال مندوب اميركا: أريد اعلان رقم الغائبين للعلم فقط. مندوبة اسرائيل قالت: ان اسرائيل لم توقع على ميثاق الحفاظ على التراث. ولذلك لا ينطبق هذا القرار علينا ولا يلزمنا. أردت أن أطالب بطرد اسرائيل اذا لم تبادر للتوقيع على الميثاق، ولكن مندوبي تونس قالوا ان ست دول عربية لم توقع على الميثاق، ولذلك سيكون مثل هذا الطلب فضيحة لها جلاجل. ألفيت نفسي مرغماً على السكوت. عندما خرجنا قال عبدالرحمن الحداد (مندوب اليمن الشمالية): كادت الدموع تطفر من عيني وانت تتكلم. حياني كثيرون من العرب وغير العرب. وجدت في ذلك نوعاً من التعزية، لان الأمر في الحقيقة لم يخرج عن كونه كلاماً في كلام.

في اليوم التالي (٦ آب) نشرت جريدة (الأخبار) التي تصدر بالانكليزية في مدينة المكسيك، وصفاً لما حدث تحت عنوان «خلاف في اليونسكو يتحول الى مبارزة صراخ».

.UNESCO Friction Turns Into Shouting Match

واختتمت الجريدة وصفها لما حدث بالقول « ان خطاب موسى تبعه تصفيق تأييدي».

.Mousa's speech was followed by sustained applause .

كنت وحدي أمثل الاردن في ذلك المؤتمر الحافل، ولكنني في نهاية المطاف، شعرت

أنني بذلت كل ما في وسعي «ومبلغُ نفسٍ عُذرها مثلُ منجحِ»(١).

في ذلك المؤتمر التقيت بعدد من الأشخاص النابهين. كان من بين هؤلاء كريشنا راج اريال (سفير نيبال في فرنسا)، وهو صاحب نظرية طريفة مؤداها إن التأثير الأكبر على أي قطر من أقطار الأرض، يأتي من موضع ذلك القطر من مدار الشمس، وموضعه من البحر، ومدى ارتفاعه أو انخفاضه عن سطح البحر.

MEXICO CITY
THE NEWS

6 Friday, August 6, 1982

UNESCO Friction Turns Into Shouting Match

The friction between Israel and Arab nations continued yesterday at the UNESCO Conference on Culture when a shouting match erupted between Jordan and Israel over a resolution to call Jerusalem in danger of losing its "cultural heritage."

Sponsored by nine countries, including Tunisia, Iran and Greece, the resolution said that the "disappearance" of any of the ethnic groups in Jerusalem would be a "true loss for humanity," and an "impoverishment of (the city's) heritage."

The resolution then called on the World Heritage Committee, a U N organization, to "expedite the procedure" which would put the Old City of Jerusalem on the List of World Heritage in Danger.

The Old City is already on the World Heritage List Adding it to the "In Danger" list would recognize that the city is in danger of losing some crucial element of its "cultural heritage."

"Non-Zionist groups are disappearing from Jerusalem, one by one," Jordanian delegate Suleiman Mousa said in a long and strident speech.

"Israel and her allies want to make Jerusalem a museum, devoid of the peoples that have made up that city for centuries."

He said that the number of Arabs, both Christian and Muslim, has dropped rapidly in recent years as a result of Israel's efforts "to intimidate these citizens."

When he began recounting incidents of Arabs being harassed at their sacred spots in Jerusalem, the Israeli delegation began shouting over his remarks to be heard by the Chair. The Jordanian continued speaking more loudly, while the Israelis held their placard in the air and repeated "Point of order!"

The Chair finally recognized Israel

"We are here talking about Jerusalem and its walls," said Israeli delegate Yael Vered, "and this business we've been hearing is off the subject. Let us continue talking about Jerusalem."

When he was allowed to resume his speech, the Jordanian said he "protested the interruption," and that Israel's "doctrine of hatred causes them to destroy all that is not theirs."

"With this resolution, we will make the world aware of the danger that threatens Jerusalem. We respect all religions. We hope others do," Mousa said.

Mousa's speech was followed by sustained applause.

More than half the delegations either abstained or were absent when the vote on the measure came up. All the western European countries plus Canada abstained; nearly all the Third World, plus the Soviet bloc and China, voted for the resolution.

The United States and Israel were the only nations voting no.

U.S. delegate Allen Weinstein insisted that the "issue of Jerusalem" be left entirely to the Heritage Committee

Immediately after the vote, Israel announced that it had not signed the World Heritage pact, and that therefore the organization's decisions did not apply to Israel.

Many Third World delegations laughed at this statement.

---

(١) ليبلغ عذراً أو يصيبَ رغبةً   ومبلغُ نفسٍ عُذرَها مثلُ مُنجحِ

تايوان

حملت الرحلة الى بلاد الشرق الأقصى مفاجآت مدهشة لم أكن أتوقعها. كنت مثل أكثر الناس في هذه البلاد ـ بلاد الشام ـ قد اعتدنا الى حدّ كبير، على ثقافة البحر الأبيض المتوسط، وعلى التفاعل مع الحضارة الأوروبية. لعبت الجغرافيا ولعب التغلغل الاستعماري دوراً مهماً في هذا التوجه. كنت أسمع عن الشرق الأقصى وكنت أقرأ عنه، ولكن السماع والقراءة شيء، والمشاهدة على أرض الواقع شيء آخر. ومع ان الرحلة الى الشرق كانت تبدو حلماً بعيد المنال، الا انها تحققت في الشهر الأول من عام ١٩٨٤. حدث ان الدعوة لزيارة تايوان (جزيرة فورموزا سابقاً) أخفقت مرتين قبل ذلك: مرة بفضل زكانة أحد الوزراء، ومرة لانها جاءت في وقت واحد مع موعد سفري الى المكسيك. وشاء الحظ الحسن أن تكون هناك مرة ثالثة. والثالثة ثابتة، كما يقول الناس عندنا.

في الطريق الى تايوان أمضيت يوماً في مدينة بانكوك عاصمة تايلند. اغتنمت الفرصة وأخذت سيارة أجرة انا وشاب من استراليا التقيت به في الفندق، في جولة سياحية. زرنا عدداً من معابد البوذيين: البوذا الذهبي ويزن خمسة أطنان ونصف الطن من الذهب (من يصدق هذا؟) والبوذا المستلقي وهو تمثال ضخم من الاسمنت المطلي بالذهب وطوله ٤٦ مترا وارتفاعه ١٥ مترا، وبوذا الجالس، وبوذا الواقف. في هذه المدينة ٩٩٩ معبداً كما قيل «قد قيل ما قيل، إن صدقاً وإن كذباً» ... كانت سقوف المعابد ذات القرميد القرمزي أو الأخضر، من المناظر المدهشة التي لا مثيل لها في البلاد التي كنت زرتها حتى ذلك الحين.

وتجولت نحو ساعتين في شوارع المدينة. لاحظت ان الناس يرتدون ملابس خفيفة جداً: للرجال قميص وسروال، وللنساء قميص وتنورة. الطقس رطب وحار ونحن في كانون. فكيف يكون الحال في تموز؟ تبدو على وجوه الناس سمات القناعة والرضى بواقع الحال. ربما يكون هذا جزءاً من فلسفة بوذا. وعلى لافتات المتاجر، ترى كتابات بأربع لغات: التايلندية والانكليزية والصينية والعربية. كثيرون يتكلمون الانكليزية. وللسياحة سوق رائجة هنا. من الواضح ان الأوروبيين هم أكثر شعوب الأرض ميلا للسياحة والتجوال. التوق الى مشاهدة العالم والتعرّف على شعوبه وأقطاره: ذلك سرٌ من أسرار العظمة عند الشعوب. أجسام الناس هنا صغيرة الحجم، ولكنهم نشيطون ومتواضعون، ترى اهتمامهم بالمعابد، وترى أمام المعابد الصغيرة تقدمات من الطعام والشراب والشموع المضاءة وعيدان البخور المشتعلة. اهتمامهم بالزهور عظيم الى حد الشغف. ملامح الوجوه قريبة من ملامح الصينيين، وأحيانا تشاهد قامات ممشوقة وجمالا رائعاً، مدينة

خضراء، بانكوك هذه، يكثر فيها الشجر ويمر من وسطها نهر كبير.

واستأنفت الرحلة بالطائرة الى تايوان. وتتطلع من نافذة الطائرة فتراها تسبح في الفضاء فوق غيوم تشبه جزز الصوف، على امتداد مسافات لا أول لها ولا آخر. والمضيفات الصينيات يسرن بقاماتهن المشوقة جيئة وذهابا بين الصفوف ويؤدين الواجب برقة ولطف لا مثيل لهما.

وأشرفنا على مدينة هونغ كونغ. مدينة تكاد تغص بناطحات السحاب. لا تمتد طولا وعرضا مثل بانكوك، بل بالعمق والكثافة. يحيط الماء بها من ثلاث جهات. كانت هناك فتاة انكليزية في الطائرة تقرأ رواية ضخمة (دوريت الصغيرة) من تأليف الروائي الشهير ديكنز. طوال الرحلة وهي مستغرقة في القراءة بشغف. هذا أيضاً من أسرار العظمة في شعب من الشعوب.

في تايبي عاصمة تايوان، نزلت ونزل آخرون مثلي، في فندق (جراند هوتيل) الذي يرتفع على رأس جبل يشرف على المدينة. فندق بالغ الضخامة والفخامة. عند وصولي قيل لي انني مدعو لالقاء كلمة غدا صباحا. ماذا أفعل؟ لم يقل لي أحد قبل هذا انني سأتكلم. ولكن لا حول ولا. وكتبت كلمة موجزة، نحو صفحة. وألقيت نظرة على ساعتي فوجدت انها تشير الى منتصف الليل.

وأصبح الصباح. وجاء مرافقي (ريه) في الدقيقة التي عيّنها. لا قبلها ولا بعدها. المواعيد هنا مقدسة، وأكثر من مقدسة. ذهبنا الى جامعة الثقافة الصينية. فاستقبلنا رئيسها (شن) ومساعده. ثم جاء ضيف ارجنتيني ترافقه زوجته. بعد التعارف والشاي الأصفر (دون سكر) ذهبنا الى قاعة رأيناها تحفل بجمهرة من الأساتذة. تكلم الارجنتيني أولاً (وهو استاذ جامعة وحقوقي ووزير سابق). تحدث عن سعي الانسان للديموقراطية منذ أقدم العصور. تكلم بالاسبانية بينما كان مترجم ينقل كلامه الى الصينية. بعده تحدثت انا بالعربية، وأخذ الحاج داؤد يترجم.

بعد أن جلسنا كتبت زوجة الأرجنتيني كلمات على ورقة ومدت يدها لي. كان سؤالاً منها: لماذا لم تبق اللغة العربية في اسبانيا بعد حكم استمر ثمانية قرون؟ وكتبتُ كلماتٍ مما تيسر في تلك اللحظة وأعدتُ الورقة اليها. وجاءت الورقة اياها مرة ثانية وعليها عبارة: هل هناك جذور فرنسية لك؟ لم أعرف سبب السؤال الثاني. ربما بسبب اللون الأبيض وخضرة العينين. وأجبتها مرة أخرى بما تيسر (كان السؤال والجواب بالانكليزية)، أخذت الورقة ووضعتها في حقيبة يدها.

أحسست في ذلك بلمسة من الرومانسية.

ومضيت مع الضيوف الآخرين بالحافلات لزيارة المبنى التذكاري لصن يات

صن، مؤسس الصين الحديثة، وزرنا بعده المبنى التذكاري الهائل لشان كاي شيك. في كل من المبنيين تمثال ضخم.

يبدأ البرنامج في الساعة الثامنة صباحا. برنامج مزدحم وحافل. محاضرات وأفلام ومشاهدات. هناك ضيوف من أميركا واوروبا. وذهبنا لزيارة رئيس الوزراء، وعندما عرف انني من الأردن طلب أن أبلغ تحياته واحتراماته للامير الحسن. ثم شاهدنا عرضاً عسكرياً لطلاب وطالبات الكلية الحربية (نحو الفين بينهم ٢٠٠ ممرضة). ثم حفلاً رائعاً من الغناء والرقص والموسيقى، ومئات المشاعل يحملها الفتيان والفتيات وقلائد من الأزهار الاصطناعية. من أروع المشاهد. كان هناك شابان تعلما العربية في الأردن. لا يبدو التقدم في السن على الناس هنا. رئيس الوزراء عمره يزيد على السبعين، ولكنه يبدو في الخمسين. و(فارس) الذي يعرف العربية متزوج وعمره ٣٠ سنة، الا انه بدا لي وكأنه ما يزال في العشرين.

كل يوم يعادل في النشاط عدة أيام. ذهبنا بالطائرة الى مدينة كاوشينج في الجنوب. هي مدينة الصناعة في تايوان. زرنا أحواض بناء السفن ثم مصانع صهر الحديد. نشاط المواطن هنا يثير الاعجاب، ترى الانسان يعمل باجتهاد طبيعي، دون ان يبدو على وجهه التذمر والضيق. ثم سافرنا الى مدينة تاينان واشتركنا في احتفال لذكرى أحد الأبطال. خطابات وتصفيق واستقبال من البنات لا مثيل له. في الحديقة رقص وألعاب بهلوانية وهدايا من اللدائن التي تصنعها الأيدي الصينية، للتذكار. أمسية ممتعة الى أقصى حد. تتمنى لو انك تعيش في المشهد وتحتضنه وتبقى معه الى ما لا نهاية.

في اليوم التالي احتفال في مدرج تاينان، آلاف التلاميذ. خطابات بينما يؤلف الطلاب أشكال كلمات وحروف بالصينية والانكليزية. كل واحد يحمل لوحة ذات صفحات متعددة، وكل صفحة بلون معين. مثلا FREEDOM DAY. ألعاب مدهشة، وتلويح بالشمسيات الملونة او بخيوط الصوف. من يستطيع ان يعطي هذه المشاهد حقها من الوصف. ثم جسم التنّين المخيف من الورق المقوى: التنين رمز القوة عندهم. والثياب المطرزة الزاهية والموسيقى تصدح، والتصفيق المتواصل. ثلاث ساعات مذهلة اشترك في نشاطاتها أكثر من خمسة آلاف شخص. النظام الدقيق هنا كأنه من صنع الآلات.

وعدنا الى تايبي. مهرجان في مبنى صن يات صن. خطابات وخطابات. بدت اللغة الصينية ذات نبرات عسكرية. تساءلت: هل يكون الغزل بين الفتاة والفتى بهذه النبرات الحادة؟ من الخطابات بدا ان هناك تحالفاً قويا بين تايوان وكوريا الجنوبية.

في صباح يوم السفر جاءوا بدفتر صور (البوم) سهر الموظفون طوال الليل حتى يقدموا نسخاً منه للزائرين قبل أن يغادروا. التنظيم هنا والدقة في أداء العمل يفوقان ما عند الأوروبيين. هذا هو سر التقدم الذي أحرزته تايوان. يكادون يلحقون باليابانيين. هنا يقيمون العمارة الكبيرة في أسابيع أو بضعة أشهر. هنا يكتفون بالقليل من الطعام ولا يهتمون كثيراً بمتع الكسل والبطالة او بالرفاهية. وفي الأسواق شاهدت العجب العجاب: المتجر ينقسم الى قسمين، فهو منزل العائلة من الخلف، وهو مصنعها ومتجرها من الامام. يعملون كثيرا وينفقون قليلاً، ومن هنا يصدرون بضائعهم الى الخارج باسعار لا يستطيع أن ينافسهم فيها أي شعب آخر. وهنا ايضا كفاءة عالية في التنفيذ، قال الصديق موسى ابوطالب: انه اذا حدث عطل في المنزل (انبوب الماء او المصرف او غير ذلك)، فما عليك الا ان تتصل بواسطة الهاتف، فيأتيك الصانع ليكشف، ثم يعطيك موعداً قريبا. وفي الدقيقة المعينة يعود ومعه كل ما يلزم لعملية الاصلاح، حتى قطعة قماش يجلس عليها وهو يقوم بعمله. ومتى فرغ من العمل قام بكنس المكان ومسحه، ووضع كل البقايا والأتربة في دلو يحمله معه. وتقدم له الشاي في أثناء العمل فلا يقبل. وبعد أن يذهب تلقي نظرة فترى منزلك وكأن أحداً لم يدخل اليه ولم يكن يعمل فيه.

المحافظة على الكفاءة والدقة والنظام، ليست كلها من مواهب الطبيعة، بل من مكتسبات المجتمع. هناك أسباب، انهم يخشون التعرّض للعقاب. والعقاب عندهم شديد اذا ارتكب أحد الناس مخالفةً ما. منذ القديم العقاب شديد في بلادهم. قبل مدة قام بعض الشبان بالسطو على أحد البنوك. لم يكونوا لصوصا محترفين، بل كان قصدهم شراء دراجات أو ما شابه. وقبض عليهم رجال الامن وحوكموا فكان نصيبهم الاعدام. بل أُعدم معهم شخص وضعوا عنده أشياءهم وهو لا يعلم ولا يعرف أنهم ارتكبوا جرما. من شدة خوفهم من العقاب تراهم لا يرتكبون جنايات صغيرة. أصبحت الطاعة عندهم نوعاً من الغريزة. أحياناً يرون الجريمة تُرتكب ولا يعترض أحد طريق المجرم او الجاني. قبل مدة سُرق محل صائغ واستمرت عملية السرقة أربع ساعات، ولكن أحداً لم يعترض الجناة، على الرغم من ان كثيرين لا بدّ ان يكونوا شاهدوهم في اثناء عملية السرقة. يحتجون بالقول انهم يخافون ان يهاجمهم اللصوص.

هذا حديث موسى ابوطالب الذي عرف اولئك الناس جيداً طوال عدة سنين، وهو يشبه ما قرأته يومذاك في جريدة Bangkook Post على صفحتها الاولى، من ان زوجة دبلوماسي ماليزي كانت تسير ومعها ابنها الصغير، في طريق عام، عندما اعترضها حدثان على دراجة وهدّداها بعصا كانا يحملانها وطلبا قلادتها الذهبية، صرخت المرأة واستغاثت، ولكن الحدثين اختطفا القلادة وأركنا الى الفرار بينما كان جمهور الناس يتفرج، ولم يتقدم أحد لنجدتها.

While a crowd of people stood by and did nothing.

وأخيراً تأتي ساعة الوداع، وتمضي بعيداً بعيداً، وفي ذهنك صور عزيزة وذكريات حميمة. الوجوه والنظرات والبسمات، وفي أعماق النفس أسى وحيرة، لانك تعلم أن هذا كله مضى وانقضى ولن يعود. انت لن ترى تلك الوجوه مرة أخرى، ولن تستمتع ثانية بالنظرات والبسمات التي خلبت لبك وأشعلت خيالك. وتقلع الطائرة بك وانت تتساءل: لماذا؟ لماذا؟ ولا تلبث ان تستسلم. ثم لا تلبث ان تلتقي وجوهاً جديدة. ورويداً رويداً تحل الوجوه الجديدة في ذهنك وقلبك محل الوجوه القديمة. ولكن ليس الى حدّ القطيعة. فالوجوه القديمة تطل بين فترة وأخرى، تذكّرك بساعات جميلة من ساعات العمر، ساعات اختلستها ونعمت بها، وبقيت أصداؤها الحبيبة تدندن في أعماق السر والسريرة.



تايوان: الاحتفال في مدينة تاينان، والقلائد الملونة يزينون بها صدور الضيوف

أيام في بلاد الصين

برزت جمهورية الصين الشعبية في الأعوام الأخيرة كقوة كبرى ذات وزن وفاعلية، نتيجة لسياسة الانفتاح والتطور التي انتهجتها منذ عام ١٩٧٩، وبسبب انهيار الاتحاد السوفياتي القوة الكبرى التي كانت تتنافس والولايات الاميركية المتحدة على زعامة العالم وشعوبه.

ليست الصين بلادا ناشئة، بل هي بلاد حضارة عريقة موغلة في القدم والتاريخ. وقد عرف العرب الأوائل عن أهل الصين الحكمة والفلسفة والمعرفة، ومن هنا الحديث الشريف «اطلبوا العلم ولو في الصين». ويفاخر الصينيون بأنهم أسهموا في النهضة العالمية باربعة اختراعات عظيمة الشأن هي: (١) صنع الورق. (٢) فن الطباعة. (٣) البوصلة البحرية. (٤) ملح البارود. وبطبيعة الحال قام الصينيون بانشاء سور الصين الكبير الذي يُعتبر واحدا من عجائب العالم السبع (الى جانب الأهرامات وحدائق سميراميس المعلقة وغيرهما).

اننا لا نعرف الكثير عن الصين. وهذه الانطباعات التي تكونت لدي، بعد اسبوعين من التجوال والملاحظة تهدف الى تقريب هذه البلاد العظيمة وشعبها النشيط، من ذهن القارئ ومن دائرة معارفه.

شيوعية ماركس ذهبت مع الريح

على الرغم من أن الحزب الشيوعي في الصين هو الذي يحكم ويرسم ويتولى مقاليد السلطة، الا أن الذي يدرس النظام الاقتصادي السائد حالياً هناك يجد ان الشيوعية الكلاسيكية ذهبت مع الريح ولم يعد لها وجود. لقد جرّبت الصين نظام الشيوعية التي وضع خطوطها كارل ماركس وعمل لينين (ومن بعده ستالين) وماوتسي تونغ، على تطبيقها على أرض الواقع في الاتحاد السوفياتي والصين. وهذه التجربة استمرت من عام ١٩٤٩ الى عام ١٩٧٦ (العام الذي توفي فيه ماو).

بعد وقوع الثورة الثقافية (١٩٦٦ ـ ١٩٧٨)، دخلت الصين في عام ١٩٧٩ فترة الانفتاح. أي فتح الأبواب بين الصين والعالم الخارجي. فتح الأبواب للأخذ والعطاء والتعايش والتعامل مع الأقطار الأخرى، بما فيها الأقطار ذات الأنظمة الرأسمالية. ومع الانفتاح على العالم اقتصاديا كان القرار الحاسم والكبير بنسف نظرية ماركس الأساسية، النظرية القائمة على ان جميع ابناء الشعب يجب ان يقوموا بالعمل والانتاج من أجل المجتمع كله، على ان تقوم الدولة بتوزيع ذلك الانتاج على كافة أفراد الامة. وهكذا كانت الصين أسرع من غيرها من الدول الشيوعية الى اكتشاف النقص الحوهري في نظريات معلمي الشيوعية، الا وهو

اهمال غريزة حب التملّك في نفس الانسان. معلمو الشيوعية كان همّهم الأول القضاء على شرور رأس المال، وعلى تحكم الرأسمالية في المجتمع وسيطرة الأغنياء القلائل على الأكثرية من أبناء الشعب. ولكن اولئك المعلمين لم يعطوا جانب الطموحات الشخصية في الانسان حقه من الاهتمام. فابناء آدم ليسوا لدائن مجردة من الطموح الشخصي، الطموح لأن يصنع المرء شيئا خاصا لنفسه، لان ينطلق ويغامر ويبحث عن المجهول ويركب المخاطر. الانسان يتوق الى انجاز شيء من ذاته ولذاته، ان يحقق وجوده عن طريق عمل شخصي ويستمتع بثمرة انجازاته. الخطوة الاولى كانت في الريف، من اجل الاصلاح، اذ قررت الحكومة توزيع الارض الزراعية على الفلاحين شريطة ان يرتبط ذلك بالقدرة على الانتاج. وسرعان ما برهنت التجربة الرائدة على صحتها، اذ أخذ المزارع يعمل بهمة لا تعرف الكلل في زراعة الارض التي خُصصت له، وفي خلال بضع سنوات ارتفع دخل الشخص الواحد في مناطق الريف من ١٣٤ ينا (العملة الصينية) الى ٧١٠ ينات (اي خمسة أضعاف).

أعقب هذه التجربة البدء بعملية الاصلاح الاقتصادي في المدن (١٩٨٤)، عن طريق تحويل بعض مؤسسات القطاع العام الى مؤسسات مستقلة، وسمحت الدولة للأفراد بانشاء مؤسسات خاصة بهم (فردية وجماعية) كما سمحت لرأس المال الأجنبي بالدخول شريكا في مؤسسات استثمارية. وقد تبين من بحث نشر أخيراً ان قيمة المؤسسات التي يساهم فيها رأس المال الأجنبي، بلغت ٤٦ مليار دولار (منها ٢٦ ملياراً قادمة من الخارج). ولكي تشجع الصين رأس المال الأجنبي، فقد وقعت على اتفاقيات دولية تنطوي على ضمانات قانونية للاستثمار الخارجي. وحدث انني زرت مصنعا لأجهزة الهاتف المتطورة، فقيل لي (بعد السؤال) ان صاحب المصنع رجل من هونج كونج. وجاء في ذلك البحث انه خلال عشر سنوات تضاعف مجمل الانتاج القومي في الصين وتم حل مشكلة الكساء والغذاء لكافة ابناء البلاد. ومن مشاهداتي الشخصية أستطيع القول انني زرت سبع مدن كبيرة من مدن الصين فرأيت المتاجر الصغيرة والكبيرة الحافلة بالبضائع المصنوعة محليا، وهي مزدحمة بالمتسوقين مما يدل على الوفرة والازدهار.

من هذا نرى ان الصين استطاعت ان تكتشف الخطأ في النظام الشيوعي، في الوقت المناسب، بينما ظل قادة الاتحاد السوفياتي يغمضون أعينهم عن واقع الحال في بلادهم، الى أن وقعت الواقعة وسقط السقف فوق رؤوس الناس.

على ان الاصلاح لم يلغ دور الدولة ولم يؤد الى الانفلات. فالدولة ما تزال تسيطر على تصريف الانتاج، وخاصة الانتاج الزراعي والأصناف الضرورية

لاقتصاد البلاد ومعيشة الناس، مثل القمح والقطن والزيوت النباتية.

المزارع وصاحب المصنع وصاحب أية مصلحة أخذ يعمل في الصباح وفي المساء، من أجل زيادة الانتاج وتحسين نوعيته. والنتيجة النهائية كسب للشعب والوطن، فبازدياد الانتاج يصبح الوطن أقوى والشعب أغنى.

وهكذا تم تطوير النظام الشيوعي في الصين تطويرا يتلاءم مع نظام الاقتصاد العالمي من جهة ومع غريزة حب التملك في الانسان من جهة ثانية. والدولة تسيطر على الوضع، فهي تسمح للأفراد بأن يصبحوا أغنياء، ولكنها لا تسمح لهم بأن يصبحوا حيتاناً ويخرجوا عن الخطوط التي رسمتها لهم.

الحد من الانفجار السكاني

الصين بلاد شاسعة واسعة مترامية الأطراف، ولكنها على اتساع رقعتها أخذت مع مرور الزمن تضيق بتزايد السكان فيها، فمن ٥٠٠ مليون نسمة، قفز عدد السكان في بضعة عقود الى الف مليون وبعد سنة او اثنتين أصبح العدد ملياراً و١٠٠ مليون (الرقم المتعارف عليه في عام ١٩٩٢). ان هذا العدد الهائل من الناس يحتاج الى مقادير هائلة من الطعام. وأخذ الخطر يبرز واضحا أمام انظار القيادة التي تتحمل مسؤولية الحكم (السلطة على رأي جهابذة التنظير في بلادنا). فمعدلات النمو البشري تتزايد بصورة مخيفة، والألف مليون سوف يصبحون ألفي مليون في خلال بضعة عقود، اذا استمر الحال على ما هو عليه، واذا سمح للناس ان يتوالدوا كما يشاؤون. وقررت القيادة الحاكمة انها مسؤولة عن معالجة الوضع «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»، وانها لا تستطيع ان تغمض عيونها وتترك الحبل على غاربه للأفراد. وأمام الخطر المحدق اتخذت القيادة منذ عشرين عاما، قرارا جريئا فاصلا يقضي بالحد من الانجاب، وبأن على كل زوجين ان يكتفيا بطفل واحد. كان قرارا حكيما بعيد النظر لايقاف الخطر قبل ان يستفحل. وبدأ تطبيق هذا النظام بحزم وصلابة. وفي بادئ الامر وجد القرار معارضة من كثيرين، ولكن القيادة لم تتراجع. ومع مضي الزمن أصبح القرار واقعا مقبولا في بلاد الصين كلها (باستثناء المناطق الريفية التي يسمح فيها للزوجين ان ينجبا طفلين). بل قيل لي ان نسبة لا بأس بها من الشبان الذين يتزوجون الان يعقدون العزم على عدم الانجاب اطلاقا. وهذه الفكرة وصلت الى هؤلاء نتيجة الاتصال بالثقافة الأوروبية. انهم يريدون ان يعيشوا حياتهم لأنفسهم، وأن لا يتحملوا مسؤولية تربية الابناء في عالم يزداد اضطرابا يوما بعد يوم. وأخذت هذه السياسة تعطي ثمارها بسرعة معقولة، فتوقف النمو السكاني، بل أخذ يتناقص بصورة واضحة، حتى قيل لي ان عدد سكان الهند سوف يصبح أكثر من عدد سكان الصين في بحر عشر سنوات فقط.

وحرصت ان أسأل كثيرين ممن التقيت بهم عن عدد أبنائهم، فكان الجواب في معظم الحالات: ولد واحد او بنت واحدة. بل ان (شيه) رفيقنا في مدينة قوانغشتو، قال انه وزوجته لم ينجبا حتى الان، لانهما يعملان ولا وقت لديهما لانجاب طفل والعناية به.

وقال جيانج باو جن مدير مصنع مساحيق التجميل في مدينة فوسانك ان الناس في الصين كانوا سابقا يفرحون بكثرة الأبناء اما الان فقد تبدل ذلك المفهوم وأصبح من مخلفات الماضي(١).

بــــــلاد الــــدراجــــــــات

لا أعتقد انه يوجد في العالم بلاد يستعمل أهلها الدراجات كما يفعل الصينيون. وتطل من نافذة الفندق في الصباح الباكر. فترى الدراجات الهوائية تتدفق في الشارع في موجات متلاحقة، يركبها الفتيان والفتيات قاصدين الى مراكز عملهم التي قد تكون على مسافة ساعة أو نصف ساعة. ويزداد تدفق الدراجات قبيل بدء الدوام الرسمي، فتصبح آلافا مؤلفة، ينطلق بها راكبوها وراء بعضهم البعض، دون تزاحم او عدوانية او سرعة مفتعلة. ولا يقتصر ركوب الدراجات على جيل الشباب، بل ترى كثيرين من الكهول يستعملونها وسيلة للنقل والانتقال.

من الجدير بالذكر في هذا المجال ان الكثير من شوارع المدن الكبيرة، تتضمن مسارب خاصة بالدراجات الي يمين الطريق والى يساره، وان كثرة الدراجات (القليل منها دراجات نارية) تؤدي الى تقليل عدد السيارات، وخصوصا حافلات النقل العام، والى تخفيض المساحة التي يمكن ان تغطيها في اثناء الوقوف هنا وهناك. ففي جوار الأبنية الكبيرة ترى ٢٠٠ أو ٣٠٠ دراجة تقف مصطفة في مساحة من الارض لا تكفي الا لوقوف بضع سيارات. أضف الى ذلك ما في ركوب الدراجات من رياضة بدنية فائقة، ولذلك ترى جيل الشباب والشابات على قدر كبير من الرشاقة والنشاط واللياقة البدنية.

ولا تقتصر الفائدة من الدراجات على تيسير عملية التنقل لشخص او اثنين، بل تراهم يستعملونها واسطة لنقل البضائع والامتعة والخضار والصناديق وغير ذلك. ولهذه الغاية تراهم يثبتون للدراجة عجلتين من الخلف، ويثبتون فوقهما

---

(١) قرأت في جريدة الاهرام (٣٠ ايلول ١٩٩٢) ان الدكتور طنطاوي، مفتي الجمهورية المصرية، قال في حديث له انه لا يوجد ما يمنع تنظيم الاسرة «طالما هناك ضرورة يقدرها الزوجان طبقا لظروفهما وقد تكون الضرورة اقتصادية أو صحية او اجتماعية». ولا أستبعد أن يأتي يوم يتوصل فيه المجتهدون الى اعطاء حق تقدير الضرورة في قضية تنظيم الأسرة للدولة، على أساس أنها تستطيع تقدير الضرر والنفع للشعب بأسره أكثر مما يستطيع الأفراد.

لوحا خشبياً يضعون فوقه ما يريدون نقله من متاع.

ومما يسهل عملية استعمال الدراجات في مدن الصين، ان مدنهم أُنشئت في بقاع منبسطة مستوية، لا أودية فيها ولا مرتفعات، على الرغم من اتساع مساحاتها. هذا على الأقل ما شاهدته في المدن التي زرتها.

وعلى ذكر الدراجات، قيل لي إن الرئيس الاميركي جورج بوش كان أقام مدة من الزمن في بكين، مديرا لمكتب العلاقات الأميركية مع الصين (قبل تبادل التمثيل الدبلوماسي بين الدولتين) وكان هو وزوجته يركبان الدراجات مثل الصينيين. وعندما قام بوش قبل عامين بزيارة الصين، وهو رئيس لأميركا، قدم الرئيس الصيني له ولزوجته دراجتين هدية منه، لتذكيره بأيام الشباب وبالأعوام التي أمضاها في بكين.

مدينـــــة الزيتـــون

من بين المدن الصينية يجد الزائر العربي لمدينة شانشو طعما خاصا يتغلغل في نفسه، انها مدينة الزيتون حسبما عرفها العرب المسلمون، وهو الاسم الذي ذكره الرحالة الشهير ابن بطوطة بعد زيارته لها ووصفه اياها بقوله «لما قطعنا البحر، كانت اول مدينة وصلنا اليها مدينة الزيتون، وهذه المدينة ليس بها زيتون ... ولكنه اسم وُضع عليها. وهي مدينة عظيمة كبيرة ...ومرساها من أعظم مراسي الدنيا، أو هو أعظمها ...». وما تزال المعالم الاسلامية في هذه المدينة تقف شاهدا على وجود العرب واقامتهم وتأثيرهم.

ويبرز مسجد (الأصحاب) معلماً بارزاً في وسط المدينة. سواء بجدرانه التي تزينها المحاريب والنوافذ، أو بمدخله المهيب ذي العقود الأربعة التي يرتفع اولها عشرة امتار. ويعود انشاء هذا المسجد الى سنة ٤٠٠ للهجرة (١٠٠٩م) .وكانت للمسجد قبة جليلة، الا انها سقطت بفعل الزلزال. وفي سفح أحد التلال المحيطة بالمدينة يقوم ضريحان لاثنين من الأولياء جاءا الى الصين في القرن العاشر للميلاد. كما ان متحف المدينة يضم العديد من شواهد الأضرحة التي نُقشت عليها الآيات القرآنية، أو التي تذكر اسماء أصحابها وطرفا من سير حياتهم. ووقفت بباب هذا المسجد معتبرا ساهما، وخطر لي بيت الشعر الذي قاله شوقي في المسجد الأموي بدمشق:

وقفتُ بالمسجدِ المحزون أسأله ... أفي المصلّى أم المحراب مروانُ؟

وتذكر كتب صينية أن سيدنا محمد عليه السلام أرسل أربعة من أصحابه الى امبرطور الصين، مثلما بعث الرسل الى كسرى فارس وقيصر الروم. ويجتهد باحثون آخرون في ان بعض المسلمين الاوائل هاجروا الى تلك البلاد البعيدة في

الوقت الذي هاجر فيه اخوان لهم الى بلاد الأحباش.

يقول الكاتب البريطاني الشهير هـ. جـ. ويلز في كتابه (مجمل تاريخ العالم) ما يلي: «قبل مجيء النساطرة الى بلاط الامبراطور تاي زونج بخمس سنوات، وصلت بعثة أكثر أهمية، هي جماعة من العرب أبحروا من مكة وعبروا البحر الى الصين سنة ٦٢٨م. كان هؤلاء رسل النبي محمد يحملون رسالة منه الى الامبراطور مماثلة لرسالته التي بعث بها الى قيصر الروم في الوقت نفسه. ولكن امبراطور الصين لم يتجاهل اولئك الرسل ولم يوجه اهانة لهم، بل استقبلهم بلطف ووافق على تعاليمهم الدينية. وأتاح لهم مجال بناء مسجد في مقاطعة جواندونج يؤمه التجار العرب. وبقي هذا المسجد صامدا لحدثان الزمن، وهو من أقدم المساجد التي ما تزال قائمة».

وجاء في أحد كتب الصين ان دائرة المعارف العربية الموجودة في احدى المكتبات المصرية، تذكر أن واحدا من الصحابة (تذكر ان اسمه لان ها بو) قام برحلة بعيدة مرهقة عند هجرة النبي عليه السلام من مكة الى المدينة، وانه وصل الى الصين، وان الامبراطور استقبله بلطف.

وهذه الرواية تتفق مع رواية ويلز، في اعطاء سنة ٦٢٨ للميلاد، تاريخاً لارسال البعثة النبوية الى الصين.

وبعد تلك البعثة الأولى أخذ العرب المسلمون يقصدون الى مدن الصين الساحلية، آلاف وآلاف منهم ذهبوا الى تلك البلاد، يعملون في التجارة وفي نشر الدين الاسلامي. واستقر هناك منهم كثيرون، وبنوا المساجد (كان في مدينة الزيتون وحدها ستة او سبعة مساجد). والعرب هم الذين نقلوا حرير الصين والبورسلين وصناعة الورق الى اوروبا. ومن المعروف ان وجود العرب المسلمين في الصين بلغ ذروته خلال خمسة قرون (من العاشر الى الرابع عشر للميلاد). ولكن نتيجة للكوارث الطبيعية وتقلبات الزمن والبعد عن الوطن الأم، اندمج العرب مع الصينيين، ونسوا لغتهم الأصلية. ولكن الزائر يلحظ سمات الوجوه العربية عند بعض الصينيين المعاصرين. بل ان سيدة جمعنا واياها حفل غداء قالت بشيء من الزهو انها بالتأكيد تنحدر من أصل عربي. ولاحظت في وجه الاستاذ وانغ (ليان ـ ماو) مدير متحف شانشو، الذي رافقنا في زيارتنا لمعالم تلك المدينة،، ملامح عربية واضحة من حيث اتساع العينين وطول الأنف وعدم بروز الشفتين.

أول أبطال الحرية

تقع مدينة شيامين على الساحل الجنوبي للصين في مواجهة جزيرة تايوان (فورموزا سابقا)، وفي أحد أطراف المدينة جزيرة صغيرة اشتهرت بولع أهلها

بالفنون والموسيقى، حتى انهم يطلقون عليها اسم (جزيرة الموسيقى)، ولا يسمحون للسيارات والدراجات ان تسير فيها.

في هذه الجزيرة الرائعة زرت متحفين يختص احدهما بسيرة حياة بطل اسطوري عند الصينيين، هو شنج جونج. ومع ان هذا البطل لم يعش الا ٣٨ عاما (١٦٢٤ ـ ١٦٦٢) الا انه قام بأعمال مجيدة خلدت اسمه في تاريخ الصين، فقد نذر حياته لتحرير بلاده من وجود القوات الهولندية والبريطانية فيها، بعد ان استولت على جزيرة تايوان وسيطرت على أجزاء من الساحل الصيني. واتخذ جونج من الجزيرة الصغيرة مركز قيادة له، وأخذ يحشد المقاتلين ويشن الغارات على أعداء بلاده، الى أن تمكن من طردهم من الساحل ومن جزيرة تايوان نفسها، وبذلك أصبح رائد حركة الحرية في الصين، وبطلها الأول. وعلى مرتفع في طرف الجزيرة أقيم له تمثال ضخم من الحجارة المنحوتة يرتفع ١٦ مترا ويطل على ماء البحر. فوقفت أمامه خاشعاً متهيبا، أتأمل كيف تعمل الأمم الحية على تخليدأبطالها اعترافا بجهودهم وتضحياتهم في سبيل الوطن، ولكي يكونوا مثلا حيا بارزا للأجيال اللاحقة.

جيـــش المحـــاربيـــن

كان أباطرة الصين القدماء يحرصون على اقامة المدافن الضخمة الشاهقة لأنفسهم، وعلى اقامة الحراسات عليها. وحدث أن أحد اولئك الأباطرة في مدينة شيان (عاصمة الصين القديمة) أقام مدافن له ولأسرته بعيدا عن المدينة، وأقام بالقرب منها جيشا من الجنود (على هيئة تماثيل) لحراسة تلك المدافن. ولكن بعد عدة قرون من الزمن جاء الى الحكم امبراطور آخر من أسرة أخرى. فأمر بطمس تماثيل الجنود ومركباتهم، وفي اثناء ذلك تحطم الكثير منها. وكان الطمس بوضع ركام من الاتربة فوقها حتى تمت تسويتها بالارض. ومضت سنون عديدة، ونسي الناس وجود التماثيل الى ان حدث في عام ١٩٧٤، ان أحد المزارعين أخذ يحفر بئر ماء في أرض له، فعثر على جسم انسان من الفخار، وقام الرجل بابلاغ السلطات المسؤولة عن اكتشافه، وسرعان ما بدأت أعمال الحفريات، فتكشفت بالتدريج عن صفوف متتالية من الجنود صنعت من الفخار. كان بعض تلك التماثيل محطما او مصابا بكسور بينما كان بعضها الآخر في حالة سليمة، وكان الفنانون الذين صنعوا التماثيل قد دهنوها بطبقة من الطلاء اللامع. ومع ان تقديرات علماء الآثار تضع رقم اولئك الجنود وضباطهم في حدود ستة آلاف الا انه لم يتم ترميم سوى ألف منهم حتى الان. ولم يكن الفنانون يصنعون التمثال قطعة واحدة، بل عدة قطع ثم يأخذون في تركيبها فوق بعضها البعض، والمدهش الذي يجعل لهذه التماثيل قيمة فنية عظيمة ان وجوه الجنود صنعت بحيث تتميز ملامح الواحد منها عن الآخر، وكذلك وضع الأيدي والأرجل وهيئة الوقوف. وفي مكان متوسط تم

اكتشاف مركبة من مركبات الحرب تجرها الخيول. كما تم اكتشاف مركبتين من البرونز تجرهما الخيول، وقد دهنتا بطلاء من الفضة والذهب متعدد الألوان.

عندما يقف المرء في مواجهة تلك الصفوف المنتظمة من الجنود، في وقفة استعداد وتأهب تضفي منظرا مهيبا مؤثرا، لا يملك الا ان تمتلىء نفسه بالاعجاب والدهشة، لذلك العمل الفني الجبار، ولا يملك الا ان يتفق مع علماء الصين الذين يقولون ان تلك التماثيل Terra Cotta تعتبر العجيبة الثامنة من ابداعات الانسان القديم. ومن المتوقع ان يتم الكشف عن بقية تماثيل ذلك الجيش وترميم أكثرها. وهناك ترى الزائرين من الصين وغيرها يقصدون ذلك الموقع بالمئات والآلاف.

اما مدينة شيان فتقع في سهل منبسط عظيم الاتساع، حتى ان السفر اليها بالسيارة من المطار استغرق أكثر من ساعة، حيث تمر الطريق في وسط حقول القمح والذرة الصفراء. وقال مرافقنا انهم يزرعون الأرض هنا مرتين في السنة لغزارة الأمطار التي تهطل في مختلف الفصول. ومن المعالم المدهشة في المدينة ذلك السور الذي يحيط بها وطوله ١٢ كيلومترا وعرضه ١٣ مترا وارتفاعه ١٥ مترا. وتتخلل السور المنيع ابواب عظيمة ذات عقود، وتعلوه الأبراج، وتزيد من قوته قلاع حصينة بنيت على مسافات متقاربة بقصد اقامة الجنود وتخزين الأسلحة والمعدات والمؤن.

جويلين التي لا مثيل لها

تمتاز المدن في الصين بكثرة الأشجار، حتى ترى منازل المدينة لا تكاد تبين في بحر الخضرة المحيطة. والأشجار التي زرعت قديما تتبعها كل سنة ملايين الأشجار التي غرست حديثا. ويعيش معظمها ويترعرع بسبب كثرة هطول المطر، وخاصة في المناطق الساحلية.

وهناك مدينة تمتاز على غيرها بموقعها الفريد وطبيعتها الخلابة ذات المناظر التي لا مثيل لها في العالم، حتى قيل أنها أجمل بقعة تحت قبة السماء. انها مدينة جويلين الصغيرة.

هنا الماء والخضراء والوجه الحسن. ولا أتحدث عن البحيرة الهادئة الى جانب المدينة، ولا النهر الذي يمر بها وينساب منها مسافات الى ان يصل الى ميناء نهر (لي جانغ). في الميناء وجدنا سفنا عديدة للركاب، فركبنا واحدة منها مع آخرين جاءوا للسياحة، ولم تلبث السفينة أن أخذت تشق طريقها في المياه القليلة العمق، تتقدمها سفن وتتبعها سفن أخرى حافلة بالسياح من مختلف أقطار العالم. ونسير مع النهر الهادئ على مدى خمس ساعات بين جبال عالية علي الجانبين. والنهر المتعرج يسير في واد يكاد يكون مستويا، وعلى الضفتين تسبح قطعان الجواميس

وتراها تغرس رؤوسها في الماء لتأكل من العشب الطالع في العمق، وأسراب البط تسير مع الماء بهدوء ووداعة، وأشجار البامبو الباسقة تلقي بظلالها على الماء، وزوارق سكان الوادي البدائية المصنوعة من سيقان البامبو الخفيف، يجدف بها أصحابها كما كان أسلافهم يفعلون منذ آلاف السنين.

كل هذه المشاهد تتكامل روعتها عندما يرفع المرء بصره نحو تلك الجبال المخروطية التي تحف بالنهر من الجانبين، وهي جبال قلّ أن يوجد لها نظير في الأرض لانها لا ترتبط ببعضها البعض، بل تراها تنبثق من وجه الأرض، واحداً بعد آخر، كأنما هي أكواز الذرة الصفراء، أو أهرامات مصر. ولكل جبل تكوينه الخاص وشكله المتميز، وقممها ترتفع شامخة مستديرة او مائلة تنطح غيوم السماء وتضفي على النهر والوادي مهابة وسحرا. وتغمض عينيك قليلا وتتمنى ان تمتد اللحظة وان تحتويها في راحة يدك أو في أعماق قلبك. ولكن اللحظة تمضي، وتمضي اللحظة التي تليها، وتصل الرحلة الى غايتها ولا يبقى في النفس سوى الصورة الخيالية ووميض الذكريات.

اما المغارة التي تتغلغل في جبل لودي، على بعد مسافة قصيرة من المدينة، فمن عجائب الطبيعة النادرة. انها تمتد في عمق الجبل مسافة ٢٤٠ مترا، وتمتد طولا ٥٠٠ متر. وفي الداخل ترى التشكيلات الصخرية المختلفة بعضها كالأعمدة وبعضها كالثريات وبعضها كالأزهار. وهي بمجموعها تبدو أحيانا كالغابة ذات الأشجار الباسقة، وتبهرك الأضواء التي زرعها المهندسون هنا وهناك بألوان خضراء وصفراء وبنفسجية. كل ذلك مع ضخامة واتساع، تبدو معهما مغارة قاديشا في لبنان مكانا صغيرا متواضعا.

العامل الذي أصبح مديرا للمصنع

في مدينة فوسان الريفية زرنا مصنعاً لأدوات التجميل يديره (جيانج باو جن)، ويملك ذلك المصنع أهل الحي الذي أُقيم فيه. بدأ المصنع انتاجه سنة ١٩٨٥ بقيمة نصف مليون ين (الين يساوي ١٢٥ فلساً بسعر الصرف الرسمي، وقيل لي انه يساوي ١٠٠ فلس بالصرف غير الرسمي). وفي خلال ثماني سنوات ارتفعت قيمة الانتاج الى اكثر من عشرة ملايين. يقول جيانج انه ولد سنة تحرير الصين (١٩٤٩). بدأ حياته عاملاً زراعياً يعمل في الحقول، وبسبب نشاطه أصبح الان مديراً للمصنع، يشتغل معه فيه مهندسون وخبراء تجميل. قال: ان الحكومة تسمح للمجتهدين العاملين ان يصبحوا أغنياء. دعانا لزيارة منزله القريب ولحق بنا على دراجته (لم يقتن سيارة بعد). رجل بسيط يرتدي من الملابس قميصاً وبنطلوناً وحذاء نصف مهترئ. لولا الحياء لقلت انه ابتاع ملابسه من سوق الملابس المستعملة. المنزل مساحته صغيرة، ولكن بسبب تحسن أحواله المادية

رفعه بالتدريج الى أربعة أدوار. استقبلتنا زوجته بترحاب وقدمت لنا الشاي الأخضر. لا خدم ولا حشم. لهما ولد واحد فقط كان عند زيارتنا في المدرسة. لو قارنت هذا الرجل البسيط المتواضع بالناس في بلادنا لشعرت بالصداع. حب التظاهر والنفخة لا وجود له عند الصينيين. هذا ما بدا لي. قال جيانج ان التقدم والازدهار في البلاد يعودان الى سياسة الاصلاح والانفتاح. يستطيع المرء الان ان يكسب بمقدار ما يعمل وينتج. قيل لنا ان الانتاج الزراعي عند أهل ذلك الحي ارتفع من مليوني ين سنة ١٩٨١ الى ٥٠ مليوناً في عام ١٩٩١. قبل الانفتاح كانت المساحة المخصصة لسكنى الشخص الواحد ٢٢ متراً، والان أصبحت ٤٠ متراً ونيفاً. وكان مدخول الفرد ٤٣٩ يناً في السنة فارتفع الان الى ٣٣٩٠.

ملامــــح مــــن الحيــــاة

يعمل الصينيون الان على مد جسور العلاقات بينهم وبين أمم العالم، ومن جملتها الأمة العربية. في جامعة بكين قسم لتعليم اللغة العربية. وأعتقد أن جميع العاملين في السلك الثقافي الخارجي في بلاد العرب، من خريجي القسم العربي في جامعة بكين. صديقنا الاستاذ كينج زيلي المستشار الثقافي لسفارة الصين في عمان، مثال واضح على رغبة الصينيين في الاتصال بثقافات الأمم الأخرى والتعرّف عليها والتعامل معها. أمثاله هم الذين يؤلفون واسطة الاتصال بين الثقافات. لا أدري اذا كان هناك عرب يعرفون الصينية. ولكن الذين يعرفون العربية في الصين قلائل جدا. يود الصينيون أن يبنوا جسور الاتصال الثقافي بين العرب وبينهم، ولكن حاجز اللغة يجعل ذلك أمراً بالغ الصعوبة. اللغتان العربية والصينية ليستا من اللغات التي يمكن للغريب ان يتعلمهما بسهولة. أضف الى ذلك أن توجه العرب الثقافي كان منذ أقدم العصور يتجه نحو أمم البحر الأبيض المتوسط. وكذلك كان الحال بالنسبة للدولة العثمانية التي كانت لها السيادة في بلاد العرب أربعة قرون. وقد عمل التغلغل الاستعماري لبعض الدول الأوروبية في بلاد العرب، على توطيد الاتصال الثقافي مع الغرب. والنفوذ الأميركي في أيامنا هذه يعزز ذلك الاتصال.

وبدا لي ان اللغة الانكليزية في أيامنا هذه، هي اللغة الثانية في الصين، انهم يعلمونها في بعض مدارس المناطق الساحلية. وفي الطائرات الصينية التي تنقلنا بها كانت الانكليزية اللغة الثانية التي يعطي مضيفو الطائرات ارشاداتهم بها. وأذكر انني التقيت في أحد فنادق القاهرة بسيدة ايرانية تحسن الانكليزية، فقالت ان الانكليزية هي اللغة الثانية في ايران، يدرسونها في المدارس كما نفعل نحن في الأردن. من أهم أسباب ذلك سهولة اللغة الانكليزية، ومرونة قواعد الصرف والنحو فيها (هذا يحتّم علينا تبسيط قواعد اللغة العربية حتى لا تصبح الكتابة الصحيحة والتكلم بها، مقصوراً على المتخصصين).

يعمل الصينيون على الافادة من الثقافة العالمية المعاصرة. كانت الكتابة الصينية من اليمين الى اليسار، او من فوق لتحت. ومنذ سنة ١٩٥٤ تحولت دوائر الحكومة للكتابة من اليسار الى اليمين. ومنذ سنوات أخذ الصينيون يستعملون حروف الأرقام الأفرنجية بدلاً من الأرقام الصينية الصعبة والمعقدة أحيانا. انك تجد هذا واضحا في ترقيم صفحات الكتب وفي دليل الهاتف وأرقام الهواتف على البطاقات الشخصية وأرقام السيارات. من المفارقات في هذا الصدد، أننا نحن العرب نستعمل الأرقام الهندية (في الصغر تعلمنا الحساب الهندي على ألواح الأردواز) وتركنا أرقامنا العربية ليستعملها الغرب. أعترف انني لا أعرف متى تم هذا وكيف(١).

المرأة في الصين تتساوى مع الرجل في كل شيء وحريتها الشخصية كاملة في المجتمع. الزواج يتم بالتفاهم بين الفتى والفتاة، ويُحاط الأهل علماً بذلك فلا يعترضون. والترابط في العائلة الصينية قوي ويقوم على تقاليد عريقة من الاحترام والتعاون وليس على أساس سيطرة الرجل.

ومع ان طعام الصينيين الرئيسي هو الأرز. الا انهم يكثرون من أكل السمك والمخلوقات البحرية الأخرى (لوفرتها في مياه البحار). وتدخل الخضروات في طعامهم بكثرة، وهو سهل الهضم لان الطبخ يتم عن طريق السلق بالماء وليس عن طريق القلي. ويجلس الطاعمون حول المائدة، وتدور فوقها طاولة مستديرة، وتأتي الفتيات بأطباق الطعام، لوناً بعد آخر. وقيل لي أن ألوان الطعام يمكن أن تصل الى ٣٦ لوناً في وجبة واحدة. اما مهارة الصينيين في تناول الطعام بعودين من الخشب، فحدّث ولا حرج. وحاول ان تتعلم

معالم سور الصين والنقوش المدهشة

هناك الكثير مما يستطيع المرء أن يتحدث عنه. سور الصين الذي أُنشيء على قمم الجبال العالية، والذي لا يقل عرضه عن خمسة أمتار، وترتفع قلاعه أحيانا الى ١٤ مترا. وتقف مشدوها تتساءل كيف استطاع اولئك الناس قبل الفي سنة ان ينقلوا كل هذه الحجارة من الأودية السحيقة؟

عمل من أعمال الجبابرة دون شك. ان ركاب سفن الفضاء لا يستطيعون ان يتبينوا من وجه سطح الأرض سوى معلمين اثنين: اهرامات مصر وهذا السور

---

(١) تكرّم الدكتور عدنان الخطيب، الأمين العام لمجمع اللغة العربية في دمشق، فلفت نظري الى ان الأرقام التي يستعملها العرب الان، هي أرقام عربية لحماً ودماً، مثلها مثل الأرقام الغبارية (أو الغربية)، وان وصفنا لها بالهندية، لا يجب ان يعني انها هندية الأصل. وللدكتور الخطيب بحثان منشوران يؤكد فيهما ان الأرقام التي نستعملها الان والأرقام التي يستعملها الغربيون، هي ارقام عربية المنبت سواء بسواء.

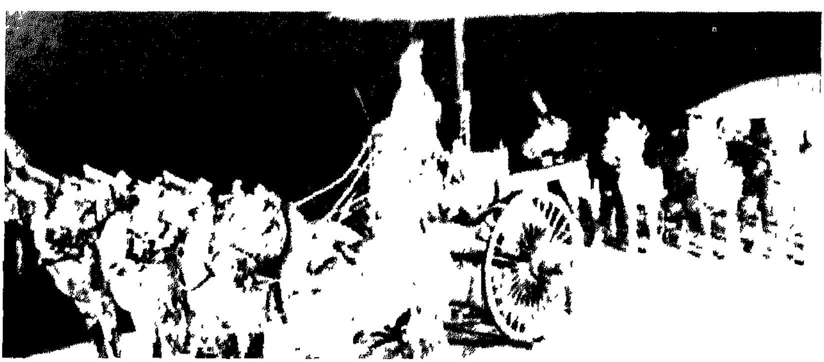
الذي يمتد أكثر من خمسة آلاف كيلومتر.

هل أتحدث عن بكين (بيجين، كما يلفظ الاسم أهل الصين) ومدن الصين الأخرى التي لا تكاد منازلها تبين من كثرة الأشجار الباسقة؟ هل أتحدث عن قصر (دينغ) الملكي الذي أُنشيء تحت الأرض، وعن دفتي بابه المرمري التي تزن الواحدة منهما أربعة أطنان؟ كيف تم نقل هذه الحجارة الضخمة من مقالعها البعيدة ثم كيف تم رفعها واحدا فوق آخر؟ هل أتحدث عن النقوش الفنية والرسومات البارزة على صفحات الحجارة الطويلة العريضة؟ وصور التنين المخيف الرهيب (رمز القوة والسطوة عند الصينيين القدماء) وطائر الكركي (رمز العطاء والخير)؟ هل أتحدث عن أكبر قصور العالم، القصر الامبراطوري في بكين، وعن ذلك الحجر الذي يزن ٢٥٠ طنا بطول ١٧ متراً وعرض أربعة امتار؟ ام عن النقوش الرائعة التي تغطي صفحته الهائلة؟

الناس في الشارع

ويقف المرء على رصيف الشارع، ويملأ بصره من هؤلاء الناس الذين يسيرون بسرعة وخفة ونشاط، ومن اولئك الذين ينطلقون على دراجاتهم بالعشرات والمئات، فيلاحظ أن أكثرهم من جيل الشباب. اراهن أنك لن ترى في الصين كلها تلك المرأة التي برز بطنها من الحبل، تسير وهي تحمل أو تقود بيدها ولداً آخر. أراهن انك لا تستطيع ان تشاهد تلك السيارة التي أركب فيها صاحبها زوجته الى جانبه، وأجلس في المقعد الخلفي أربعة أو خمسة من أطفالهما.

صين اليوم تعمل جاهدة من أجل غد أفضل. ويكفي قادتها فخراً انهم اتخذوا قرارين لم يسبقهم اليهما قادة امة أخرى (اولاً) تطويع الشيوعية الماركسية وتدجينها. (ثانيا) كبح جماح غول الانفجار السكاني.



المركبات الحربية المصنوعة من البرونز قرب مدينة شيآن (عجيبة الدنيا الثامنة)

بـــــلاد العـــــم ســـــــام
(الولايات المتحدة الأميركية)

لا أعرف أصل هذه التسمية التي أُطلقت على الولايات المتحدة الأميركية. ويبدو لي انها أُطلقت قبل ان تصبح أميركا دولة عظمى. أو الدولة الأعظم. وقبل أن تصبح عرّاباً للصهيونية واسرائيل.

كانت الرحلة الى اميركا حلما من الأحلام، تماما كالرحلة الى الصين وتايوان واليابان والاتحاد السوفياتي. تحقّق لي جزء من تلك الأحلام ولم تتحقق أجزاء وأجزاء. من أسرار الحياة العظيمة ان الأمل يظل يداعب مخيلاتنا، حتى عندما يكون الأمل نوعاً من الوهم الخادع. ولكن: الا نسعد أحيانا بالأوهام؟

قيل قديماً «رب صدفة خير من ميعاد». وهذا القول ينطبق الى حد بعيد على سلسلة من المصادفات، حملتني في نهاية المطاف الى اميركا، العالم الجديد، بلاد العم سام، في رحلة استغرقت شهرا من الزمن.

بداية البداية كانت في الدعوة التي تلقيتها للاشتراك في مؤتمر تاريخ الملك عبدالعزيز آل سعود. ففي أثناء انعقاد المؤتمر (كانون الاول ١٩٨٥) التقيت بكثيرين من أساتذة التاريخ، من مختلف أقطار العالم. وكان من بين اولئك الدكتور رشارد بوليت، مدير معهد الشرق الأوسط في جامعة كولومبيا (نيويورك). وجرّ الحديث بعضه الى أن أخبرني ذلك الاستاذ ان المعهد يخطط لعقد مؤتمر تُقدّم فيه أبحاث حول بواكير القومية العربية الحديثة وانه يحبّ ان يوجه لي دعوة للاشتراك فيه - المؤتمر - اذا كانت هذه الدعوة تلقى ترحيبا مني. وأجبت بالقبول شاكرا.

كان الاستاذ بوليت عند وعده. فلم ألبث ان تلقيتُ منه رسالة يؤكد فيها ان المعهد سوف يعقد المؤتمر الذي كان حدثني عنه، خلال أيام ثلاثة عيّنها في أواخر شهر تشرين الثاني ١٩٨٦، وطلب الي ان أختار واحدا من عدة موضوعات مقترحة أدرجها في رسالته. وأنعمتُ النظر في الموضوعات المقترحة فرأيت ان أقربها لي ذلك العنوان الذي يتعلق بالشريف حسين. وهكذا كان. وخلال الأشهر التالية كتبت البحث وبعثت به الى بوليت. وتمت الترتيبات النهائية لعقد المؤتمر خلال أيام ٢٣-٢٥ تشرين الثاني ١٩٨٦.

في تلك الأثناء كانت الدكتورة شيلا سكوفيل، تقضي شهوراً في عمان، للقيام بمزيد من البحث عن الثورة العربية الكبرى التي هي موضوع رسالتها للدكتوراة. وبحكم دراستها وتخصصها كانت على اتصال وثيق بي. وكانت الدكتورة

سكوفيل من الأميركيين المتعاطفين مع العرب، وقد لحق بها الأذى نتيجة تعاطفها هذا، على أيدي المؤسسات الصهيونية في اميركا (١).

ويبدو أن سكوفيل قامت ببعض الاتصالات، بعد ان عرفت بأمر الدعوة التي تلقيتها للاشتراك في مؤتمر جامعة كولومبيا، واستعداد الجامعة لتغطية نفقات سفري، وثلاثة أيام من مدة اقامتي ـ فكانت النتيجة أنني تلقيت من مكتب الشؤون الثقافية في وكالة الاعلام الاميركية، دعوة للقيام برحلة الى الولايات المتحدة تستغرق شهراً من الزمن (١٦ تشرين الثاني ـ ١٥ كانون الاول ١٩٨٦). وكانت رسالة الدعوة التي تلقيتها مؤرخة في ١٢ تشرين الثاني ١٩٨٦ (أي قبل عشرة أيام فقط من موعد سفري لحضور مؤتمر جامعة كولومبيا). أما وجهة نظر الدكتورة سكوفيل فهي أنني أحقُّ وأجدر من كثيرين ممن توجه اليهم الدعوات لزيارة اميركا. جزاها الله كل خير. (كنت في تلك الأثناء محالا عل التقاعد من الوظيفة الحكومية).

وهكذا أدّت تلك السلسلة من المصادفات الى ان تلك الرحلة انتقلت من عالم الأحلام والأماني الى دنيا الواقع. وكان من جملة تلك المصادفات انني التقيت في المؤتمر بالدكتورة سكوفيل، التي قدمت بحثا عن سيرة حياة الامير زيد بن الحسين.

في الحقيقة كنتُ مررت بمدينة نيويورك في طريق سفري الى المكسيك وعودتي منها (تموز ـ آب ١٩٨٢). وحدث انني في أثناء العودة أمضيت يوما في تلك المدينة بانتظار موعد سفر الطائرة الى عمان. وهكذا اغتنمت الفرصة المتاحة. فذهبت في رحلة سياحية استغرقت نحو ٩ ساعات. واشتملت تلك الرحلة على مشاهدة معالم ذات اهمية أذكر منها تمثال الحرية الشهير، والوقوف على سطح المركز التجاري العالمي الذي يرتفع ١٥٠ مترا ويضم ١١٠ طوابق، والحي الصيني، والشارع الخامس وشارع المال (وول ستريت) ومبنى هيئة الامم المتحدة، وجزيرة مانهاتن ونهر هدسون وجسر بروكلين. وكان المنظر من فوق بناية المركز التجاري رائعاً مدهشاً، اذ شاهدت المدينة تنبسط أمام ناظري بجزرها وشوارعها وأبنيتها السامقة التي هي بحق ناطحات للسحاب.

بدأ برنامج الرحلة بزيارة مدينة واشنطن، فأمضيت فيها أربعة أيام، كما أمضيت فيها أياماً أربعة اخرى في نهاية الرحلة. وخلال هذه الأيام زرت و

---

(١) عن شيلا سكوفيل وما لحق بها من أذى، راجع الفصل الثامن من كتاب الأميرك فندلي (من يجرؤ على الكلام) الذي ترجم الى العربية.

Findley : They Dare to Speak Out, Lawrence Hill & Co., west port. Connecticut U S A, 1985 pp. 212 - 237.

جورج نصيف (من أصل لبناني ولكنه لا يعرف من العربية الا بضع كلمات) عددا من الأماكن المهمة: دار الوثائق الوطنية، مبنى وزارة الخارجية (لزيارة الموظف المختص بالأردن)، مجلس الشؤون الاميركية ـ العربية، ومبنى الكونغرس، والمؤرخ الكبير الدكتور مجيد خدوري ومكتبة الكونغرس (حيث اعطاني الدكتور جورج عطية قائمة بمؤلفاتي الموجودة في القسم الخاص بالشرق الأوسط). ولقيتُ حفاوة واهتماما من الدكتور مصطفى حمارنة. اذ دعاني لزيارة جامعة جورج تاون وللتحدث مع عدد من الطلبة والأساتذة. وفي تلك الأثناء زرت أماكن مهمة وبعض المتاحف والمعالم التاريخية.

دراسات الشرق الاوسط

أمضيت ثلاثة ايام في مدينة بوسطن، حيث اشتركت في أعمال مؤتمردراسات الشرق الأوسط Middle East Studies Association الذي يلتقي فيه مؤرخون وباحثون اختصاصيون في تاريخ الشرق الاوسط من مختلف الأقطار والأمصار، ويقدمون أبحاثهم في قاعات متعددة. وكان من جملة نشاطات ذلك المؤتمر مناظرة مثيرة حول قضية فلسطين، مثّل الاستاذ ادوار سعيد (مع صحافي اميركي) الجانب العربي، ومثل الاستاذ برنارد لويس وزميل له، الجانب الصهيوني. وامتلأت القاعة الكبرى في فندق شيراتون بالحضور. بل كان الواقفون اكثر من الجالسين. وفي الحقيقة ـ ودون اي تعصب، بلغ ادوار سعيد أوج النجاح والتأثير في عرضه لوجهة النظر العربية ونقاشه. وبدا التقدم في السن على برنارد لويس، كما ان صوته كان يعاني من بحة، وعلى الرغم من مكانته وشهرته، فان الفتى العربي اللامع كان هو الذي حاز على الاعجاب وحظي بعاصفة طويلة من التصفيق.

في ذلك المؤتمر التقيت بكثيرين من الأساتذة الأعلام، وكان الدكتور أحمد ابوحاكمة من أول من التقيت بهم. كانت بيننا معرفة منذ ان كان الدكتور ابوحاكمة استاذا للتاريخ في الجامعة الأردنية. وقد أبدى عجبه واستغرابه عندما قلت له انني أريد الدخول عضوا في اتحاد الدراسات، من أجل الاشتراك في نشاطاته لهذه الدورة. فقال ان عضوية الاتحاد امر بعيد المنال، وانه تعب سنوات حتى صار عضوا فيه. قلت: لا ضرر من المحاولة. وعبأت نموذج العضوية، فقُبل طلبي دون تردّد (هذا مع دفع ٥٠ دولاراً رسم اشتراك سنوي). وحتى الان لا أدري لماذا اعتقد الدكتور ابوحاكمة ان خرط القتاد أهون من الفوز بعضوية ذلك الاتحاد؟

غادرت بوسطن دون أن أشاهد أياً من معالمها المهمة، بسبب تساقط الثلوج. ومضيت الى نيويورك للاشتراك في مؤتمر التاريخ. كانت تعليمات القائمين على عقد المؤتمر واضحة ودقيقة. عندما تصل الى مطار لاغارديا، خذ سيارة أجرة واذهب الى الفندق (عنوانه كاملا)، هناك تجد غرفة تمّ حجزها لك. تقضي الليلة هناك، في

صباح يوم ٢٣ تشرين الثاني، تحضر الى بناية كذا وكذا، الطابق السادس، حيث سيبدأ المشاركون تقديم أبحاثهم في الساعة كذا والدقيقة كذا.

هكذا الناس هناك: عمليون وواقعيون.

في جامعـــــة كولومبيــــــا

كان المؤتمر فرصة طيبة للالتقاء بأساتذة اختصاصيين والافادة من دراساتهم. ظهر أن عدد المشاركين من العرب يكاد يساوي المشاركين من الأميركيين والأوروبيين (من العرب: أحمد طربين، عبدالكريم رافق، رشيد الخالدي، بسام الطيبي، فيليب خوري، محمد مصلح). أما الأجانب فمنهم أساتذة مشهورون: هورو وتز، ايرنست دون. والتقيت هناك الاستاذ اوكسنوالد (رسالته للدكتوراه عن خط سكة حديد الحجاز) والدكتورة ماري ولسون (رسالتها عن سيرة حياة الملك عبدالله) ومالكولم رسل (رسالته عن عهد فيصل في سوريا). وكنت عرفت هؤلاء الثلاثة في اثناء زياراتهم للاردن قبل أعوام. أحببت أن أداعب الاستاذ دون Ernest Dawn ، فأشرت الى ترجمته لعبارة «دُم دائما» التي استقبل بها جمهور أهل مكة الشريف حسين بعد لقائه بالوالي العثماني (مذكرات الملك عبدالله) اذ ترجم ذلك الهتاف بكلمتي Blood Always بدلا من كلمتي Long Live. وهذا بطبيعة الحال من الاشكالات التي تواجه الأجنبي عندما يقرأ نصاً عربياً غير مشكول.

مما أثار اهتماما بالبحث الذي قدمته، ذلك النقص الذي كشفتُ عنه في النص الانكليزي لعبارة وردت في رسالة مكماهون الثالثة التي تلقاها الشريف حسين باللغة العربية (وهو النص المعتمد رسميا). فبينما ورد في الرسالة العربية القول ان بريطانيا «لا تنوي ابرام أي صلح كان الا اذا كان من ضمن شروطه الأساسية حرية الشعوب العربية وخلاصها من سلطة الالمان والاتراك» ـ فان النص الانكليزي اقتصر فقط على كلمة «حرية»، مما أحدث خللا أساسيا بمضمون الشرط الذي تلقاه الشريف. وكان تفسيري للشرط الذي تلقاه الشريف انه تضمن نقطتين اثنتين (لا نقطة واحدة):

- حرية الشعوب العربية.
- خلاص الشعوب العربية من سلطة الألمان والأتراك.

وغني عن القول انني كنت (في حدود ما اعرف) أول باحث يكشف النقاب عن هذا النقص في مضمون العهد الذي قطعته بريطانيا للعرب.

واختتمت الجلسة الأخيرة بكلمات وداع عجلى. ومضى كل واحد في حال سبيله. بدا ذلك لي خالياً من اللمسة الانسانية، عملياً ميكانيكياً أكثر مما ينبغي. المسؤولون عن المؤتمر التزموا بأجرة السفر ذهاباً واياباً. والتزموا باقامة ثلاث ليال في الفندق. اما قبل ذلك وبعد ذلك فعليك أن تتدبر أمرك دون لوم أو تثريب.

من حسن الحظ أن تلك الأيام الثلاثة جاءت في منتصف الدعوة الأخرى. وهكذا انفصلت عن مؤتمر كولومبيا والفندق الذي أنزلوني فيه، وعدت أصل حبالي بحبال الطرف الآخر، وللاقامة في فندق آخر. بدا لي أننا نحن العرب أكثر انسانية وتعاطفا مع الناس الذين ندعوهم، على الرغم من أننا أحياناً نبالغ في ذلك.

أمضيت في نيويورك ثلاثة أيام أخرى، زرت في أثنائها بعض معالم تلك المدينة الهائلة. وصادفت اقامتي يوم عيد الشكر الذي يهتم به الاميركان اهتماماً كبيرا ويحتفلون به، فدعيت انا ورفيقي لتناول طعام الغداء مع عائلة اميركية تم ترتيب استضافتها لنا قبل مدة. وزرت مقر البعثة الأردنية في هيئة الامم، فلقيت من السفير الاستاذ عبدالله صلاح ترحيبا وعناية أكثر بكثير مما لقيت من أركان السفارة الأردنية في واشنطن.

اعتقـــــــادات المورمـــــــــون

ومن نيويورك انتقلنا بالطائرة الى سولت ليك سيتي (مدينة بحيرة الملح) في ولاية يوتا، فأمضيت ثلاثة أيام كانت أجمل أيام الرحلة كلها. فهذه المدينة حاضرة طائفة المورمون التي تبرز بوضوح من بين الطوائف الغريبة العجيبة التي تنتشر في اميركا. وتقوم عقيدة هذه الطائفة على وجود نبي جديد لها اسمه (جوزيف سمث) وهو صاحب كتاب مقدس عند أتباعه. وتمتاز هذه الطائفة بالترابط الوثيق بين المنتسبين اليها، وهم يقدمون الأعشار، لرئاسة الطائفة (عشرة بالمائة مما يكسبون)، ولذلك ترى عندهم ازدهارا يقف وراءه الأعضاء الأثرياء من أصحاب الملايين. ومن أبرز صفاتهم التواضع والتسامح والأمانة والاخلاص في القيام بالعمل. وأعضاء هذه الطائفة لا يشربون الكحول. ويتشبثون بالاستقامة في القول والعمل. وكان تعدّد الزوجات فيما مضى مباحاً لرجال الطائفة، الا ان حكومة الولايات المتحدة لم توافق على دخول ولايتهم في الاتحاد الا بعد ان وضعت الولاية مادة في دستورها يحرّم زواج الرجل بأكثر من واحدة. وعلى الرغم من ذلك فان بعض الرجال في مناطق الريف ما يزالون يبنون بأكثر من واحدة (في السر). ويشتهر عن نسائهم الطاعة المطلقة للأزواج. حتى لو كانت هناك ثلاث ضرائر. ونسبة الجمال هنا عالية، وهذه الطائفة تعتبر نفسها طائفة مسيحية، الا انها حتى الان لم تحظ باعتراف الكنائس والطوائف الأخرى بها وبنبيها. وحدثني أحد رؤسائهم عن أنهم يعتقدون أن السيد المسيح ذهب الى اميركا، فسألته عن أصل ذلك

الاعتقاد، فقال ان أحد الأناجيل يذكر ان المسيح قام بجولة في مناطق بيريا والديكابوليس «وأماكن أخرى» ونحن نعتبر ان اميركا تقع في نطاق تلك الاماكن الاخرى، قلت: ان من الصعب على المرء تصديق قصة نبيكم (جوزيف سمث) والكتاب الذي أُنزل عليه ـ كما تقولون. فقال: أوافقك على هذا القول. ولكن جميع الأديان والمذاهب، فيها الكثير مما يصعب على الانسان العادي تصديقه. ولذلك ترى الالحاح على الايمان بما ورد في الكتب المقدسة، دون تشكيك، على قاعدة «طوبى للذين آمنوا ولم يروا»، ولدى هذه الطائفة مبنى واسع الأرجاء يضم مكتبة «الأنساب» وهي الوحيدة من نوعها في العالم. وتعنى هذه المكتبة بالبحث عن أنساب العائلات، ووضع شجرة لكل عائلة، ليس في اميركا وحدها بل في مختلف أنحاء العالم (من جملتها بلاد العرب).

القـــــرن (٢١) ـــ لمـــــن؟

بعد ذلك انتقلت الى مدينة سان فرانسيسكو فأمضيت فيها اسبوعاً، زرت فيه عددا من الأماكن المهمة على شاطيء البحر، ومنطقة الخليج وخاصة جسر الخليج الهائل Bay Bridge. كما أتيحت لي الفرصة لزيارة جامعة ستانفورد. وفي زيارتنا للجامعة رافقتنا سيدة متطوعة، من لحظة نزولنا من القطار، ونقلتنا بسيارتها الصغيرة. ولم تشأ أن ترافقنا في زيارة المكتبة ومعهد هوفر، فقالت: سوف أنتظر هنا في سيارتي الى ان تعودا بعد ساعتين، فعندي كتاب لا بدّ أن أمضي شوطاً في قراءته. وعندما عدنا في الوقت المعين ألفيناها في انتظارنا. وأبديت للسيدة ملاحظة حول دقة المواعيد والتقدم العلمي في اميركا. فقالت: ولكن القرن الحادي والعشرين لن يكون قرن اميركا بل قرن اليابان والصين. والسبب: انهم يعملون أكثر منا وبأجور أقل. وهم يطوّرون المبتكرات الحديثة بصورة مدهشة. وكان من رأي تلك السيدة (ذات الحيوية والرشاقة على الرغم من سني عمرها الستين)، ان اليابانيين لا يملكون قدرة فائقة على الابتكار، ولكنهم يملكون قوة خارقة على تطوير المبتكرات والاختراعات وتحسينها.

وذهبت الى مدينة لوس انجلوس في زيارة يوم واحد. ولكثرة الزلازل التي تضرب هذه المدينة فان الاعتماد في الحركة يتركز على السيارات وليس على القطارات التي تسير في انفاق تحت الأرض. وفي أثناء تلك الزيارة اتصل بي المستر ادوارد متكالف، الذي يقتني مكتبة متخصصة في موضوع لورنس (لورنس العرب). ودعاني لزيارة مكتبته، فذهبت الي حيث يقيم غير بعيد عن لوس انجلوس. وفي طريقنا مررنا بمناطق ريفية جميلة يقيم فيها مشاهير الممثلين والممثلات في منازل تحيط بها الاشجار. انها منطقة هوليوود الشهيرة (غابة الأقحوان HOLLY WOOD)، والتقينا المستر متكالف في مكتبته، فألفيناها تضم آلافاً من الكتب والنشرات، التي كُتبت عن لورنس واسطورته، او التي ورد فيها ذكر له،

ليس بالانكليزية فحسب بل في اللغات العالمية المختلفة. هذا الرجل الثري صاحب الاعمال، لم يمنعه الثراء وكثرة العمل، من متابعة هوايته الشخصية القريبة من قلبه. هنا يجدر بي أن أذكر ان ذلك الرجل اتصل بي في السنة التالية (١٩٨٧) ودعاني للاشتراك في حلقة دراسية تعقد عن لورنس في جامعة قريبة من بلدته، لمدة ثلاثة أيام، وعرض أن يغطّي نفقات سفري واقامتي. ولكنني اعتذرت عن عدم قبول تلك الدعوة الكريمة، لان الوقت الطويل الذي يستغرقه السفر ذهابا وايابا سوف يستغرق ثلاثة أيام أخرى على الأقل. وعرض الرجل أن يستضيفني بضعة أيام أخرى كي أرتاح بما فيه الكفاية بين الرحلتين البعيدتين، الا ان نفسي لم تطاوعني على تحمل كل تلك المديونية من شخص واحد، فأصررت على الاعتذار.



جويلين التي لا مثيل لها . ١٩٩٢
مع ام البنين ومرافقنا لاي في السفينة وهي تسير في النهر

حكايـــات ذات دلالـــة

أسعدني الحظ بصداقة وثقة عدد من الأشخاص البارزين. وفي أثناء اللقاءات كنت أسمع قصصا وحكايات ونوادر ذكية. كنت أدون في دفاتري بعض ما أسمع، وكان يفوتني تدوين البعض الآخر. هذه القصص والنوادر والحكايات جديرة أن توضع أمام عيني القارئ، لما يحمل معظمها من مغزى وعبرة ودلالة.

كان الزعيم الفلسطيني عوني عبدالهادي من أبرز من حظيت بصداقتهم وعنه أروي القصص الثلاث التالية:

الملك فـــــــــاروق

كانت عند فاروق خادمة ايطالية عجوز، ولها دالّة عليه بحكم الخدمة الطويلة، منذ الطفولة. في الصباح الباكر من أحد الأيام عاد فاروق من احدى السهرات، فقالت له: حبذا يا جلالة الملك لو انك تختصر من هذه السهرات، لانها تلحق الضرر بصحتك وسمعتك. فقهقه فاروق ضاحكا وردّ عليها بقوله: لا تحملي همّاً. فصحتي كما ترين «زي البمب». اما سمعتي فممن أخشى عليها؟ أمن هؤلاء البقر؟ (يعني شعب مصر).

روى عوني هذه القصة في معرض الحديث عن الطغاة الجهلة، الذين لا يدركون ان الشعوب، مهما استكانت، لا بدّ أن تنهض يوماً ما لتطيح بهم. وقال انه سمع القصة من أحد السفراء الأجانب في مصر.

الخديوي اسماعيـــــــل

وفي معرض الحديث عن استعدادات العرب العسكرية، بعد مرورسنة على حرب ١٩٦٧ روى القصة التالية:

ذهب الخديوي اسماعيل لزيارة باريس، وحضر حفلة عزفت فيها احدى الفرق الموسيقية ألحانا بديعة رائعة. وأُعجب الخديوي بالموسيقى، فطلب من رجال حاشيته ان يبتاعوا آلات موسيقية مماثلة لجميع الآلات التي عزف عليها الموسيقيون في تلك الحفلة، فصدعوا لأمره وابتاعوا تلك الآلات. وعاد الخديوي الى مصر وأمر بتكوين فرقة موسيقية، فتم ذلك. وعندما استكملت الفرقة تدريباتها واستعدادها، أُقيمت حفلة وأخذ الموسيقيون يعزفون. وأصغى الخديوي طويلا للعزف، ثم قال لمن حواليه: عجباً، الآلات الموسيقية متماثلة، ولكن هذه الموسيقى ليست كتلك التي سمعتها في باريس!

كان عوني يقصد أن يقول: إن وجود السلاح وحده لا يكفي. فالدور الأساسي

هو للأيدي التي تستعمل السلاح. ومن أقوالنا الدارجة في هذا المعنى. الفرس من الفارس.

وهل يخطيء عبدالناصـــــر؟

وعن عوني أروي القصة التالية:

التقيت في منزل أحد أصدقائي بعمان، بعدد من الأشخاص من ذوي المكانة والمناصب الرفيعة. ودار الحديث حول قضايا سياسية. وكان هناك اجماع على الاعجاب بالرئيس جمال عبدالناصر وبما قام به من أعمال. وأستمعت طويلا ثم قلت: لا شك في ان جمال عبدالناصر قام بأعمال عظيمة. ولكن لا تنسوا انه ارتكب بعض الأخطاء. عندئذ انتفض بشير الشريقي، عضو محكمة التمييز، وقال لي:

- عوني بك؟ ماذا تقول؟ وهل يخطيء جمال عبدالناصر؟

الملك عبداللــــــــه

حدثني السفير عبدالحميد سراج بالقصتين التاليتين عن الملك عبدالله:

وقف أحد الخطباء ذات يوم أمام الملك عبدالعزيز آل سعود، فوصفه بأنه أفضل الناس حسباً وأكثرهم سخاءً وكرماً. وعندما انتهى الخطيب من كلامه، قال ابن سعود له:

- أما عن الحسب والنسب فأنا رجل من قبائل العرب، وأفاخر حقاً بحسبي ونسبي، وأما عن الكرم فانني والله أنفق مما أملك. ولكن ما بالك برجل يتكرم على الناس مما يستدين. أليس هو في ذلك أكثر كرماً مني؟

وسأل الخطيب: ولكن من هو يا طويل العمر؟

عندئذ قال عبدالعزيز : انه عبدالله بن الحسين.

(على قول سراج انه سمع هذه القصة من أحد أخصّاء الملك عبدالعزيز).

وكان عبدالحميد سراج أمضى أعواما في ديوان الملك عبدالله، فروى القصة التالية مما عرفه بنفسه:

أرسلني الملك عبدالله ذات يوم، فاستلفت مبلغاً من المال عن طريق رئيس الوزراء ابراهيم هاشم. وجئت بالمبلغ فوضعه الملك في درج طاولته. وعرف بعض خدمه بالأمر، فجاء واحد منهم يطلب مبلغاً لتسديد ايجار منزله المتأخر، فأعطاه جانباً منه. ثم جاءه ثان يشكو ضيق حاله، فأعطاه جانباً. وجاء رجل ثالث (وهو من أهل السلط وكان يهتم بقضاء بعض الأمور الخاصة للملك)، فأعطاه جانباً. وهكذا لم يبق عنده شيء من المبلغ. وحدث ان كان هناك صحافي سبق أن طلب مالاً

من الملك ووعده، فجاء يستنجز الوعد. واستدعاني الملك وأمرني أن أدبّر له خمسة عشر ديناراً بأية طريقة. ووجدت نفسي مضطراً لأخذ هذا المبلغ سلفةً على راتبي، فأعطاه الملك للصحافي.

وحدثني المرحوم علي البلبيسي (وكنا جيراناً في جبل الحسين) بالواقعة التالية:

كان صدر أمر من الحكومة بنفي الشيخ محمد الحسين (وهو أحد الزعماء المرموقين في السلط) للاقامة في مادبا. وذات يوم جاء الشيخ كليب الشريدة يراجع الامير عبدالله من أجل الغاء أمر الاقامة الاجبارية. وردّ عليه الامير قائلا: هذه المسألة في يد ابراهيم هاشم رئيس الوزراء. فقال كليب: نحن لا نعرف ابراهيم هاشم. هو رجل جئت انت به. نحن نعرفك انت. واذا لم يصدر أمر باطلاق الحرية لمحمد الحسين، فسوف أذهب وأنضم اليه في منفاه. عندئذ ابتسم الامير وقال. لا تتسرع يا شيخ كليب. انتظر كي يعطيك رئيس الديوان رسالة باسمي الى مدير الناحية، كي يسمح لمحمد الحسين بمغادرة مادبا. ولكن هناك شرطاً ان تعود واياه لتناول طعام الغداء معي. وهنا ردّ كليب قائلا: طبعاً، وأين اذن سنتناول طعام الغداء؟ وهكذا كان.

تــواضـــــــــــع

اما الاستاذ ضيف الله الحمود، فقد حدثني ذات يوم بما يلي:

في عام ١٩٤٦ تألفت حركة (الشباب الأحرار) وفي أحد أيام ١٩٤٧، طلب الملك عبدالله ان أمثل انا ورفاقي في حضرته، وأرسل سيارته لي وفيها رئيس التشريفات، فذهبت وذهب معي بعض الرفاق. عندما وصلنا الى الديوان وكنا نحو عشرة أشخاص، استقبلنا الملك وأشار الينا بالجلوس. كان هناك قبل وصولنا السيد غازي بن راجي كاتب الملك الخاص (وهو أصلاً من قبيلة عتيبة في الحجاز). جلس الملك وأخذ كل واحد منا مقعدا. ولكن غازي بقي واقفاً اذ لم يكن هناك كرسي يجلس عليه. نهض الملك ونادى أحد الخدم وأمره أن يأتي بكرسي يجلس عليه غازي. وبقي الملك واقفاً وبقينا نحن واقفين الى ان جاء الخادم بالكرسي. عندئذ فقط جلس الملك وجلسنا نحن وجلس غازي.

حسين بن نـــــــاصر

كان الشريف حسين بن ناصر، رئيس الوزراء الأسبق، رجلا خفيف الروح. أنيس المجلس، يميل للطرفة والدعابة، ويملك روح سخرية عميقة، هذا على الرغم مما كان يبدو في وجهه من تجهم وصرامة.

في عام ١٩٦٨ كان رئيساً للديوان الملكي. اتصل بي قائلاً انه قرأ في الصحف عن

صدور كتاب لي (صور من البطولة) ويود أن يراه. ذهبت اليه وقدمت له نسخة من ذلك الكتاب. وجرّ الحديث الى اهتمامي بالثورة العربية والى اول كتاب لي عن سيرة حياة الملك حسين الاول، فقال:

- لماذا تؤلف عن الثورة العربية. ومن يهتم بالثورة وبالشريف حسين؟ اكتب عن جمال عبدالناصر، تكن من الرابحين.

قلت: الثورة جزء من تاريخنا الحديث، ولا بدّ من دراستها. وانا تخصصت في موضوعها، ولا بدّ لي من المضي في ذلك السبيل.

وكان جوابه: عسى أن لا تندم على ذلك؟!.

وزرته ذات يوم في منزله بجبل عمان، فروى القصتين التاليتين:

(١) عند نشوب الثورة العربية في صيف عام ١٩١٦ كان أبي عضواً في مجلس الأعيان العثماني، ومعه عائلته في استانبول. أصابنا ضيق شديد، وكان راتب ابي ٨٤ ليرة أخذت الحكومة تدفعها بالعملة الورقية. وكان من هبوط قيمة تلك العملة ان كيلو الفاصولياء الناشفة أصبح يباع بعشرين ليرة. كان في منزلنا ٤٤ شخصا (ابي وزوجتان وأولاد وبنات وخدم). وبالاضافة الى الضيق المادي أخذ الناس يتجنبوننا (بعد نشوب الثورة العربية) والحكومة أوقفت شرطياً قرب منزلنا يراقب من يدخل اليه.

بعد انتهاء الحرب غادرنا استانبول الى القاهرة. ومن هناك ذهب ابي وعدد من ابنائه الى الحجاز سنة ١٩٢٠. كنت في الرابعة عشرة من العمر. عمي الملك حسين منحنا أوسمة، وكان نصيبي وسام الاستقلال من الدرجة الثانية، ففرحت به فرحاً كبيراً. ومضت بعد ذلك أيام وأعوام، وعندما صرت رئيساً للديوان في عمان منحني سيدنا (الحسين) وسام النهضة المرصع الذي هو أرفع وسام في الأردن. وبعد مدة سألني جلالته عن شعوري تجاه الوسام، فقلت انني مسرور به كثيرا. فقال: أكثر من سرورك بوسام الاستقلال الذي أخذته قبل ٤٥ عاماً (سبق لي أن رويت لجلالته قصة الوسام الاول)؟ قلت: بالتأكيد. وأبدى الملك استغرابه فقلت بصراحة: هذا الوسام يساوي ١٨٠٠ جنيه (باون) فأنا أستطيع أن أبيعه وأفيد منه إذا ضاقت بي الأيام. عندئذ ضحك جلالته وقال: أرجو أن لا يأتي اليوم الذي تضطر فيه الى بيعه.

سمعة العرب في لنـــــدن

(٢) كنت أمضيت أسابيع في لندن في فندق هيلتون. وكنت أذهب لقص شعري عند حلاق الفندق. كان الحلاق تركياً وكذلك الفتاة التي تساعده في العمل. ذات يوم قال الحلاق يخاطب الفتاة باللغة التركية: أظن ان زبوننا هذا عربي. فقالت: لا أظن

ذلك. وسألها الحلاق: لماذا تظنين انه غير عربي؟ قالت: لانه جاء الى هنا اربع مرات ولم يضغط على يدي، كما يفعل العرب (كانت الفتاة جميلة). وعندما فرغت من الحلاقة أعطيـــت للفتاة البقشيش المعتاد، الا انني هذه المرة ضغطت على يدها وأنا أقول بالتركية. هذا لكي أبرهنِ لك انني عربي. فخجلت الفتاة، بل احمرّ وجهها من الخجل. ولكن الحديث دلّني على السمعة التي وصل اليها العرب في العالم.

الضرائب والخدمـــــات

في أوائل شهر تشرين الثاني ١٩٧١ بثّ التلفزيون ندوة اشترك فيها وصفي التل وعدد من رؤساء البلديات، روى رئيس بلدية الطفيلة القصة التالية.

في عهد الامارة جاء الأمير عبدالله ذات يوم لزيارة الطفيلة. وخطر له ان يتجول في المنطقة فقادته خطى التجوال الى مكان مرتفع أطل منه على واد سحيق، شاهد في بطنه قرية (ضانا). سأل الأشخاص الذين كانوا حوله: كيف يمكن للمرء ان يصل الى هذه القرية؟ وكان الجواب ان الطريق وعرة جدا لا تجتازها الا الدواب. وسأل عما اذا كانت هناك مدرسة في القرية، فقيل له: لا. وسأل أخيراً: وهل يدفع هؤلاء الناس ضرائب للحكومة؟ فقيل له. طبعا يدفعون. عندئذ قال الامير: عجيب والله. كيف يدفعون للحكومة الضرائب التي تفرضها عليهم دون أن تقدم لهم أية خدمات؟!

نزاهـــــة القضـــــاة

وعلى لسان سليمان النابلسي، أروي القصص الثلاث التالية:

ذات يوم أرسل الملك خبراً لعلي مسمار، رئيس محكمة التمييز، بأنه يود أن يراه. وحدث أنني ذهبت الى ديوان الملك في الوقت الذي جاء فيه علي مسمار. بعد ان جلسنا، التفت الملك الى علي مسمار وقال له يا علي. لقد تظلم الي رجل وتشفع بي في صدد قضية له في المحكمة. أرجو أن تنظر فيما اذا أمكن مساعدته في اطار الحق والقانون. وناوله ورقة تحمل اسم الرجل. وأخذ علي الورقة ووضعها في جيبه دون ان يتطلع اليها. ولم نلبث ان خرجنا من حضرة الملك،. وفي اثناء عودتنا سويا في سيارة، تناول علي الورقة بيده ومزّقها وألقى بها خارجاً. استغربت ذلك منه وسألته عما دعاه لذلك؟ فقال: أخشى ان يكون الرجل صاحب حق. ومن المحتمل ان يتكون في عقلي الباطن شعور ضد الرجل الذي تظلّم، قد يؤثر على حقه. ولذلك من الأفضل ان لا أعرف أسمه.

حقاً كان علي مسمار مثالاً عظيماً على النزاهة والخلق الكريم.

الراعي والرعيـــــــــة

في سنة ١٩٥٠ دُعي الملك عبدالله لزيارة تركيا. ودار حديث عن وسائل السفر التي يحسن أن يستعملها الملك في رحلته. واقترح احد كبار المسؤولين ان تبتاع الحكومة يختا يزور الملك بواسطته عددا من الموانيء حتى يصل الى استانبول. والتفت الملك الى من كانوا حوله يسألهم رأيهم. فحبذ جميعهم الفكرة واستحسنوها. وحيث انني لم أشارك الآخرين استحسانهم للفكرة (كان سليمان النابلسي وزيراً للمالية) التفت الملك نحوي وسألني عن رأيي، فقلت له: هذا غير معقول يا سيدنا فنحن في سنة قحط، والناس تنصرف أذهانهم في الوقت الراهن الى تأمين رغيف الخبز وجرعة الماء. وعندنا الان نصف مليون لاجيء. فكيف سيكون شعور هؤلاء عندما يسمعون ان جلالتك ابتعت يختاً للسياحة؟

كان ردّ الملك. والله انك لتصدقني النصيحة.

وقال للمسؤول الكبير: اصرف النظر عن الموضوع.

الهديـــــة والمكافـــــأة

في تلك الرحلة الى استانبول اصطحب الملك عبدالله معه ثمانية عشر شخصا. ولما كان سيحل ضيفاً على الحكومة التركية، فانني (وأنا أحد من رافقوه) لم أحمل معي الا خمسة آلاف دينار للنفقات الاضافية. وفي أثناء اقامتنا في استانبول، جاء خطاط تركي وقدم للملك نسخة فاخرة من القرآن الكريم ذات غلاف مذهّب، ومكتوبة بخط كوفي جميل وبثلاثة ألوان على ورق نفيس. وسُرّ الملك سروراً فائقاً بهذه الهدية، وطلب الي ان أذهب الى السوق وأبتاع حقيبة خاصة لحفظ النسخة فيها. وذهبت وابتعت الحقيبة، فوضع الملك النسخة فيها، وأخذ مفتاحها ووضعه بعناية في جيب صدريته. في اليوم التالي عاد الخطاط يقول: لقد قدمت للملك هدية، فماذا كانت مكافأته لي؟ قلت له: وماذا تريد؟ قال: لقد عُرض عليه عشرة آلاف ليرة ذهبا لقاء هذا المصحف، ولكن من أجل خاطر الملك، وهو ابن بنت الرسول الذي أُنزل عليه القرآن، فانني أكتفي بنصف هذا المبلغ. وبحساب بسيط تبين لي ان الرجل يطلب ٢٥ الف دينار (كانت ليرة الذهب تعادل خمسة دنانير في تلك الايام). طلبت من الدكتور شوكت الساطي ثم من سليمان طوقان ان يتحدثا مع الملك في الأمر، الا انهما اعتذرا. عندئذ لم أجد مفراً من ان أقص الموضوع على جلالته. لم يكن الملك يعرف كثيرا عن الأمور المالية، فكان جوابه لي: أدفع للرجل ما يطلب. قلت له: يا سيدنا نحن لا نملك سوى ثلاثة آلاف دينار (كنا انفقنا الفي دينار حتى ذلك الحين). ولا يمكن تدبير المبلغ الذي يطلبه الرجل.

وتطلّع الملك اليّ بنظرة طويلة. ثم مدّ يده الى جيب صدريته، وأخرج مفتاح الحقيبة من جيبه وناولني اياه.

وأخذت المفتاح ونظرت اليه فرأيت دمعتين تنحدران من عينيه على صفحة وجهه، من فرط تأثره.

فيصل بن الحسين

زرت الشريف حسين بن ناصر في منزله عام ١٩٧٤، فحدثني عن أنه خدم مع خمسة ملوك هاشميين (عبدالله وفيصل وغازي وطلال والحسين بن طلال). كان معجباً بالملك فيصل الى حد كبير. ومن هذا المنطلق روى قصتين واقعيتين كان شاهداً شخصياً عليهما:

الأولى: ذات يوم ذهب فيصل في زيارة الى لواء الكوت. وكان ابنه غازي معه وكنت انا ايضاً. عندما جيء بالطعام وبدأنا نأكل، شعر غازي بالعطش فطلب ماء، فجيء له بكأس ماء عكر لونه أحمر من الطين، فعافته نفسه ولم يشرب منه. وغمز غازي بعينه خادماً خاصاً كان يرافقنا، ففهم هذا ما يريد الامير، واستدار لكي يأتي بمطرة ماء صاف جاءت معنا من بغداد. لاحظ فيصل كل هذا، فأشار للخادم ان لا يذهب، بل انه طلب الماء وشرب منه على الرغم من ان ذلك كان مضراً بصحته، لانه كان يشكو من ألم في الكلى ومن أوجاع داخلية. كان من المقرر ان نمضي ليلتنا تلك في الكوت، ولذلك اختلى بنا، بعد ان انتهى الغداء، وأخذ يوبخنا قائلاً: الا تستحون؟ وكيف لا يشرب غازي من الماء الذي يشرب منه هؤلاء الناس؟! ثم قال لغازي: إنك ستكون ملكاً على هؤلاء القوم، فعليك ان تأكل مما يأكلون وتشرب مما يشربون، حتى يعتبروك واحداً منهم ويكون ولاؤهم خالصاً لك. ثم التفت نحوي يريد أن يوبخني فقلت له: يا سيدي؟ انت وابنك تريدان توطيد الملك وبناء دعائمه. ولكن ما دخلي انا؟! فضحك، وسمح لنا ان نشرب من الماء المعدني الحامض الذي كان الاطباء وصفوه له كدواء.

الثانية: كان فيصل يثق بمقدرة رجلين اثنين في العراق: نوري السعيد ومحمد رستم حيدر. نوري كان رجل دولة من الطراز الاول، ولم تنجب البلاد العربية الا القلائل من أمثاله. ذات يوم أراد نوري تعيين أحد الاشخاص بوظيفة متصرف، وطلب مني (كنت معاوناً لرئيس الديوان). ان اقدّم نص الارادة الملكية بتعيين ذلك الشخص، الى الملك فيصل للحصول على توقيعه عليها. نفذت طلب نوري وعرضتُ الكتاب الرسمي على فيصل، الا انه ردّه دون توقيع. بعد يومين جاءني نوري يلحّ عليّ في أن أعرض الكتاب الرسمي ذاته على فيصل مرة أخرى، وطلب مني أن أقول له: ان المصلحة العامة تتطلب ذلك. وفعلت كما طلب رئيس الوزراء. وتأمل فيصل الكتاب، وقال: أنا لا اريد أن أقف حجر عثرة في طريق المصلحة العامة. ووقّع

الكتاب ثم قال لي: تذكر انه لن يمر شهر حتى يطلب نوري عزل هذا الرجل. وبالفعل لم يكد يمر شهر حتى جاء كتاب من رئيس الوزراء يطلب صدور الارادة الملكية بعزل الرجل اياه. وعرضت الكتاب على فيصل فوضعه في درج مكتبه. وظلّ نوري يلح والملك يطاول، الى ان مرّ شهران آخـــران. وبعد ذلك وقّع الارادة بعزل الرجل. وفهم نوري سبب المطاولة وأدرك أن فيصل كان أعرف منه بمعادن الرجال.

الركـــــابي وسعيــــــد خـــــير

حدثني المرحوم حسني سيدو الكردي انه في مطلع شبابه عمل كاتبا في بلدية عمان، عندما كان سعيد خير رئيساً للبلدية. وكان علي رضا الركابي رئيسا للوزراء:

ذات يوم جاء لرئيس البلدية هاتف بأن الركابي باشا سوف يزور البلدية بعد قليل. وكان الركابي في زياراته للدوائر يحرص على تفقّد حساباتها المالية، لكي يستوثق انها على ما يرام. وكان مشهوراً عنه القدرة على اكتشاف الأخطاء. ووضع سعيد خير أمامه على الطاولة دفتر النفقات التي تسجل البلدية عليه حساباتها، ثم فتحه وأخذ يقرأ بنود النفقات، فوجد ان بعضها يتعلق بشراء شعير لأفراس الامير عبدالله: كيس شعير لخيل الامير، ثلاثة أكياس شعير لخيل الامير ... الواقع ان الامير عبدالله كان دائما في ضيق مادي، وكثيرا ما كان رجاجيله يأتون لسعيد خير ويقولون انهم لا يجدون ما يطعمون به خيول الامير، على الرغم من رخص أسعار الشعير في تلك الايام. وكان سعيد خير لا يجد مفراً من تلبية الطلب وتزويدهم بالشعير على حساب البلدية. وأخذ سعيد يفكر فيما عساه يقول للركابي، حين يسأله عن سبب انفاق هذا المبلغ وذاك المبلغ دون الحصول على موافقة رئيس الوزراء. وكان سعيد خير يكره ان يوجه الركابي لوماً له. وبعد تفكير وجد سعيد خير الحل الذي يريحه من الملامة، فأمسك بدواة الحبر وألقى محتوياتها على الدفتر. ولم يلبث الركابي أن وصل. وبعد ان اتخذ مجلسه طلب دفتر النفقات. وجيء له بالدفتر الذي كان الحبر قد طمس قيوداته. وسأل الركابي قائلاً: ما هذا؟ فقال سعيد خير: مع الأسف، اندلقت دواة الحبر عليه هذا الصباح. وتأمل الركابي الدفتر لحظات ثم قال: في هذه الحال لا بدّ لكم من دفتر جديد. وهكذا كان.

مما يُذكر للركابي انه كان يخطط لبناء مدينة عمان الجديدة، بعيدا عن منطقة الآثار الرومانية،اي في وادي السلط وسفوح الجبال الاخرى. ولكن لم يطل المقام به حتى يعمل على تنفيد فكرته، كما ان مالكي الارض لم يوافقوا على بيع الدونم بـ١٦ دينارا، بل أصرّوا على ٦٠ ديناراً (هذا كان سنة١٩٢٥).

شكـــــــري القـــــــوتلي

حدثني الاستاذ أكرم زعيتر بالواقعتين التاليتين:

في عام ١٩٤٩ كنت أقيم في دمشق. ذهبت ذات يوم لزيارة فارس الخوري، فكان مما قاله لي: إن أفضل ما يمكن ان يصنعه أهل فلسطين الان هو أن يضعوا أيديهم في يد الملك عبدالله ويتحدوا مع الأردن. اما معاهدة الاردن مع بريطانيا، فقد أصبحت الان غنماً لا غُرماً عليه، ذلك ان بريطانيا تستطيع الان توفير الحماية لما بقي لكم من فلسطين. وخرجت من عنده وحدثت صبحي الخضرا وآخرين بما سمعت. ولكن الخبر لم يلبث ان بلغ شكري القوتلي رئيس الجمهورية. وكنت في تلك الاثناء قد عدت الى منزلي، واذا بسيارة من رئاسة الجمهورية تقف أمام المنزل، واذا برجل ينزل منها ويطلب اليّ أن أذهب معه لمقابلة الرئيس القوتلي. وذهبت، وعند مقابلتي له بادرني بقوله: ما هذا الذي بلغني عن حديث فارس الخوري معك؟ رويت له ما حدث، فقال: هذا كلام لا يصحّ ترديده، ولا يمكن ان ينتج عنه خير لفلسطين. الأفضل أن تؤلفوا حكومة خاصة بكم وأن لا يكون لكم ارتباط بالملك عبدالله.

وأضاف الاستاذ زعيتر يقول: حدثتك بهذه الواقعة لكي أعطي مثالاً على وطنية فارس الخوري، التي كان الهدف القومي الكبير يتغلّب فيها على الغاية الحزبية والأنانية الشخصية.

اسعـــــــاف النشـــــــاشيبي

تداعى شعراء العرب سنة ١٩٢٩ لتكريم الشاعر الكبير أحمد شوقي، ومبايعته أميراً عليهم. ووصلت الدعوة الى بعض الشعراء والكتاب في فلسطين. ولكن لم تصل الى الاستاذ اسعاف النشاشيبي. وغضب اسعاف وأخذ يقول: إن شوقي ليس شاعراً كبيراً، بل إن الشاعر يوسف الفتياني أعظم منه. ولكن لم تمر سوى ايام قلائل حتى وصلت الدعوة لحضور مهرجان التكريم الى اسعاف، ففرح بها. وسرعان ما بدّل رأيه، وذهب الى مصر وهناك ألقى كلمة رفع فيها شوقي وشعره الى عنان السماء.

هـــــذا بـــــلاء مـــــن اللــــــه

حدثني المرحوم عباس ميرزا، ان أحمد جمال باشا (السفاح) هو الذي أنشأ الكلية الصلاحية في القدس لتدريس ابناء العرب، وجاء لها بأساتذة عرب، وكان مديرها جميل الدهان، وهو حلبي ولكنه كان مستتركاً. والتحقت بهذه المدرسة، وكان من أساتذتها محمد رستم حيدر (نائب المدير) وعبدالقادر المغربي. وكنا نتعلم اللغات العربية والتركية والفارسية والأوردية ايضاً، وقد شاهدت السيارة

لأول مرة في حياتي عندما جاء أنور باشا وجمال باشا الى القدس، في أوائل عام ١٩١٦ في سيارة.

كان جمال رجلاً عابساً، مكفهر الوجه، مخيفاً، يصدق عليه قول القائل «هذا بلاء من الله». وهذه العبارة تتعلق بقصة معروفة حدثت في دمشق. ففي أحد الأعوام امتنع أهل دمشق عن دفع الضرائب (لسبب من الأسباب)، وخطر للوالي ان يعاقب زعماء المدينة، على نحو غريب، فابتاع جدياً، وربطه في ديوانه، وأخذ يستدعي وجوه أحياء المدينة، جماعة بعد جماعة، ويسأل كل جماعة: ما هذا الحيوان؟ فيبادرون الى القول: هذا جدي يا حضرة الوالي. فيظهر الوالي استنكاره ويقول: هذا ليس جدياً. وبما انكم على هذا القدر من الجهل بمعرفة مخلوقات الله، فيتوجب ان تذهبوا الى السجن. وكان الوالي يعمد بعد ذلك لارسالهم الى سجن القلعة. واستمرت العملية على هذا المنوال، الى ان جاء دور وجهاء الطائفة اليهودية. وعندما دخل هؤلاء الى ديوان الوالي وجّه اليهم السؤال المعهود. واليهود أذكياء وذوو دهاء، فسرعان ما أدركوا المقصود، وكان جوابهم: هذا جدي وليس بجدي. انه من صنف الماعز ولكن ربما لا يكون من صنف الماعز، انه يا حضرة الباشا بلاء من الله. عندئذ ضحك الوالي وقال لهم: لقد أصبتم كبد الحقيقة، اذهبوا وأدفعوا الضرائب المطلوبة.

صيـــــــاد السمـــــك

التقيت بالشيخ محمد امين الشنقيطي في أواخر عام ١٩٧١. فقال انه سمع في السعودية ثناءً على كتابي (الحركة العربية)، لانني استطعت ان أكتب عن دور الهاشميين دون ان أتعرّض بالاساءة للسعوديين. ثم قال: انك تخدم الحق والحقيقة، في وقت تكاثر فيه المزيفون والمهرجون والأدعياء. ولكن لا تطمع أن يقدّرك أهل بلادك ويعرفوا فضلك وخدماتك. قصتك معهم لا تبعد كثيراً عن قصة الصياد مع الوالي. دعني أروي لك القصة:

كان في بلدة ساحلية عظيمة صياد سمك فقير الحال. ذات يوم اصطاد سمكة كبيرة من نوع فاخر، لم يصطد طوال عمره مثلها في حسن منظرها وبهاء ألوانها وكثرة لحمها. أخذ الصياد يتأمل السمكة ثم قال في نفسه: لا تصلح هذه السمكة الا للوالي. وهكذا جاء بوعاء كبير وملأه بالماء ووضع السمكة فيه، وأخذها حية للوالي. وأعجب الوالي بالسمكة، وكرر كلمة الاعجاب المعروفة: عفارم، عفارم، عدة مرات. ولكنه لم يكافيء الصياد على سمكته. وخرج الصياد من حضرة الوالي حزيناً مكتئباً، الا انه لم يلبث ان تغلب على شعوره بخيبة الأمل، وعاد لمزاولة مهنته. ،وبعد أيام واتاه الحظ فاصطاد سمكة أخرى مثل الأولى في بهائها وحجمها. وتأمل السمكة ثم قال لنفسه: لأحملن هذه السمكة للوالي، عسى ان

تذكّره الثانية بالأولى، فيكافئني ويقيل عثرتي. وفعل الصياد كذلك. ولكن الوالي لم يزد عن مكافأة الصياد بتكرار كلمة «عفارم» عدة مرات. وخرج الصياد يجرر خطى الأسى والغيظ والاخفاق. وهداه حنقه الى ان يذهب الى دكان تاجر كبير في البلدة وطلب منه ان يزن له كذا رطلاً من الأرز، وكذا رطلاً من السكر، وكذا من الطحين والعدس والقهوة وأصناف المؤن الأخرى. ثم حمل كل ذلك وقال للتاجر: عفارم، عفارم. وبينما كان يهم بالخروج من الدكان، أمسك التاجر بتلابيبه وطالبه بثمن البضاعة: فقال له الصياد: لقد نقدتك الثمن. الا تعلم ان كلمة «عفارم» هي العملة الرائجة في أيامنا هذه؟ ولكن التاجر لم يقتنع بهذا الهراء، فوقعت مشاجرة بين الرجلين الى ان جاء رجال الشرطة، فأخذوهما الى الوالي. وعندما روى التاجر ما حدث بينه وبين الصياد، أدرك الوالي ان الصياد افتعل الحادثة، بقصد لفت انتباهه. وعندئذ أمر له بجائزة، وأعطاه مكافأة حسنة، وهمس في أذنه طالباً منه ان يتستّر على ما كان من تقصيره في حقه.

وعندما عدت الى منزلي سجلت في مفكرتي العبارات التالية عن الشيخ الشنقيطي: انه رجل جم النشاط، سريع البديهة، حاضر الذهن، قوي الشكيمة، لا يبالي ولا يهاب في انتقاده للآخرين. يعتدّ بولائه للمثل القديمة وللتقاليد التي سار عليها جيل الآباء والأجداد.

ابنـــــاء الجيـــــل القـــديم

وكنت زرت الدكتور جميل التوتنجي في أواخر عام ١٩٦٨، في منزله المتواضع في شارع الامير محمد (طريق وادي السير)، فكان من جملة ما قال:

انا نموذج على الجيل القديم الذي كان يفكر بمصلحة الوطن. ما يزال أثاث بيتي على حاله منذ أن تزوجت قبل ٤٨ سنة. وما أزال أقيم في هذا المنزل، ولم أستطع تجديد الأثاث طوال هذه السنوات. اما ابناء الجيل الصاعد، فأنت تعرف عنهم مثل ما أعرف.

تقاليـــــــد الباديـــــة

للتقاليد شأن كبير عند أهل البادية، وعند أهل القرى القريبة من البادية، وكانت حقوق الضيف والجار والدخيل ترتفع عندهم الى مرتبة التقديس.

في عام ١٩٦٠ حدثني المرحوم مطلق الحديد بالقصة التالية:

كان حمد أبوجاموس شيخ عشيرة الدعجة، التي تنزل في أطراف عمان الشرقية، يحتفل ذات يوم بعرس ابن من ابنائه. في ذلك الحين (بعيد انتهاء الحرب العالمية الاولى) كان الاحتفال بالعرس أمراً بالغ الأهمية، وبخاصة عند شيوخ العشائر، اذ يذبح أهل العريس كثيرا من الخراف والجداء ويدعون ابناء العشائر

القريبة للاشتراك معهم في الفرح وتناول طعام العرس. وكان من جملة العادات في تلك المناسبة، ان يترك أصحاب العرس ثلاث أو أربع ذبائح فلا يطبخونها، وانما يعلقونها على أعمدة من أعمدة بيوت الشعر، كي يتبارى الشبان في اطلاق النار عليها واصابة الاهداف المختلفة منها.

حدث في هذا العرس بعد تقديم الطعام ان الشبان أخذوا يتبارون في اصابة الأهداف. واشترك في ذلك التباري ضيف من شرارات نجد كان ينزل يومذاك في ضيافة الشيخ ابوجاموس. وتشاء الصدف السيئة ان يمر العريس قريباً من مرمى الهدف، فتصيبه رصاصة أطلقها الضيف الشراري، فيسقط على الارض صريعاً لا حراك فيه. ويرتفع الصياح عند مصرع الشاب الذي يجري الاحتفال بعرسه، ويحاول بعض الشبان في سورة غضبهم ان يعتدوا على الشراري، الا ان والد الفتى القتيل يشهر بيده مسدسا ويعلن انه سيطلق النار على كل من يحاول الاعتداء على الرجل قائلا: هذا ضيفي وغريمي، وسوف أقتصّ منه وآخذ بثأر ولدي بيدي. وأمسك الشيخ بيد الشراري الذي كان في أشد حالات الرعب، وأدخله الى شق الحريم من بيت الشعر خاصته، حيث لا يجوز لأحد أن يعتدي على من يكون فيه، مهما كان جرمه فظيعاً. ورويداً رويداً انفضّ الناس، ثم غربت الشمس وساد شيء من السكون. وعندما انتصف الليل، جاء الشيخ بناقة من نياقه ودعا الشراري الى ركوبها، وزوّده بقربة ماء وشيء من الطعام، وسار معه شرقاً باتجاه البادية حتى بزوغ الفجر، وعندئذ قال له: لقد قمت بواجب الضيافة نحوك. وها أنت على أطراف الصحراء، فانطلق مسرعاً نحو ديرتك كي لا يلحق بك أحد أبناء عم القتيل.

وبينما كان الشراري يغذّ السير نحو بلاده، رجع ابوجاموس الى مضارب عشيرته ليدفن ابنه، بعد ان قام بواجبه نحو ضيفه.

وبعد اكثر من ثلاثين سنة وقعت حادثة مماثلة. فقد حدث ان شاباً من قضاء الخليل كان يعمل سائقاً لسيارة أجرة في الكرك. وذات يوم ضرب بسيارته واحداً من ابناء الشيخ دليوان المجالي، ضربة قاتلة. وهرع عدد من أبناء عم الشاب القتيل يبحثون عن السائق بقصد الانتقام منه. ومع ان التقاليد السائدة تبيح الأخذ بالثأر خلال الأيام الثلاثة الأولى بعد مصرع أي شخص، وهي ما يُطلق عليها اسم «فورة الدم» الا ان الشيخ دليوان أعلن في الحال انه لا يسمح لأحد بالاعتداء على السائق، لان الحادث وقع قضاءً وقدراً. وأرسل دليوان رسولاً الى السائق مع مبلغ من المال (لان السائق كان فقيراً) يطلب اليه ان يعود الى بلاده ويأتي بجماعة من وجوه أهله لعقد الصلح بحسب التقاليد العشائرية. وبالفعل ذهب السائق الى أهله ولم يلبث ان عاد مع بعض الوجهاء من أقربائه وقريته، وعقد الصلح. ولم يقبل دليوان ان يأخذ

شيئاً على سبيل الدّية.

المـــــرأة المضيافـــــة

وعن الملك عبدالله حدثني الشيخ مطلق الحديد بالقصة التالية:

كنت في السادسة عشرة من العمر، حينما مرّ بمضاربنا موكب الامير عبدالله، وهو في طريقه للصيد في أطراف البادية الشرقية،. وجاء (مخلد) أحد أتباع الامير يسأل عن والدي شاهر كي يرافق الامير في رحلته. ولكن والدي كان غائباً، فاصطحبني الامير معه. (كان شاهر في أيامه شيخ عشيرة الحديد).

ومضى الأمير في الرحلة، وأمضينا يومين ونحن نصطاد الغزلان، وفي أثناء تجوالنا مررنا بعدد من بيوت الشعر. وأحب الأمير أن يرتاح قليلاً في أحدها، فاختار أكبرها وسار نحوه ونحن معه. وسرعان ما تبين ان صاحب البيت كان غائباً، ولكن زوجته بادرت للترحيب بنا، وفرشت الارض بما لديها من فراش، ولم تلبث ان أشعلت النار وجاءت بالقهوة والأباريق، فأخذ أحد أتباع الامير يعمل على اعدادها. وغابت المرأة قليلاً ثم عادت تسوق ستة من رؤوس الماعز وطلبت الى الأمير أن يختار واحداً منها كي يُذبح وتصنع منه طعاماً. ومع ان الامير ونحن الذين معه، كنا قبل قليل شوينا عدداً من الغزلان وأكلنا من لحمها حتى شبعنا، الا انه لم يرد أن يردّ ضيافة المرأة، فأشار الى جدي من بين الرؤوس الستة. وعلى الأثر نادت المرأة شخصاً ذبح الجدي وأعدّ لحمه، بينما أسرعت هي لصنع اللبن. ولم تلبث ان طبخت الأرز، ثم جاءت باللحم والأرز في جفنة واسعة. ونهض الأمير ليصيب شيئاً من الطعام، وحاولت انا أن أعتذر بالشبع، الا أن الأمير أصرّ على الجميع ان يأكلوا قدر المستطاع.

وهكذا قامت المرأة بواجب الضيافة في غياب زوجها. وتقبل الأمير ضيافتها وشكر لها كرمها وحسن استقبالها، ولو انه اعتذر عن عدم قبول الضيافة لاعتبر الناس ذلك خروجاً على التقاليد المرعية.

دهـــــاء الرجـــــال

والتقيت في طرابلس الغرب بالصديق الدكتور محمد ابراهيم ابوسليم، فروى لي القصة التالية:

كان السيد علي الميرغني، الزعيم السوداني الكبير ورئيس طائفة الختمية، من دهاة الرجال. وكانت بينه وبين زعيم سوداني آخر منافسة غير معلنة على الزعامة في منطقتهما. ولم يكن الزعيم الاخر الا الزبير باشا، الذي افتتح دارفور، وهو رجل ذو شخصية قوية وله مهابة عظيمة ووزن ومكانة كبيران. ويبدو أن الميرغني كان يعمل فكره في كيفية التوصل الى الحط من قدر منافسه في عيون الناس، بصورة

تبدو في ظاهرها عفوية، واظهاره بأنه أقل درجة ومكانة من الميرغني. وذات يوم دعا الميرغني منافسه الزبير الى الاجتماع في موضع اقترحه بين منطقتي نفوذ الزعيمين، وأعدّ الميرغني خطته وأحكم تدبيره، فسبق في الوصول الى المكان المعيّن ومعه عدد من كبار جماعته، وهناك رتّب وجود مقعد مرتفع فوق بساط يجلس عليه وحده، حتى اذا جاء منافسه وسلم عليه، ألفى نفسه مضطراً إمّا للبقاء واقفاً، أو الجلوس على البساط الممدود على الأرض بينما يبقى الميرغني جالسا على المقعد المرتفع. وفي الساعة المعينة أقبل الزبير نحو مكان الاجتماع، وذهنه خال مما أعدّ منافسه من ترتيب. وعندما اقترب الزبير وشاهد الميرغني جالساً على المقعد الوحيد وحوله رجال يحيطون به، أدرك في لمحة خاطفة النية المبيتة، فأسرع الخطى نحو الميرغني وأقبل يسلم عليه بيد، بينما أحاطت اليد الأخرى بكتفيه ـ وكان الميرغني قصير القامة والزبير عملاقاً ـ وهو يظهر انه يريد معانقته، ويكرر القول: مرحباً يا بني، مرحباً. ثم جذبه بحزم وقوة حتى أزاحه عن مكانه قليلاًوأسرع يجلس مكانه على المقعد. وذهل الميرغني برهة وهو يُفاجأ بالسحر ينقلب على الساحر، الا انه تمالك نفسخ بسرعة وتظاهر بأن المقعد أُعدّ لكليهما. وعلى الرغم من ذلك، فان الزبير لم يمكّنه من الجلوس الا على حافة المقعد!!

وكان الزبير هذا يجمع بين الفروسية والدهاء. وقيل انه ذات يوم ضرب رجلاً كان يعمل في مزارعه، فاغتمّ الرجل لما لحقه من عار واعتزم أن يردّ على الاهانة بمثلها. وظل الرجل يراقب الزبير الى أن رآه ذات يوم يمشي في الساحة الرئيسية لحاضرة الأقليم، مزهواً متبختراً بين عدد من رجاله وأقاربه، فتقدم اليه مسرعاً وصفعه على وجهه. وهجم رفاق الزبير على الرجل وهمّوا بمعاقبته، الا ان الزبير سيطر على غضبه بسرعة وقال لمن حواليه: دعوه وشأنه، فان أحداً لن يصدق أنه أقدم على هذا. اما اذا عوقب فلن يبقى أحد في السودان الا تحدث عن الصفعة التي تلقاها الزبير من يد خادم أجير.

تذكرت عندئذ قولاً مأثوراً «الكريم من كتم إهانة نفسه».

وهـــل يُستعـــان بالنســاء؟

وهذه قصة أخرى رواها ابوسليم:

في بعض مناطق السودان يكره الرجال أن يستعينوا بالنساء، حتى لو كان في ذلك هلاكهم.وقد حدث ذات يوم أن رجالا كانوا يعملون في تنظيف بئر مما ترسّب فيها من طين. وكان عدد منهم في قاع البئر بينما كان واحد فقط على بابها ينشل دلاء الرسوبات ويلقيها الى جانب. وبينما الرجال ماضون في عملهم انقطع الحبل، فأخذ اولئك الذين كانوا في القاع يصرخون ويحثون رفيقهم الواقف فوق الباب ان يعمل على اخراجهم. ولم يستطع الرجل أن يفعل شيئا، فصاح به أحدهم يطلب اليه

أن يسرع نحو القرية ويستعين بمن فيها من نساء ـ كان الرجال في الحقول. ولكن الرجل استكبر ان يستغيث بالنساء، فصاح قائلاً. أأذهب أستغيث بالنساء؟ هذا والله لن يكون! هيا، أفسحوا، أفسحوا، وقفز الى البئر مؤثراً أن يكون بينهم على أن يستعين بالنساء! وبقي اولئك الرجال في قاع البئر الى ان عاد رجال القرية من المزارع في المساء، وأخذوا يبحثون عنهم الى ان عثروا عليهم وعملوا على اخراجهم.

وهكذا ، فلله في خلقه شؤون.

أخـــــــلاق الكبـــــــار

وشهدت ذات يوم موقفاً استدللت منه على الرجل الكبير النفس، كيف تبرز سجاياه بين أقرانه، ففي صيف سنة ١٩٧١ دُعيت لحضور حفل غداء كبير، أقامه السيد حسن الكايد في بلدته سوف تكريماً للأمير الحسن. ودعيت بحكم الجوار. كان هناك مئات من المدعوين، وهم من كبار القوم، وقد أعدّ الداعي لهم سرادقات واسعة من بيوت الشعر في الساحة المحيطة بالمنزل. اما الامير وبعض الخاصة من المدعوين فقد كانوا في داخل المنزل. كنت أجلس في واحد من بيوت الشعر، غير بعيد عن مكان يجلس فيه صالح المجالي. بعد فترة من الوقت جاء رسول من داخل المنزل يدعو بعض المدعوين للذهاب الى الداخل للسلام على الأمير، وكان صالح المجالي واحدا ممن وُجهت اليهم تلك الدعوة الخاصة. كان جوابه الفوري: أرجو ابلاغ تحياتي الى من أرسلك، وقل له انني سأتشرف فيما بعد بتقديم احتراماتي لسمو الامير. في الوقت نفسه رأيت الآخرين الذين وُجهت اليهم تلك الدعوة الاستثنائية، لا يتلبثون لحظة واحدة، بل يسرعون الى داخل المنزل. استغربت ما حدث، فسألت صالح المجالي بعد قليل عن سبب اعتذاره عن عدم تلبية تلك الدعوة التكريمية، فقال ببساطة طبيعية: أترى هؤلاء الرجال؟ انهم أعيان البلاد وذواتها. كل واحد منهم صاحب منزلة في المجتمع. من ذا الذي يستطيع أن يزعم أنه أكثر جاهاً منهم؟ انا لا أزعم ذلك ولا أحد يستطيع أن يزعم. من هنا فان تلبية الدعوة ليست ملائمة بالنسبة لي وبالنسبة لهؤلاء الذوات، ويقضي الواجب الاجتماعي أن ألتزم بمكاني بينهم، احتراماً لهم.

كان رشاد الخطيب يقف قريباً وقد استمع لقول صالح المجالي، فانتحى بي جانبا وقال: لو كان في بلادنا كثيرون مثل هذا الرجل لكانت دنيانا بألف خير.

حُـــطّ بالخـــــرج

حدثني الصديق الأمثل رفيفان خالد الخريشا بالقصة التي تكمن وراء عبارة «حط بالخرج» التي يستعملها الناس أحياناً للتدليل على أن هذا الامر أو ذاك، لا يستحق الاهتمام.

كان هناك شيخ بدوي له شأن عظيم في منطقته. وحدث انه ذات يوم قام بجولة واسعة ليزور رؤساء العشائر التي تدين له بالولاء. وقام الشيخ بالجولة على ظهر فرس له عليها خرج، واصطحب معه غلاماً يرافقه ويقوم على خدمته. وسارت الأمور على ما يرام، وأخذ كل واحد من اولئك الشيوخ الذين يزورهم الشيخ الكبير يقدم له هدية ما. وأخذ الشيخ يتقبل الهدايا، فما كان منها ثميناً ذا قيمة (صرة نقود او حلية ثمينة) وضعه في جيب صداره، واما الهدايا التي لا قيمة لها فكان يعطيها لغلامه قائلاً حُطّ بالخرج.

تصحيـــــف الأسمــــــــــاء

ذات يوم من ايلول ١٩٦٧ كنت أزور صديقي عيسى الناعوري، فعرض عليّ رسالة جاءته من صديقه وديع فلسطين في القاهرة، يقول فيها:

صدر في الاتحاد السوفياتي كتاب باللغة الروسية عن ثلاثة شعراء لبنانيين هم ايليا ابوماضي وسعيد عقل وشفيق المعلوف. ورأت احدى الصحف المصرية ان تنوه بذلك الحدث الثقافي، فنشرت خبراً عنه في احدى صفحاتها، وذكرت اسماء الشعراء كما يلي علي ابومهدي، سعد عقيل، وشفيق المالوف.

فالمحرر الجهبذ نقل الخبر عن صحيفة أجنبية تصدر بلغة أجنبية، ولكنه حرّف الأسماء بصورة جعلتها غريبة على القارئ العربي، فدلل بذلك على جهل فاضح.



الرباط ١٩٧٨: الاخضر غزال (الخامس من اليمين) والى يساره الآنسة ريشار (المؤلف اقصى اليسار)

المكتبـــــة ودار السينمـــــــــا

بعد حرب حزيران ١٩٦٧ وما أسفر عنها، قالت سلطانة الحلبي، صاحبة مكتبة (دار الكتب) في عمان:

النكبة التي أصابتنا طبيعية ما دام ان دار السينما في بلادنا أهم من المكتبة، وما دام ان نسبة رواد المكتبات الى رواد دور السينما لا تتجاوز نسبة واحد الى ألف.

(كان هذا قبل ان تغزو أجهزة التلفزيون بيوتنا وتستولي على عقول الأغلبية الساحقة من الناس).

الياقـــــات البيضـــــــاء

جاء في ملحق جريدة النهار (١٣ كانون الاول ١٩٧٠) ضمن مقالة للدكتور الياس زين: «في لبنان نسبة الطلاب في المدارس المهنية ٥ر٢ بالمائة، مع ان نسبة هؤلاء ٦٠ بالمائة في فرنسا و٦٥ بالمائة في اسرائيل».

وماذا يقول المرء في مجتمع يهيم بالياقات البيضاء، ولا يرى للحياة طعماً بدونها؟

الغـــــزل السيـــــــاسي

التقيت بالدكتور مسعود ظاهر في اثناء انعقاد مؤتمر العلاقات العربية ـ التركية في عمان (نيسان ١٩٨٥)،فروى بيتي الشعر التاليين، اللذين ابتدعتهما قريحة أحد الشعراء، تغزلاً بجمهورية اليمن الديموقراطية (اليمن الجنوبي):

عيناك مطرقةٌ وأنفك منـــجلٌ — والبعدُ عنك موقفٌ تكتيكـي

والخصرُ منك مؤدلجٌ ومنظمٌ — لم يخترقه مخططٌ أمـريكي

(المطرقة والمنجل شعار الشيوعية ، ومؤدلج من كلمة أيدلوجيا).

كنـــــائس مادبـــــــا

حدثني المرحوم محمود العابدي، عندما كان مديراً لدائرة الثقافة والفنون في عام ١٩٦٨ بالنادرة التالية:

ليلة أمس كنت أستمع الى برنامج بثته اذاعة (صوت العرب). وتضمن البرنامج محادثة مع مسؤول كبير في وزارتنا (وزارة الثقافة والاعلام). وكان من جملة الاسئلة التي وجهها المذيع لذلك المسؤول:

ـ بماذا تشتهر مدينة مادبا؟

ـ انها تشتهر بالكنائس القديمة.

- أهي كنائس قديمة جدا؟

- نعم. انها تعود الى آلاف السنين قبل الميلاد!!

القيـــــــل والقـــــــال

ذات أمسية، وفي جلسة أنس اخوانية، انطلق (...) على سجيته، فسمعنا منه نوادر ظريفة وحكايات لا تخلو من عبرة ومغزى. دعني أُعطِ مثالاً من القصة التالية:

في أول عهدي بالوظيفة، قضيت فترة من الزمن في خلق الاشاعات ونقلها وترويجها، على سبيل التسلية والدعابة: فلان سوف يُنقل الى منصب أعلى ... فلان سوف يزاح جانبا ... تعديل وزاري يوشك أن يطال فلانا ... وهكذا ... بعض تلك الاشاعات كان يتحقق وبعضها كان يلعب بأعصاب هذا وذاك. من أغرب ما حدث معي في هذا المجال، ان أحد زبائني (في ترويج الاشاعات) وهو استاذ مرموق في الجامعة، اتصل بي ذات يوم يسألني عن آخر الصيحات في دنيا الاشاعات، فقلت له (اخر ابتكاراتي) أن تعديلا وزاريا يتم طبخه الان، ومن المتوقع ان يخرج فلان وفلان من الوزارة.، وان يأتي اليها فلان وفلان. وقبض الاستاذ الحكاية وأخذ يعمل على بثّها. وبلغ من اجتهاده في ذلك انه اتصل بي بعد يومين، يبيعني ما بعتُ له ويحدثني بخبر التعديل الوزاري اياه ... يظهر انه نسي - في غمرة انشغاله بالتعديل الموهوم - أنني كنت المصدر الذي نقل عنه واستند اليه.

الفصـــــــول

روى أحد الأصدقاء الطرفة التالية، وقال انها كانت رائجة في مصر (قبل توقيع سوريا على اتفاق فصل القوات بينها وبين اسرائيل):

قال شخص لآخر: الفصول خمسة وليست أربعة.

فسأله الآخر: وكيف؟

أجاب الأول فصل الربيع، فصل الصيف، فصل الخريف، فصل الشتاء، وفصل القوات.

قال الثاني: بل هي ستة فصول. والفصل السادس هو الفصل الذي عمله أنور السادات مع حافظ الأسد (المقصود ان السادات أغرى الأسد بالدخول معه في حرب ١٩٧٣، ثم سبقه الى ايقاف اطلاق النار، وبعده الى التوقيع على اتفاق فصل القوات، وتركه يواجه الاسرائيليين منفردا).

نحـــن والأجهـــزة الحديثـــــة

هناك أجهزة اخترعها الغرب وأخذنا نحن نستعملها ونفيد منها، ولكن هل بلغ

تفاهمنا مع تلك الأجهزة وفهمنا لها، المدى الصحيح والمعقول؟

في زيارتي لاحدى العواصم العربية في عام ١٩٧٩ صادفت أمراً ترك انطباعاً قوياً في نفسي. كانت الزيارة بدعوة من منظمة اليونسكو من أجل الاشتراك في اجتماع يعقده خبراء الثقافة العرب. وجاءت برقية على جهاز التلكس من الوزارة ذات الاختصاص تطلب مني ان أحيطها علماً بموعد وصولي، من أجل ترتيب أمر اقامتي. وأبرقت بواسطة جهاز التلكس بالموعد. وسافرت بالطائرة، ولكن عند وصولي الى المطار في الساعة الواحدة والنصف صباحاً، لم أجد أحداً في انتظاري، ولم أجد خبراً يرشدني الى اين اتجه. وبعد السؤال هنا وهناك، نصحني احد الموظفين بالذهاب الى فندق (...). أخذت سيارة أجرة وذهبت ومن حسن الحظ ان موظف الاستعلامات في الفندق أبلغني انه تم الحجز لوفود مؤتمر اليونسكو في فندق (...). وأخذت سيارة أخرى وذهبت الى ذلك الفندق، فوجدت ان الاقامة ستكون فعلاً هناك.

استأت مما حدث، ولذلك حرصت عند ذهابي الى مبنى الوزارة بعد بضع ساعات، ان أسأل عن مصير برقية التلكس التي أرسلتها. وبعد ان أحالني هذا الى ذاك، وصلت الى غرفة جهاز التلكس. وكانت المفاجأة أنني وجدت شريطاً طويلاً من البرقيات (وبينها برقيتي) ما تزال مربوطة بالجهاز، ولا تجد من يقرأها، بله من يأخذ اجراء بشأنها. عندئذ تحول استيائي الى ألم.

نــــزوات العاطفـــة

زرت مصر مرة أخرى في عام ١٩٩٥ في نطاق رحلة سياحية. وبينما كانت الحافلة تسير بي وبرفاقي ذات يوم في طريق الجيزة المؤدية الى ابوالهول والأهرام، قال السائق:

هذه الطريق أنشأها الخديوي اسماعيل بطول ثمانية كيلومترات، لكي يتسنّى لضيوفه الأوروبيين الذين دعاهم للاشتراك في احتفالات افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩، أن يزوروا الأهرام، بواسطة عربات تجرها الخيول. وكان الخديوي معجباً بالامبراطورة اوجيني (زوجة نابليون الثالث)، وقد بلغ من اعجابه أنه أمر أن تكون الطريق مائلة، حتى اذا اتخذ مقعده في العربة الى جانب الامبراطورة اضطرها ميلان الطريق الى أن تميل عليه، واضطره هو أن يميل عليها، في طريق العودة!

وصدق أو لا تصدق ... ولله في خلقه شؤون.



اعظم انسان في حياتي

السيدة الوالدة التي ارشدت اول خطوات العمر (١٩٧٢).

ملاحظـــات ختاميـــة

قبل نحو شهرين كتب لي المستشرق الدكتور روبن بدويل من كامبردج يقول «المؤرخون لا يتقاعدون». وهذه المقولة تنطبق دون شك على الكتّاب والشعراء والروائيين والفنانين. فها هو الشاعر الجواهري وها هو صديقنا العزيزي، وقد أربى كلاهما على التسعين، لم يسمحا لقلميهما بالتقاعد، ولم يسمحا للسنين الطوال أن تنال من عزيمتهما.

ويلتفت الكاتب بين حين وآخر الى الوراء، الى شريط الأحداث التي مرّت به ومرّ بها. وقد يعود يوماً ما الى دفاتره القديمة، ليرى انه كتب للناس وعن الناس. ويخطر له أحياناً ان ينفض الغبار عن تلك الدفاتر ويعيد النظر فيها ويصل خيوطها بعضها ببعض. ويسرح بين السطور، وتحمله الذكريات بعيداً على أجنحة الخيال. يسترجع الوجوه التي عرفها، والأماكن البعيدة التي وقف عليها. يسترجع اللحظات السعيدة التي سمح بها الزمن. وعندما يعود الى نفسه، الى ساعته الراهنة، يتبادر لذهنه أن من حقه على نفسه أن يضع كل ذلك على صفحات الورق. يقول لنفسه: ربما تمتد سنوات العمر وتذبل الذاكرة، وعندئذ يستطيع المرء أن يعود الى ما كتب، أن يراجع صفحات حياته، يعيشها من جديد، يتملى من ملامح الوجوه التي تركت بصمات في ذهنه، يتأمل ويحلم ويبتعد عن واقعه الى عالم التأملات والأمنيات.

كذلك كان شأني عندما كتبت هذه الصفحات. كتبتها لنفسي أولاً. هل كان ذلك من منطلق الأنانية؟ في الفرنسية قول مأثور: «حتى الذي يعطي، أناني». هذا يعني ان الأنانية جزء من الغريزة، لا نستطيع التغلب عليها أو القفز فوقها.

ومرّت على ذلك سنوات. وذات يوم عدت أطالع هذه الصفحات. وخطر لي أن الكثير منها يمكن ان يجد قبولاً حسناً لدى جمهرة قراء (الرأي) التي سبق لعدد من مؤلفاتي ان ظهر على صفحاتها. وحملت المخطوطة الى الصديق الاستاذ محمود الكايد، وكان ابوعزمي عند الأمل به، فلم يلبث أن خرج بها من درج مكتبه الى عالم النور، الى أيدي القراء.

والان وبعد ان بلغت الحلقات نهايتها، أستطيع أن أزعم انها قوبلت بالرضى من قراء كثيرين. أقول هذا اعتماداً على ما تلقيت من اتصالات، أكرمني بها أشخاص أعرفهم وأشخاص لم يسبق لي أن عرفتهم، بل إن البعض تمنى علي أن أعمل على نشرها في كتاب.

كان همي أن أكون صادقاً مع نفسي، ومع الحقائق كما عرفتها ولمستها واقتنعت بها. لم يكن قصدي الاساءة لأحد. لم أقصد أن أسيء لذكرى تحسين قدري، الذي كانت خدماته مع ملوك العراق مثالاً للوفاء والاخلاص. ولكنني في الحقيقة تمنيت لو انه كتب مذكراته بحكم المواقع التي شغلها، من أجل اغناء تاريخنا الحديث. فلماذا يكتب دي غوري والدكتور سندرسن، ولا يكتب تحسين قدري؟ واذا كان لم يجد في نفسه رغبة في الكتابة أو قدرة عليها، فلماذا تبقى أوراقه في الصناديق؟ وما دام ان الدكتور لؤي قدري يؤكد أن أوراق ابيه ما تزال محفوظة لديه، فانني أستنهض همته لنشر ما هو جدير بالنشر منها، خدمة للحقيقة والتاريخ ولذكرى تحسين قدري نفسه. ولا أخفي هنا أنه عزّ علي ان أذهب الى لوزان والأمل يداعبني بالحصول على وثائق مهمة، ثم أعود مكتئباً حتى دون خفي حنين.

حتى النقاط التي قد تبدو لعامة القراء بسيطة ولا أهمية لها، وجدت من يملك الغيرة على تصويبها. فقد اتصل بي السيد سعود فياض الشرفات من بلدة المفرق، لتصويب ما ورد من قولي ان (جاوه) تقع قرب بلدة الرويشد، بينما هي في الواقع أقرب الى الصفاوي بل الى المفرق، منها الى الرويشد. اما اطلاعه على مؤلفات كولن ولسون، وعلى رأيه بشأن لورنس العرب، فقد بعث السعادة في نفسي حقاً.

ويجمل بي ان أشير الى تصويب الدكتور وليد طاش لقولي ان هوليوود تعني الغابة المقدسة، بينما هي في الواقع Holly Wood ومعناها غابة الأقحوان.

أما بشأن ديوان (محروم) للأمير عبدالله الفيصل، الذي اتصل بي السيد الخرشه من الكرك يسألني عنه - فيؤسفني انني لا أملك نسخة منه، بل لم يسبق لي أن اطلعت عليه. ويبدو أنني قصّرت في السؤال عن ذلك الديوان، سواء عند لقائي بالأمير في جدة سنة ١٩٦٧ أو في لقائي به في عمان سنة ١٩٨٩.

وكتب الدكتور عبدالحميد العباسي استاذ الطب الباطني في جامعة العلوم والتكنولوجيا يقول إن بيت الشعر الذي استشهدت به ينطوي على دلالة مهمة في العلاقة بين النفس والجسد. والبيت من قصيدة عظيمة لأبي الطيب المتنبي، أعظم شعراء العربية، ذهبت بعض أبياتها مذهب الأمثال وتناقلها الرواة جيلا بعد جيل:

لا افتخارٌ الا لمنْ لا يُضامُ ... مدركٍ أو محاربٍ لا ينامُ
ليسَ عزماً ما مرّضَ المرءُ فيه ... ليس همّاً ما عاقَ عنه الظلامُ
واحتمالُ الأذى ورؤيةُ جانبه ... غذاءٌ تُضوى به الأجسامُ
ذلّ من يغبطُ الذليلَ بعيشٍ ... رُبَّ عيشٍ أخفُّ منه الحِمامُ
من يهنْ يسهلُ الهوانُ عليهِ ... ما لجرحٍ بميتٍ أيلامُ

وكان من محاسن الصدف ان الاستاذ محمد ناجي عمايرة زار بغداد في أثناء نشر الحلقات، فشاهد ملحق جريدة الأهرام الذي ورد ذكره في الحلقة الثالثة، معروضاً مع كتب أخرى، وخطر له ان يداعبني فجاء بالملحق معه، على أساس انه عند صدوره في عام ١٩٦٥، تم توزيعه في بغداد كما وزع في عمان.

وكانت (الرأي) نشرت مقالتي عن رحلة الصين (٦ / ١٠ / ١٩٩٢) فاتصل بي الدكتور فخري التايه قائلاً انه أمضى سبع سنوات يدرس الطب في الصين، وانه يحب ان يؤكد ان مقالتي صورت الحقيقة والواقع في تلك البلاد العظيمة.

اما فيما يتعلق بالحادث الذي رويته عن الشيخ دليوان المجالي، فقد اتصل بي المهندس جميل زريقات يقول: ان رجال الأمن اعتقلوا السائق الذي تسبب في الحادث ووضعوه في المخفر. ولكن الشيخ أبى أن يُدفن ابنه الا اذا أُخرج المتسبب من المخفر ليشترك في دفن الشاب المتوفى، فكان له ما أراد.

وبشأن رسالة الدكتور أنيس الصايغ التي نشرتها (الرأي) فقد تمنيت عليه ان يطلع على الحلقة التي سبقت تلك التي اعترض عليها، وعلى حديث العالم الجليل محمد عزة دروزة عندما زرته مع الدكتور عدنان الخطيب، وروى لنا كيف أنه أرسل للصايغ تفنيداً مفصلاً لما ورد في كتابيه عن الهاشميين، وكيف انه وعده بنشر ذلك ثم لم يفعل ولم يعد المخطوطة اليه كما وعد. مع تأكيد دروزة ان مسودة التفنيد ما زالت لديه وتقع في ١٤٢ صفحة متوسطة.

أؤكد هنا انني رويت حديث الاستاذ دروزة مثلما رويت أحاديث الاستاذ أكرم زعيتر والسيدة طرب عبدالهادي، دون تزيّد أو مبالغة. وقد بنيت استنتاجاتي على ما هو معروف من المجرى العام لكتابات الصايغ. ويا ليت انه هو تحرّى الحقائق والتزم الصدق والأمانة في كتاباته قبل ان ينصح الآخرين بذلك.

وأخيراً - وليس آخراً - لا بدّ من التنويه بالاستاذ حسان ابوغنيمة (رحمه الله)، الذي تولى الاشراف على نشر الحلقات، ووضع جميع العناوين الرئيسية والفرعية لها، فأضفى عليها بذلك مزيداً من الرونق والبيان.

(الرأي) ١٤ تشرين الأول ١٩٩٣

المحتويات